الدكتور محمد محاسنة

الحضارة الإسلامية

مدخل معمق













2005



اهداء ٢٠٠٩

اسرة المرحوم محمد حسن الليثى

جمهورية مصر العربية

الحضارة الإسلامية

(مدخل مُعمّق)



الطبعة الأولى

٢٠٠٥ م

المملكة الاردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة
المكتبة الوطنية
(٢٠٠٤/٨/١٩٦٠)

٩٦٥

محاسنة: محمد حسين

الحضارة الإسلامية: مدخل معمق/محمد حسين محاسنة_عمان:

مركز يزيد للنشر ٢٠٠٤

(٣٢٨) ص

ر.ا: (٢٠٠٤/٨/١٩٦٠).

المواصفات:/ الحضارة الإسلامية// التاريخ الإسلامي/

- تم إعداد بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية من قبل دائرة المكتبة

مركز يزيد للنشر

مركز يزيد للخدمات الطلابية

الأردن – الكرك – جامعة مؤتة – البوابة الشمالية

فاكس: ٣٣٧٢٥٢٨ – خلوي: ٠٧٩/٥٨٥٩٤٧٢

ص.ب (٣٦) الرمز البريدي ٦١٧١٠

الحضـــارة الإســـلاميـة

(مـدخـل مُـعـمّـق)

تأليف

الدكتور محمد حسين محاسنة

جامعة مؤتة

٢٠٠٥م

المحتويات

المقدّمة

تعتبر الحضارة العربيّة الإسلاميّة من أرقى وأعظم الحضارات العالميّة، لذلك فمن الضروري لروّاد العلم وطلاّبه أن يتعرّفوا عليها، ويطّلعوا على منجزاتها، وكان العلماء في أوروبا يدركون أهميّة التعرّف عليها ودراستها، فأقبلوا على مراكز الحضارة العربيّة الإسلاميّة ينهلوا من معينها، وينقلوا عنها ويترجموا إلى لغاتهم.

وجاءت هذه الدّراسة لتعريف التلاميذ وطلبة العلم بأهميّة الحضارة العربية الإسلاميّة، والاطّلاع على مظاهرها ومنجزاتها، واشتملت على مقدمة وإثني عشر فصلاً وخاتمة، إضافة إلى قائمة للمصادر والمراجع التي اعتمدت عليها الدّراسة، فاشتمل الفصل الأول على مفاهيم مرتبطة بالحضارة الإسلاميّة، كالحضارة والإسلام.

وجاء الفصل الثاني بمثابة تمهيد للدّراسة، ويتضمّن التعريف ببعض مظاهر الحضارة العربيّة قبل الإسلام، مع بيان أهم المراكز الحضاريّة عند العرب والدّويلات التي نشأت في جنوب وشمال الجزيرة العربيّة، وفي العراق وبلاد الشّام.

واشتمل الفصل الثالث على البحث في قيام الدولة العربيّة الإسلاميّة الأولى والتي هَيّأت لظهور الحضارة الإسلاميّة، ابتداءً من الدعوة إلى الإسلام، والهجرة النبويّة إلى يثرب، وانتهاءً بوفاة النبي ﷺ، بينما تناول الفصل الرابع مميّزات وخصائص الحضارة العربيّة الإسلاميّة.

وتضمّنت الفصول من الخامس إلى الحادي عشر البحث في مظاهر الحضارة العربيّة الإسلاميّة، حيث تناول الفصلين الخامس والسّادس المظهرين السياسي والإداري للحضارة الإسلاميّة، واشتمل على دراسة نظام الخلافة الإسلاميّة وولاية العهد والشورى في الإسلام الذي يعتبر بحقّ أفضل نظام إنساني عالمي يحقّق العدالة والمساواة بين أفراد المجتمع، كما اشتمل على بحث نظم الوزارة والحجابة والكتابة

عند المسلمين، وتطوّر الأنظمة الإدارية والدواوين، بالإضافة إلى أعمال البريد والقضاء والحسبة.

وعالج الفصل السّابع المظهر العسكري، حيث تمّ بحث نظام التجنيد، والفرق العسكريّة وفنون القتال والرّتب، مع تعريف بأنواع الأسلحة العسكرية قتالية ودفاعيّة، واستعراض نشوء الأسطول الإسلامي وتطوّره حتى تسيّد البحار الكبرى في العصور الوسطى، وختم بالحديث عن الشرطة في العصر الإسلامي.

وتضمّن الفصل الثامن البحث في المظهر الاجتماعي وبيان دور المرأة ومكانتها في الإسلام، ونظام الرقّ الذي دعى الإسلام إلى إلغائه وتحرير العبيد تحقيقاً لمبدأ المساواة بين أفراد المجتمعات، كما تضمّن البحث في نظام الأُسرة من زواج وطلاق وميراث وغير ذلك.

وجاء الفصل التاسع لدراسة المظهر الاقتصادي في الدولة الإسلاميّة، وتضمّن البحث في موارد الدولة الإسلاميّة ونفقاتها، ودراسة النشاط الاقتصادي من زراعة وصناعة وتجارة، وتعريف بالطّرق التجارية التي سلكها المسلمون ووسائل التعامل التجاري التي اتّبعوها، وأنواع النقود والأوزان والمكاييل التي استخدمها المسلمون في معاملاتهم التجاريّة.

بينما عالج الفصل العاشر المظهر الثقافي للحضارة العربية الإسلاميّة، وتضمّن البحث في علوم الدين واللغة والأدب والعلوم الاجتماعيّة، بالإضافة إلى الرياضيّات والطب وعلوم الفلك والفلسفة والطبيعة.

وتمّ تخصيص الفصل الحادي عشر للبحث في المظهر العمراني ودراسة الفنون الإسلاميّة، وتضمّن ذلك بناء المدن الإسلاميّة والعوامل التي ساهمت في نشوئها، وازدياد الاهتمام بالعمران الديني والمدني، كبناء المساجد والقصور والحمّامات والأضرحة، ودراسة نماذج من فن وهندسة العمارة الإسلاميّة التي ملأت البلاد الإسلاميّة في الشرق والغرب لإظهار أهميّة الإنجاز العربي الإسلامي وقدرة اليد الإسلاميّة والعقل المسلم على الإبداع والإنتاج.

وخُتمت الدراسة بالفصل الثاني عشر الذي تضمّن البحث في اتصال الحضارة العربيّة الإسلاميّة بالحضارات الأخرى، ومدى تأثيرها وتأثّرها بهذه الحضارات، ووسائل انتقال الحضارة الإسلاميّة إلى أوروبا والغرب.

أسأل الله تعالى أن يكون هذا عملاً نافعاً مفيداً، والله الموفّق.

د. محمد حسين محاسنة

عمّان في ٢٢/ ١/ ٢٠٠٤م

الفصل الأول

مفاهيم حضارية

- الحضارة.
- الإسلام.

الحضارة

الحضارة في اللغة من حضر، والحضور ضدّ المغيب والغيبة، يقال: حضر يحضر حضوراً وحضارة، وكلمته بحضرة فلان وبمحضر منه أي بمشهدٍ منه[(١)].

والحضر خلاف البدو، والحاضر خلاف البادي، فالحاضر هو المقيم في المدن والقرى، والبادي المقيم بالبادية، والحضارة الاستقرار في مساكن دائمة، قال القطامي:

فمن تكن الحضارة أعجبتــه   فــأي رجــال بــاديــة تــرانــــا

والحضر والحضرة والحاضرة هي المدن والقرى والرّيف، وسمّيت كذلك لأنّ أهلها حضروا الأمصار ومساكن الدّيار التي يكون لهم بها قرار، والحضارة والحاضرة: الحيّ العظيم أو القوم، وحيّ حاضر إذا كانوا نازلين على ماءً عِدّ، ويقال للمقيم على الماء حاضر، وهو ضدّ المسافر، وفلان حاضر بموضع كذا أي مقيم به[(٢)].

والحضارة اصطلاحاً هي كل ما يرتبط بحياة الاستقرار عند الإنسان من نظم سياسيّة واقتصاديّة واجتماعيّة وفكريّة وفنيّة.

فنظام الحكم وقدرة الإنسان على توفير وسائل لحمايته وتوفير أمنه واستقراره، وتقديم الخدمات اللازمة لعيشه، وما يمارسه من نشاط اقتصادي بتوفير وسائل زراعيّة أفضل ونظم ريّ مناسبة، وتحسين في أساليب الإنتاج الزراعي والعمل في الصناعة وإنتاج الملابس وبناء البيوت لتكون مأوى له، ومعرفة الإنسان للعلوم والآداب، وتسجيله للأحداث، وأسلوب تعامله مع الآخرين، ووجود نظام أخلاقي وديني يحكم حياة النّاس، كل ذلك من مظاهر الحضارة.

---

(١) ابن منظور: لسان العرب، دار صادر، بيروت، جـ ٤، ص١٩٦ . مادة: حضر.

(٢) ن.م، جـ ٤، ص١٩٧-١٩٨.

واعتبر ابن خلدون الحضارة غاية العمران، والبداوة أصل العمران وسابقة للحضارة[1].

وتحدّث كثير من العلماء عن الحضارة، فابن خلدون عرّفها: بأنّها أحوال عاديّة زائدة على الضروري من أحوال العمران زيادة تتفاوت بتفاوت الرفه وتفاوت الأُمم في القلّة والكثرة تفاوتاً غير منحصر[2].

وقال أبو الأعلى المودودي: (إنّما هي نظام متكامل يشمل كل ما للإنسان من أفكار وآراء وأعمال وأخلاق في حياتهم الفرديّة أو العائليّة أو الاجتماعيّة أو الاقتصاديّة أو السياسيّة)[3].

أمّا ديورانت فيقول بأنّها نظام اجتماعي يعين الإنسان على الزيادة من إنتاجه الثقافي[4]، بينما يرى توينبي أنّها حصيلة عمل الإنسان في الحقل الاجتماعي والمناقبي، وهي حركة صاعدة وليس وقائع ثابتة وجامدة، وهي رحلة حياتيّة مستمرّة[5].

ويرى بعض الدّارسين أنّ لفظ الحضارة يقابل Civilization التي تعود إلى الجذر اللاتيني Civites وتعني مدينة أو Civis وتعني ساكن المدينة[6]، وتتألّف الحضارة من أربعة مظاهر هي الموارد الاقتصادية، النظم السياسيّة، التقاليد الخلقيّة، ومتابعة العلوم والفنون.

---

(١) ابن خلدون: المقدّمة، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ص١٢٢.

(٢) ن.م، ص١٢٠-١٢١.

(٣) أبو الأعلى المودودي: الحضارة الإسلاميّة، أسسها ومبادئها، مجلة الإسلام والحضارة، المجلد١، الرياض، ١٩٧٩، ص٢٨٨.

(٤) ول ديورانت: قصّة الحضارة، زكي نجيب محمود، لجنة التأليف والترجمة، القاهرة، ١٩٥٦م، جـ١، ص٣ المقدّمة..

(٥) توينبي: الحقيقة الحضارية، ص١٢، ٢٨.

(٦) انظر جورج حداد: المدخل إلى تاريخ الحضارة، مطبعة الجامعة السورية، ١٩٨٤م، ص١٧ نصر محمد عارف: الحضارة، الثقافة والمدنيّة، المعهد العالمي للفكر، ١٩٩٤م، ص٣٣.

وتبدأ الحضارة حيث ينتهي الاضّطراب والقلق، لأنّه إذا أمِنَ الإنسان من الخوف تحرّرت في نفسه دوافع التطلّع وعوامل الإبداع والإنشاء[1].

وفي كتاب الحضارة لحسين مؤنس أنّ الحضارة ثمرة كل جهد يقوم به الإنسان لتحسين ظروف حياته، سواء أكان المجهود المبذول للوصول إلى تلك الثمرة مقصوداً أم غير مقصود، وسواء أكانت الثمرة ماديّة أم معنويّة[2]. أمّا البوطي فاعتبر الحضارة ثمرة التفاعل بين الإنسان والكون والحياة[3].

وتبدأ الحضارة عندما يبدأ الاستقرار البشريّ، وبدأ استقرار الإنسان عندما بدأ بالزراعة، لأنّ الزراعة تطلّبت منه الإقامة إلى موسم الحصاد وجني المحصول، حيث بدأ الإنسان يتحوّل من حياة التحرّك الدائم والتنقّل والتوحّش إلى حياة الإستئناس والاستقرار، ثمّ تبع ذلك التعاون والتآزر بين المقيمين وتبادل الأفكار والمعلومات في مختلف شؤون الحياة، ولم تقف الحضارة عند العمل بالزراعة وإنّما امتدّت لتشمل كل ما يستطيع العقل البشري الوصول إليه من تطوّر، وقدرته على السيطرة على مظاهر الطبيعة واستثمارها لمنفعته.

ولا تخلو جماعة إنسانيّة من وجود الحضارة، فلكل أمّة حضارة، إلاّ أنّ مستوى الحضارة يختلف من أمّة لأخرى ومن جماعة لأخرى، فمن يستطيع تطوير قيمه وأفكاره وقدرته على الإنتاج والإبداع تكون حضارته متطوّرة راقية، ومن لا يستطيع ذلك تكون حضارته جامدة بسيطة.

والحضارة هي الحياة الراقية التي ظنّ سكان المدن أنّها لا تكون إلاّ في المدينة، حيث تجتمع الثروات والكفاءات التي تنتجها مناطق الريف، وفيها توجد الصناعات وتظهر الاختراعات والإبداعات وما يتبعها من ترف ورخاء، ويحصل التبادل في المنتوجات والأفكار، وفيها يترك بعضهم الإنتاج الماديّ ويتحوّل إلى الاهتمام

(١) ديورانت: قصّة الحضارة، جـ١، ص٣ نصر محمد عارف: الحضارة، ص٣٩.
(٢) حسين مؤنس: الحضارة، عالم المعرفة، الكويت، ١٩٧٨م، ص١٣.
(٣) محمد سعيد البوطي: منهج الحضارة الإنسانية في القرآن، دار الفكر، دمشق، ١٩٨٧م، ص١٩.

بالإنتاج الروحي أو العقلي من علم وفلسفة وأدب وفن. فالحضارة تبدأ في القرى حيث تتوفّر شروطها إلاّ أنّها تزدهر في المدن[1].

وللحضارة ثلاثة عناصر أساسيّة هي الإنسان والحياة والكون[2]، فالإنسان هو العنصر الأول ومركز الثقل فيه هو العقل والتفكير والوجدان، والحياة هي البعد الزمني ويعبّر عنه أحياناً بالحياة وأحياناً بالعمر، أمّا الكون فيقصد به المكوّنات المتنوّعة المختلفة الخاضعة لتسخير الإنسان.

رأي ابن خلدون في الحضارة:

أطلق ابن خلدون على الحضارة اسم (دورة العمران)، وكما سبق فهو يعتبر البداوة أصل العمران، والحضارة غاية العمران، فالبداوة هي المرحلة الأولى من حياة كل جماعة إنسانيّة، والبدو برأيه أقرب إلى الخير من أهل الحضر[3]، والتطوّر الاجتماعي الحضاري عند ابن خلدون يبدأ عند أهل البداوة ويتطوّر هؤلاء حتّى يصيروا حضراً، والبداوة تشمل أهل البادية (الرعاة) والفلاحين وهم أهل الزراعة، ويرى أنَ الحضارة في تطوّرها تمرّ بأدوار قد تكون ثلاثة أدوار أو أربعة أو ستّة، لكن الحضارة مهما بلغت من التطوّر والرقيّ فإنّها تعود إلى التلاشي والهبوط، ويسمّى أدوار الحضارة أدوار شرف. فالتاريخ والحضارة عنده دورة متّصلة وصراع دائم على المُلك والرئاسة، وأنّها إذا خرجت من شعب انتقلت إلى شعب آخر من أهل العصبيّة.

شروط الحضارة:

١- **الشروط الجغرافيّة**: إذ إنّ الأحوال الإقليميّة كالبرد القارص والحرّ الشديد لها تأثير على الحضارة، فهي إمّا أن تبعث النشاط الفكري والفني والعلمي إن كانت

---

(١) جورج حدّاد: المدخل إلى تاريخ الحضارة، ص١٧.

(٢) انظر. محمد سعيد البوطي: منهج الحضارة الإنسانيّة في القرآن، ص٢٠.

(٣) انظر. ابن خلدون: المقدمة، ص١٢٣ وما بعدها حسين مؤنس: الحضارة، ص١٥٢-١٥٣.

مناسبة، أو تؤدّي إلى الخمول والجمود وتضعف الإنتاج إن لم تكن مناسبة. والموقع الجغرافي له دوره أيضاً، فالبتراء وتدمر وبعض مدن إيطاليا كان تطوّر حضارتها أو تدهورها عائد لموقعها على طريق التجارة العالمية أو فقدانها لهذا العامل[١].

٢- **الشروط الاقتصاديّة**: فالأمّة التي تبقى في دور التنقّل يصعب عليها الوصول إلى درجة راقية من الحضارة، لأنّ البدوي المتنقّل يشغل وقته وجهده في مغامرات الصّيد والغزو، ولا يجد الوقت الكافي للإنتاج، وحتى يتفرّغ لذلك لا بُدّ أن يتمكّن من تأمين الغذاء المنتظم كي يجد الوقت للبحث عن العلم والأدب والفن والترف والرخاء.

ولما كانت الزراعة أول مظاهر الحضارة، فإنّ الإنسان يبدأ بحرث الأرض وزراعتها ليؤمّن مستقبله، ثمّ يجد الوقت بعد ذلك لكي يتمدّن ويبني بيته ومعبده ومدرسته، ويخترع الأدوات اللازمة للإنتاج[٢]، والتوجّه بعد ذلك لأمور الصناعة والتجارة.

٣- **الشروط السياسيّة**: وهو أمر ضروريّ، فالجماعة التي تريد الوصول إلى درجة من الحضارة والرقيّ، يجب أن يتوفّر لها نظام سياسي يحميها، لكي تعمل بأمان واطمئنان.

٤- **النظام الاجتماعيّ والدينيّ**: فلا بُدّ من نظم أخلاقيّة توحّد النّاس بإعطائها قواعد النظام والتوجيه في السّلوك، ووجود اعتقاد أو إيمان يرفع الخلق ويعطي الحياة أهميّة خاصة.

٥- **النظام الفكري والتعليمي**: ويتضمّن وجود لغة كوسيلة للتبادل الفكري، وتربية أو وسيلة لنقل حضارتها وتراثها لإيصاله من الآباء إلى الأبناء.

---

(١) جورج حداد: المدخل إلى تاريخ الحضارة، ص١٨-١٩.
(٢) ن.م، ص١٩.

ولا تنحصر الحضارة بقومٍ أو بجماعةٍ دون أخرى، فيمكن أن تظهر في مجتمع أو في أي جماعة مهما اختلفت ألوانها وأشكالها وفقرها أو غناها، إذا توافرت لها الشروط المناسبة، أي أنّه توجد لها شروط عرقيّة بحيث تكون مقصورة على أمّة دون أخرى أو على جنس دون غيره من الأجناس البشرية.

الإسلام

الإسلام لغة من السّلمُ وهو الاستسلام، والتسالم التصالح، والمسالمة المصالحة، والسلم: الانقياد، واستسلم: انقاد[1]، والإسلام: هو الصّلح والأمان، أو الطّاعة والإذعان، وهو الخلوص والتعرّي من الآفات الظاهرة أو الباطنة. والسلم: الإسلام، قال امرؤ القيس بن عابس[2]:

فلست مبدّلاً بالله ربّا ... ولا مستبدلاً بالسّلم دينا

والإسلام شرعاً: توحيد الله سبحانه وتعالى بالانقياد والخضوع له، وإخلاص الضمير والإيمان بالأصول الدينيّة التي جاءت من عنده، وهو دين الأنبياء والمرسلين من لدن آدم عليه السلام حتى رسالة محمد ﷺ التي ختم بها الرسالات السماويّة، وهو دين التوحيد الذي انفرد بتنسيقه بين شؤون المادة وشؤون الروح، فوازن بين مستلزمات الحياة الدنيا ومتطلّبات الحياة الآخرة[3].

واشتمل الإسلام على قواعد للسلوك والأخلاق في الحياة الفرديّة بين النّاس وحضّ على الالتزام بها، وبيّن الطرق التي تهذّب نفس المسلم، وحدّد وظيفة الأُسرة وأفرادها وعلاقاتهم، وحدّد طرق الكسب والإنفاق ومفهوم الملكيّة والعلاقة بين الحاكم والمحكوم، وحقوق المواطنين في دولة الإسلام، وقواعد السّلم والحرب.

---

(١) ابن منظور: لسان العرب، دار صادر، بيروت، جـ١٢، ص٢٩٣. مادة: سلم.

(٢) جديد

(٣) صبحي الصالح: النظم الإسلاميّة، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٠م، ص٥٧.

وجعل الله سبحانه وتعالى الإسلام في مقابلة الكفر والشّرك، قال تعالى: ﴿ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾[1] وقال أيضاً: ﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾[2].

والإسلام دعوة لنقل النّاس من حياة البؤس والشّقاء التي عاشتها البشرية وسيطرت فيها مظاهر الطبيعة وقوى الشّر على عقول النّاس، إلى حياة الأمن والاستقرار والسعادة، وذلك بتحرير الإنسان من كافة العبوديات السياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة، وجعل عبوديته لله وحده، والمساواة بين جميع النّاس بإسقاط الفوارق الطبقيّة بين بني البشر، واعتبار التقوى أساس المفاضلة بينهم، قال تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾[3].

لقد بعث الله محمداً ﷺ فدعا النّاس إلى التوحيد وحارب الأصنام، ولمّا انتهى من فتح مكّة أمر أصحابه بكسر الأصنام، وكان في الكعبة (٣٦٠) صنماً مخصّصة لأحياء العرب، فمرّ ﷺ ومعه قضيب فجعل يهوي به إلى كل صنم منها فيخرّ على وجهه، وهو عليه السلام يقول: (جاء الحقّ وزهق الباطل إنّ الباطل كان زهوقا)، وأنشد في ذلك تميم بن أسد الخزاعي[4]:

وفي الأصنام معتبر وعلـم   لمن يرجو الثواب أو العقابا

وأخرجت جميع الأصنام من المسجد وأحرقت ومحيت كل صورة بالكعبة، ونادى رسول الله ﷺ بمكّة: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدع صنماً إلاّ

---

(١) سورة آل عمران: الآية ٨٠.

(٢) سورة الأنعام: الآية ١٤.

(٣) سورة آل عمران: الآية ٦٤.

(٤) ابن هشام: السيرة النبوية، تحقيق طه عبد الرؤوف سعد، دار الجيل، بيروت، جـ٥، ص٨٠ محمد رضا: الإسلام والمدينة، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٦م، ص٢٦.

كسره، فكسروا الأصنام التي كانت في بيوتهم.

ثمّ بعث عليه الصلاة والسّلام السرايا لكسر الأصنام التي كانت حول الكعبة، لأنّ بعض النّاس اتّخذوا لهم أصناماً جعلوا لها بيوتاً يعظّمونها ويطوفون بها كما يطوفون بالكعبة، وكان لكل حيّ من أحياء العرب صنم فمنها العزّى ومناة وسواع وبوانة وذو الكفين وغيرها.

وجاء الإسلام لتقويض الأنظمة الاجتماعيّة الجائرة وإقامة نظام اجتماعي عادل يشمل أحكام الإسلام في التشريع المالي والسياسي والاقتصادي والاجتماعي، وتهذيب أخلاق الإنسان والرقيّ به عن الأهداف الماديّة ذات الإطار الضيّق.

وتمكّن الإسلام الذي حمل رسالته المصطفى ﷺ أن يوجد للأمّة العربية كياناً جديداً موحّداً تسوده المحبة والإخاء بعد أن كانوا جماعات متفرّقة ومتنازعة، وانتشر بينهم العدل بدلاً من الظلم والجور، وحفظ لهم لغتهم العربية، فقد نزل القرآن بلغة العرب، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾[1].

وجعل الإسلام للعقل الإنساني محلاً لائقاً به، فقد أعطاه حرية التفكير والتعبير، ودعا الإنسان إلى الإقبال على الدراسة والعلم لقوله تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ﴿٥﴾﴾[2].

ودعوة الإسلام دعوة عالمية سامية قائمة على أساس الاعتبارات الروحيّة المتمثّلة بوحدة العقيدة والفكر، وهي تتجاوز الجنس واللون وكل الاعتبارات الماديّة، فالمسلمون نشروا دين الإسلام في الجزيرة العربية، ثمّ نقلوه إلى بقاع الأرض وتمكّنوا بدعوتهم أن يسطوا سلطان دولة الإسلام في كل البلاد، فأزالوا دولتيّ الفرس والرّوم وقضوا على جبروتهما، فساد الإسلام والسّلام في ربوع الكون.

---

(١) سورة يوسف: الآية ٢.

(٢) سورة العلق: الآيات ١-٥.

الفصل الثاني

لمحة عن حضارة العرب قبل الإسلام

- مراكز الحضارة في جنوب الجزيرة العربية.
- حواضر الحجاز.
- الحضارة العربية في بلاد الشّام والعراق.

مراكز الحضارة في جنوب الجزيرة العربيّة

نشأت أقدم الحضارات العربيّة في الجزيرة العربية في منطقة اليمن، فخصوبة الأرض وكثرة المياه وتوفّر وسائل العيش جعلها صالحة لإقامة الإنسان، كما أنّ موقعها الإستراتيجي حيث تطلّ على البحر الأحمر والمحيط الهندي، وتوسّطها طرق التجارة العالمية القادمة من الهند والصين إلى الحجاز وسواحل البحر المتوسط منحها أهمية كبيرة، فظهرت فيها مجموعة من الدول العربية منها معين وسبأ وحمير، ومنهم الملوك التبابعة.

وكان التبّع بمنزلة الإمبراطور أي ملك الملوك لسيادته على عدّة ملوك مستقلّين استقلالاً داخلياً، ويسمون الأذواء أو الأقيال، وهم الملوك المتوّجون الذين يتبعون ملوكاً آخرين، وكان هناك قسم آخر من الحكّام هم رؤساء العشائر، فقد كان لهم ما للملوك من الحكم والمزايا، لكن لم تكن لهم تيجان[١].

الدولة المعينيّة: ١٢٠٠-٦٣٠ ق.م.

وهي من أقدم الدول العربية التي قامت في اليمن، كانت عاصمتها مدينة معين، وذكر سترابون أنّ عاصمتها مدينة قرنو.

ظهرت الدولة المعينية في الجوف وهي المنطقة السهلية الواقعة ما بين نجران وحضرموت، اشتغل سكّانها بالتجارة، وسيطروا على الطرق التجارية بين الشمال والجنوب، فكان الطريق البري الموصل بين اليمن والشّام ومصر يدخل تحت سيطرتهم أحياناً، وأحياناً أخرى يدخل تحت سيطرة السبأيين، وهي الدولة العربية الثانية التي نشأت في اليمن، وكانت لهم علاقات تجارية مع اليونان ومصر والعراق، فقد عثر على كتابات ونقوش معينية في عدّة مناطق في هذه البلدان خاصة في أور

---

(١) حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام السياسي، جـ١، ص٢١-٢٢.

والوركاء في العراق[1].

امتدّ نفوذ المعينيين السياسي باتجاه الشمال حتى وصل معان والعلا (ديدن)، وأدّى توسّعهم في الشمال إلى احتكاكهم بآشور وفينيقية ومصر، وبسبب هذا التوسّع واشتغالهم بالتجارة، فقد عرفوا الكتابة وتدوين الحسابات التجارية، واقتبسوا الأبجدية الفينيقية ودوّنوا بها لغتهم، فكانت اللغة العربية القديمة.

نظام الحكم في دولة معين كان ملكيّاً وراثياً مقيّداً بمجلس استشاري من شيوخ القبائل، وعرفت بلادهم قسمين من الحكام:

أ- الملوك المتوّجون، وكانوا يسمون الأقيال، وكانوا تابعين لملوك آخرين.

ب- رؤساء العشائر، وكان لهم ما للملوك من المزايا، لكنهم لم يكونوا أصحاب تيجان، وقد يكونون مستقلّين أو تابعين لملك متوّج.

وكان للمدن المعينية مجالس تدير شؤونها في السّلم والحرب تُعرف باسم مسود، وتعتمد الحياة الاقتصادية على العمل بالزراعة والتجارة، وعرفوا ثلاثة أنواع من الضرائب، هي[2]:

١- ضرائب تعود جبايتها لخزينة الملك.

٢- ضرائب المعابد وهي على نوعين:

أ- أكرب وهي التي تقدمها القبائل تقرّباً للآلهة.

ب- العُشر وهي التي تفرض على الأفراد.

٣- ضرائب للمشايخ والحكّام.

---

(١) السيد عبد العزيز سالم: تاريخ العرب، ص١٢٠-١٢٣.

(٢) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب، جـ١، ص٤٠٦ السيد عبد العزيز سالم: تاريخ العرب، ص١٢٤.

دولة سبأ: ٨٠٠-١١٥ ق.م.

ورد ذكر سبأ في القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإِۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾[١]، وفي قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴾[٢].

وورد ذكرها أيضاً في النقوش الآشوريّة التي تعود إلى عهد الملك تفلات بيلاصر الثالث وسرجون الثاني وسنحاريب، وفي التوراة ذكرت باسم (شبا)، وهي البلاد التي تنتج اللبان والطيوب والأحجار الكريمة والذهب[٣].

وسمّي السبأيّون نسبة إلى سبأ من ولد يشجب بن يعرب بن قحطان الذي سمي كذلك لأنّه كان يسبي الذراري والأطفال[٤]، وهم شعب بدوي كان يتنقّل بين شمال شبه الجزيرة العربية وجنوبها، ثمّ استقرّوا في اليمن بحدود سنة ٨٠٠ ق.م نتيجة ضغط الآشوريين عليهم من الشمال.

استغلّ السبأيّون ضعف دولة معين، وتمكّنوا من القضاء عليها، وأقاموا دولتهم مكانها، وورثوا لغتها وديانتها وتقاليدها الاقتصادية، فعملوا بالتجارة حتّى صاروا وسطاء للتجارة بين الحبشة والهند وبلاد الشام ومصر.

اتّخذ السبأيون مدينة صرواح عاصمة لهم، ثمّ نقلوها إلى مأرب، وكان مؤسّس دولتهم (سمه علي)، الذي قَدِمَ بقومه من شمال شبه الجزيرة العربية، وامتدّ نفوذهم من اليمن إلى نجد والحجاز شمالاً، وسيطروا على طريق التجارة العالمية من جنوب الجزيرة إلى سورية ومصر وكانوا يرسلون حكّاماً للإقامة في الواحات الشمالية لحماية

---

(١) سورة النمل: الآيات ٢٢-٢٣.

(٢) سورة سبأ: الآية ١٥.

(٣) التوارة: سفر الملوك الأول، الإصحاح ١٠، ص٥٥١ سفر ارميا: الإصحاح ٦، ص١٠٨٣، وسفر حزقيال: الإصحاح ٣٧، ص١٢١٩.

(٤) المسعودي: مروج الذهب، جـ٢، ص٧٨ السيد عبد العزيز سالم: تاريخ العرب، ص١٣٤.

هذا الطريق ومعهم حاميات عسكرية لتساعدهم في ذلك، وكانت واحة العلا (ديدن) مركزاً لهم في الشمال.

ويقسم عهد دولة سبأ إلى مرحلتين هما:

١- مرحلة المكارب: وهي الفترة الممتدة من سنة ٨٠٠-٦٥٠ق.م، وكان حكّام سبأ يلقّبون بلقب (مكرّب)، أي الملك المقدّس صاحب السلطتين الدينية والمدنيّة.

٢- مرحلة ملوك سبأ: وتمتدّ من سنة ٦٥٠-١١٥ق.م، وأصبح الحكّام يلقّبون فيها بلقب الملوك.

كان أول مكارب سبأ هو (سمه علي) مؤسس الدولة الذي كان يقدّم البخور باسمه للإله (المقّه)، ثمّ خلفه ابنه (يدع ايل دريح) الذي أسّس معبدين للإله المقه أحدهم في صرواح والآخر في مأرب.

اهتمّ مكارب سبأ بالإصلاحات الزراعية، فوزّعوا الأراضي على الفلاحين، وقاموا ببناء السّدود لتوفير المياه اللازمة للزراعة، فينسب إلى (سمه علي ينف بن ذمّر علي) تنفيذ أعظم مشروع للريّ عرفته بلاد العرب القديمة، وهو بناء سد رحب (سد مأرب)[١]، لحجز مياه الأمطار والسيول للإفادة منها في ريّ الأراضي الزراعيّة، فتحوّلت مأرب إلى جنّة من المزارع، وهي البلدة الطيبة التي ورد ذكرها في القرآن الكريم ولها جنّتاه عن يمين وشمال[٢].

وتعتبر بلقيس من أشهر ملوك سبأ، وهي (بلقمة بنت الهدهاد (أنيشرح) ابن الحارث بن قيس، فعندما وصلت أخبارها إلى سليمان عليه السلام دعاها هي وقومها للدخول في الإسلام، وقصّتها مشهورة ورد ذكرها في القرآن الكريم وفي كتب التاريخ[٣].

---

(١) في معجم البلدان أنّ الذين بناه هو سبأ بن يشجب بن يعرب (انظر ياقوت الحموي: معجم البلدان، جـ٥، ص٣٤)..

(٢) انظر جواد علي: المفصّل في تاريخ العرب، جـ٢، ص١٣٠ السيد عبد العزيز سالم: تاريخ العرب، ص١٣٧.

(٣) انظر ابن الأثير: الكامل في التاريخ، جـ١، ص١٣٢-١٣٣.

الدولة الحميرية: ١١٥ق.م - ٥٢٥م.

استوطن الحميريون اليمن في المناطق الواقعة على ساحل البحر الأحمر، وتمكّنوا من تأسيس دولة حكمت اليمن، واتّخذت مدينة ظفار عاصمة لها[١]، وحمير وكهلان من العرب القحطانيين، وكانوا يتنازعون الرئاسة ويتنافسون على المُلك، فقد قسّموا بلادهم مخاليف لكل منها رئيس يكبر ويصغر على ضوء قوة مخلافه.

كان مؤسّس دولة حمير هو (آل شرح يخصب) الذي يُنسب إليه بناء قصر غمدان[٢]، وهو من أشهر قصور اليمن، وحلّت الدولة الحميرية أول الأمر محل دولة قتبان التي ظهرت قبلها، ثمّ ضمّت إليها سبأت وريدان، وأخذت لغة السبأيين والمعينيين، ويقسم عصر الدولة الحميرية إلى قسمين هما:

١- الدولة الحميرية الأولى: ١١٥ق.م - ٣٠٠م، وكان ملوكها يُعرفون بملوك سبأ وذي ريدان.

٢- الدولة الحميرية الثانية: ٣٠٠-٥٢٥م، وعرف ملوكها باسم ملوك سبأ وريدان وحضرموت، وعرف ملوك هذه الدولة باسم التبابعة (مفردها تبّع).

وبسبب ما تمتّعت به اليمن من أهميّة استراتيجية وتجارية، فقد تعرّضت في عهد الدولة الحميرية سنة ٢٤ق.م لحملة رومانيّة قادها يوليوس جاليوس حاكم مصر للاستيلاء عليها والسيطرة على طرق التجارة واستغلال ثروات اليمن[٣]، وحاول الاستعانة بالأنباط، إلاّ أنّ هذه الحملة تعرّضت للفشل الذريع بعد أن فقدت معظم رجالها من الجوع والمرض.

---

(١) ياقوت الحموي: معجم البلدان، جـ٤، ص٦٠، وكانت ظفار تسمّى ريدان، ثمّ عرفت فيما بعد باسم ظفار.

(٢) ياقوت الحموي: معجم البلدان، جـ٤، ص٢١٠ السيد عبد العزيز سالم: تاريخ العرب، ص١٤٠.

(٣) فيليب حتي: تاريخ العرب، ص٥٦ جواد علي: المفصّل في تاريخ العرب، جـ٢، ص٣٨٤ السيد عبدالعزيز سالم: تاريخ العرب، ص١٤٠-١٤١.

ويعتبر مالك بن يعفر (ناشر النعم) من أشهر ملوك حمير فتنسب إليه فتوحات واسعة منها غزو الحبشة وبلاد المغرب، أمّا ابنه شمّر يرعش بن ناشر النعم وهو مؤسّس الدولة الحميرية الثانية فهو المعروف (بتبّع الأكبر)، وهو الذي ورد ذكره في القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾[١] ، وقام بفتوحات واسعة، فقد وصل نفوذه إلى الصين، فوصل إلى أرمينية وهزم الترك، ودخل مدينة الصغد وهدمها فسمّيت شمركند، أي خراب عند الفرس، ثمّ عرّبت إلى سمرقند، كما بسط نفوذه على الهند وأرض الصين، وأخضع بلاد فارس، وخراسان والشّام ومصر[٢].

وتعرّضت اليمن في العهد الحميري لغزو الأحباش مرّتين، الأولى سنة ٣٤٠م، وكان ردّ فعل للغزو الذي قام به ملوك حمير للسواحل الشرقية من الحبشة[٣]، وانتهى سنة ٣٧٠م.

ويعتبر (ذو نواس ٥١٠-٥٢٥م) آخر ملوك الدولة الحميرية، وكان يعتنق الديانة اليهوديّة، وكان يتخوّف من ازدياد النفوذ السياسي للأحباش في اليمن بعد تحوّل ملك أكسوم إلى الديانة المسيحية، وكانت المسيحية قد انتشرت في اليمن على نطاق واسع، لذلك فكّر بتحويل نصارى نجران عن دينهم بالقوّة، وكانت نجران أكبر مركز للمسيحية في اليمن، وقام ذو نواس بتخيير نصارى نجران بين نبذ المسيحية أو القتل حرقاً، فرفضوا التخلّي عن ديانتهم لهذا كان يحفر لهم الأخاديد ويحرقهم فيها[٤] ،

---

(١) سورة الدخان: الآية ٣٧.

(٢) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام، جـ١، ص٢٩ السيد عبد العزيز سالم: تاريخ العرب، ص١٤٤-١٤٥.

(٣) بدأ عبور جماعات من عرب اليمن إلى الحبشة منذ القرن الرابع قبل الميلاد وأسّسوا مستعمرة تجارية على شاطئ أرتيريا، ثمّ مدّوا نفوذهم إلى (أثيوبيا)، وفي القرن الأول الميلادي ونجحوا في تأسيس مملكة أكسوم التي أصبحت المركز الرئيسي لتجارة العاج، وكانت أكسوم عاصمة مملكة الحبشة (انظر السيد عبد العزيز سالم: تاريخ العرب، ص١٤٦-١٤٧).

(٤) المسعودي: مروج الذهب، جـ٢، ص٨٢-٨٣، ابن الأثير: الكامل في التاريخ، جـ١، ص٢٥٢-٢٥٣.
=

وهم الذين ورد ذكرهم في القرآن الكريم: ﴿ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝٤ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ۝٥ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝٧ ﴾[1].

ولمّا عَلِمَ نجاشي الحبشة بذلك أرسل حملة عسكرية وبتفويض من جيستنيان الروماني إلى الحبشة بقيادة أرياط، فقتل ذو نواس وأخضع اليمن لحكم الأحباش.

وكان أبرهة الأشرم أحد ملوك الحبشة في اليمن خلف أرياط وفكر ببناء هيكل في صنعاء لصرف الحجاج عن الكعبة إليه، ولتحقيق ذلك قام بغزو مكّة، لكن الله ردّ كيده وأرسل عليه وعلى جيشه طيراً أبابيل فتشتّت مع جيشه في البراري[2].

وكان أهل مكّة يوم دخوله إلى مكّة يريد هدم الكعبة خرجوا إلى رؤوس الجبال وبطون الأودية، وعبد المطلب بن هاشم واقف بباب الكعبة يدعو قائلاً:

يا ربّ لا أرجو لهم سواكا	يا ربّ فامنع منهم حِماكا
إنّ عدوّ البيت من عاداكا	فامنعهم أن يخربوا قراكا

وخَلفَ أبرهه ولداه (يكسوم) ثمّ (مسروق)، وقد أساءا إلى أهل اليمن حتى لاقوا من معاملتهم الذلّ والهوان، فلجأ (سيف بن ذي يزن) إلى قيصر الروم لينجده ضدّ الأحباش فلم يجبه إلى ذلك، ثمّ توجّه إلى كسرى وكان أبوه ذي يزن قدم إليه يطلب مساعدته، فمات عنده قبل أن ينصره، فوافق كسرى أن يمدّه بجنود ممّن كانوا من ذوي القوة والبأس، وجمعهم سيف بن ذي يزن إلى من اجتمع إليه من الأعراب في اليمن وتمكّنوا من إلحاق الهزيمة بالأحباش وملك سيف بن ذي يزن[3].

وقويت شوكة ابن ذي يزن وعدا على الحبشة يقتل من أهلها حتّى أذلّهم انتقاماً لأهله وبني قومه، إلاّ أنّه تعرّض لاغتيال أحد الأحباش، وعادوا للإفساد في اليمن،

---

(١) سورة البروج: الآيات ٤-٧.

(٢) انظر الطبري: الرسل والملوك، جـ٢، ص١٣٠-١٤٠ المسعودي: مروج الذهب، جـ٢، ص٨٤-٨٥.

(٣) الطبري: الرسل والملوك، جـ٢، ص١٤٣-١٤٨ حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام، ج١، ص٣٠-٣١.

فلما عَلِمَ كسرى بذلك أرسل إليهم حملة بقيادة وهرز الذي سبق له مرافقة سيف بن ذي يزن، فدخل اليمن ولم يترك بها حبشياً إلاّ قتله وجعلها تحت حكم الفرس وأمّره كسرى عليها، ثمّ خَلَفَهُ ابنه المرزبان، وكان آخر حكّام الفرس باذن[1]، فحكمها حتى بعث الله رسول الله محمداً ﷺ، وأسلم هو وقومه بعد أن راسله المصطفى عليه الصّلاة والسّلام.

دولة قتبان:

سكن القتبانيون في الطرف الجنوبي الغربي من بلاد اليمن إلى الجنوب من بلاد السبئيين على تخوم حضرموت، وكانت مدينة تمنع عاصمة لهم، وعاصرت دولة قتبان كلاً من الدولتين المعينية والسبأية، ومن ملوكهم (شهر يجيل) و(شهر هلال)، وفي سنة ٥٠ ق.م تعرّضت عاصمتهم تمنع لغزو أجنبي وتمّ تخريبها. فكان ذلك من الأسباب التي عجّلت بسقوطها[2].

اشتغل القتبانيون بالتّجارة، وجنوا من جرّاء ذلك أرباحاً هائلة، ويبدو أنّه كانت لديهم معرفة في صناعة الأدوات المعدنيّة والخزفيّة المتأثّرة بالفنّ اليوناني.

دولة كندة:

كندة إحدى القبائل العربية، وتنسب إلى ثور بن عفير الذي ينتهي نسبه إلى يعرب ابن قحطان، وكندة لقب ثور بن عفير[3]، وتعرف كندة بكندة الملوك، لأنّ الملك كان لهم على بادية الحجاز من بني عدنان، وكان أوّل ملوكهم مرتع بن معاوية بن ثور.

يعود أصل كندة إلى عرب الجنوب، حيث كانوا يسكنون اليمن من جهة

---

(١) الطبري: الرسل والملوك، جـ٢، ص١٤٨ المسعودي: مروج الذهب، جـ٢، ص٩٣ حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام، جـ١، ص٣٢.

(٢) السيد عبد العزيز سالم: تاريخ العرب، ص١٢٧-١٢٨.

(٣) جواد علي: المفصّل في تاريخ العرب، جـ٣، ص٤٤.

حضرموت، وكانت حاضرتهم مدينة دمون التي ورد ذكرها في شعر امرى القيس:

كأنّي لم ألهو بدمون مرّة ولم أشهد الغارات يوماً بعندل

واصطدمت كندة بأهل حضرموت فنزحت باتجاه الشمال إلى نجد واستقرّت بها بسبب عجزها عن مواصلة الحرب ضدّ الحضارمة.

وصادف قدوم كندة إلى نجد وقوع خلافات في قبيلة بكر التي كانت تسكن شمال نجد وغلب السفهاء على العقلاء فلجأوا إلى تبع حسان حاكم اليمن وطلبوا منه أن يولّي عليهم ملكاً، فاختار لهم حجر بن عمرو زعيم كندة وكان أخاه من الرضاعة، وكان على قدر كبير من الوجاهة، فكان أول ملوك كندة في نجد، وكان يلقّب بآكل المرار[1]، وحالف بين كندة وربيعة.

خَلِفَ حجر ابنه عمرو المعروف بالمقصور (٤٨٠-٤٩٥م)، وسمي بالمقصور لأنّه قصر على ملك أبيه، ثمّ تلاه الحارث بن عمرو الذي مدّ نفوذ كندة حتى وصل إلى الحيرة[2].

ومن ملوك كندة حجر بن الحارث بن عمرو والد الشّاعر المشهور امرى القيس، وكان قد تولّى على أسد وكنانة، وراثة عن أبيه فكانوا يكرهونه لسوء سيرته بهم، وكان يبعث رسله كل سنة لطلب الأتاوة منهم حتّى مات أبوه، فانتهزوا هذه الفرصة وأرادوا القضاء عليه، فلمّا بعث جباته إلى بني أسد منعوهم من الجباية وطردوهم، فسار إليهم حجر وقتل عدداً من أشرافهم وأسر آخرين وحبسهم، وكان بينهم الشاعر ابن الأبرص، فقال شعراً يستعطفه فرّق له وأرسل من يطلق سراحهم، فلما ساروا مسافة يوم عادوا إلى حجر وانقضّوا عليه في قبته فقتله علباء بن الحارث الكاهلي، وكان حجر قتل أباه[3].

---

(١) المسعودي: التنبيه والإشراف، ص٢٩٨ ابن خلدون: العبر، جـ٢، ص٢٧٦ محمد مبروك نافع: عصر ما قبل الإسلام، ص١١٧.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، جـ١، ص٣٠٤ السيد عبد العزيز سالم: تاريخ العرب، ص٣١٨.

(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، جـ١، ص٣٠٥-٣٠٦.

أوصى حجر لأبنائه أن يأخذوا بثأره، فأحجموا عن ذلك باستثناء امرى القيس، وكانت أمّه فاطمة بنت ربيعة أخت كليب بن وائل التغلبي، ولم يكن أبوه راضياً عنه بسبب مسلكه وولعه بالنساء والتغزّل فيهن فطرده عندما سمع بقصيدته التي مطلعها: (قفا نبكِ من ذكرى حبيبٍ ومنزل)، فأخذ يتجوّل في بلاد العرب وأحيائها، وجاءه خبر مقتل أبيه وهو في (دمون)، فلمّا سمع الخبر قال: (ضيعني صغيراً، وحمّلني دمه كبيراً، لا صحو اليوم، ولا سكر غداً، اليوم خمر، وغداً أمر).

وضرب امرؤ القيس في البلاد يطلب النجدة للثأر من بني أسد حتى أجابه أحد ملوك اليمن، وقاتل بني أسد وقتل سيدهم الأشقر بن عمرو، ويقال بأنّه شرب في قحف رأسه[1]، إلاّ أنّ بني أسد استعانوا بالمنذر بن ماء السّماء لينصرهم عليه، فتفرّق من كان معه، وتوجّه إلى ملك الروم يطلب نصرته، فمات في الطريق.

(١) اليعقوبي: التاريخ، جـ١، ص١٧٩ ابن الأثير: الكامل، جـ١، ص٣٠٧-٣٠٨ السيد عبد العزيز سالم: تاريخ العرب، ص٣٢٧-٣٢٨.

حواضر الحجاز

مكّة المكرّمة:

سمّيت مكة بهذا الاسم لأنّها تمكّ الجبابرة، أي تُذهب نخوتهم[١] ، أو تمكّ الفاجر عنها أي تخرجه، وقيل سميت مكة لقلّة مائها، كما سميّت بكّة، ومكة وبكّة لكثرة ازدحام النّاس الناتج عن موسم الحج حيث تجتذب النّاس من مختلف الأطراف ليحجّوا إليها، ومكة هي القرية، وبكّة موضع البيت، وقيل عكس ذلك[٢].

ولمكّة أسماء أخرى كثيرة منها[٣]:

أ- أم القرى: وسميت بذلك لأنّها أعظم القرى شأناً بوجود البيت الحرام فيها، قال تعالى: ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَاۚ﴾[٤].

ب- البيت العتيق، قال تعالى: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾[٥]، وسمي كذلك لأنّه أعتق من الجبابرة[٦].

ويرى بعض المؤرّخين أنّ اسم مكة مأخوذ من لغة عرب الجنوب، فمكّة أو (مكرب) كلمة يمنيّة من مقطعين هما: (مك) وتعني بيت، و(رب) وتعني إله، فهي بيت الرب أو بيت الإله، ويتحدّث بطليموس (١٣٨-١٦٥م) عن مدينة سمّاها (ماكورابا) أو (مكربة) ويقصد بها مكّة[٧].

---

(١) ياقوت الحموي: معجم البلدان، جـ٥، ص١٨١ محمد بن أحمد الفاسي: شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، جـ١، ص٧٧: محمد المحاسنة: صفحات من تاريخ آل البيت، ص٣٠.

(٢) الفاسي: شفاء الغرام، جـ١، ص٧٧ ابن الفقيه: مختصر كتاب البلدان، ص٢٠.

(٣) انظر ياقوت الحموي: معجم البلدان، جـ٥، ص١٨١-١٨٣ الفاسي: شفاء الغرام، جـ١، ص٧٥-٧٦.

(٤) سورة الأنعام: الآية ٩٢.

(٥) سورة الحج: الآية ٢٩.

(٦) ابن الفقيه: مختصر كتاب البلدان، ص٢٠.

(٧) كارل بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية، جـ١، ص٣٣ محمد مهران: تاريخ العرب القديم، ص٣٩٢. =

ويعود تاريخ مكّة الحقيقي إلى القرن التاسع عشر قبل الميلاد، وهي الفترة التي عاش فيها إبراهيم عليه السلام، حيث جاء بولده إسماعيل وزوجه هاجر من فلسطين وأسكنهما في هذه البقعة المباركة[1]، استناداً إلى قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾[2]، وكان إبراهيم عليه السلام عاش في الفترة الواقعة ما بين (١٩٤٠-١٧٦٥ق.م).

تقع مكّة المكرّمة على السّفوح الدنيا لجبال السروات في وسط الحجاز، وتحيط بها الجبال من جميع جهاتها، ولها منافذ سهلة تربطها بمدينة جدّة على البحر الأحمر، ويتميّز موقعها بأهمية كبيرة، لأنّه يمثّل منتصف خط القوافل ما بين اليمن جنوباً وبلاد الشّام وآسيا الصغرى شمالاً، وحلقة اتّصال بين الحضارات الشماليّة والجنوبيّة.

وكان أهل مكّة يشربون من آبار كثيرة منها بئر كرادم، وبئر خُم، وبئر العجول، وبئر بذر، وبئر سجلة، أمّا أهمّها فبئر زمزم، وهي العين المباركة التي فجّرها الله سبحانه وتعالى إكراماً لنبيّه إسماعيل عليه السلام[3].

وأهمّ ما يميّز مكّة وجود الكعبة وحولها البيت الحرام، ويعود بناؤها إلى إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام[4]، لقوله تعالى: ﴿وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ﴾[5]، وتعرّضت الكعبة لعوامل متعدّدة دعت إلى تجديد بنائها مرّات عديدة منها بناء العمالقة، ومنها بناء جرهم، وبناء قصي بن كلاب، وبناء قريش،

---

(١) الطبري: الرسل والملوك، جـ١، ص٢٥١ الأزرقي: أخبار مكة، جـ١، ص٥٤.

(٢) سورة إبراهيم: الآية ٣٧.

(٣) انظر الأزرقي: أخبار مكة، جـ١، ص٥٥-٥٦.

(٤) انظر الأزرقي: أخبار مكة، جـ١، ص٣٣-٣٤ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، جـ١، ص٦٠-٦١ محمد محاسنة: صفحات من تاريخ آل البيت، ص٣٦.

(٥) سورة البقرة: الآية ١٢٧.

وهو الذي حضره المصطفى ﷺ، وبناء الحجّاج بن يوسف الثقفي[١].

تولّى أبناء إسماعيل بعد وفاة أبيهم ولاية البيت الحرام في مكة، ثمّ انتقلت إلى أخوالهم بني جرهم، وظلّوا سادة البيت وسدنته إلى أن قَدِمَت خزاعة من اليمن بعد خراب سدّ مأرب فحازت خزاعة أمر مكة[٢] وولاية البيت التي كانت تشمل: الإجازة من عرفة والإفاضة بالنّاس غداة النحر، والنسيء (النسيئة)[٣].

بقيت خزاعة صاحبة السيادة في مكة إلى أن عاد قصي بن كلاب وتزوّج حُبّي بنت حليل بن حبشية سيّد خزاعة، فلمّا توفي حليل استعان بأهله واخوته على جرهم التي رفضت التسليم له بالولاية واستعاد شرف مكة وولاية البيت الحرام، وأنزل قريش من ضواحي مكة إلى مكة وأنزلهم فيها، واهتمّ بالكعبة اهتماماً كبيراً، وأقام دار الندوة، ونظّم إدارة مكة، ثمّ توارثها أبناؤه من بعده[٤]، فكان يجتمع فيها الأُمراء والأعيان من قريش للتشاور في الشؤون السياسيّة والاقتصاديّة والدينيّة، وقد قسمت وظائفها على النحو التالي:

١- السقاية: وهي توفير الماء للحجاج، فتولاّها بنو عبد مناف، حتى وصلت إلى عبد المطلب الذي أعاد حفر بئر زمزم واستخرج منها الماء[٥]..

٢- الرفادة: وهي توفير الطعام لحجاج البيت الحرام إكراماً لهم وتخفيفاً عليهم من مشقّات السّفر، وكذلك تولاّها بنو عبد مناف، وأشهر من تولاّها هاشم بن

---

(١) الفاسي: شفاء الغرام، جـ١، ص١٤٧.

(٢) انظر الأزرقي: أخبار مكة، ص٨١-١٠٧ محمد محاسنة: صفحات من تاريخ آل البيت، ص٣٧-٤١.

(٣) النسيء: هو تأخير حرمة الشهر المحرّم إلى صفر (انظر الأزرقي: أخبار مكة، جـ١، ص١٨٢-١٨٤ جواد علي: المفصّل في تاريخ العرب، جـ٨، ص٤٨٨-٤٨٩).

(٤) الأزرقي: أخبار مكة، جـ١، ص١٠٥-١٠٩ محمد محاسنة: صفحات من تاريخ آل البيت، ص٤٥-٥٢.

(٥) الأزرقي: أخبار مكة، جـ٢، ص٤٢-٤٧ الفاسي: شفاء الغرام، جـ٢، ص١٤٢-١٤٣.

عبد مناف الذي هشّم الثريد للحجاج وأهل مكة، وفي ذلك يقول الزبعري السهمي[١] :

عمرو العلا هشم الثريد لمعشر انـــوا بمكّـــة مستيـــن عجـــاف

٣- الحجابة: وهي سدانة الكعبة، وتعني الإذن للنّاس بالدخول فيها وتولاها بنو عبد الدّار بن قصي بن كلاب.

٤- اللواء والقيادة: واللواء راية كانت تنصب على رمح علامة للجيش إذا توجّه للحرب، وأسند إلى بني عبد الدار وكانت تسمّى العقاب، أمّا القيادة فهي الإمارة على الركب سواءً في الحرب أو في التجارة وأسندت إلى بني عبد شمس بن عبد مناف ثمّ إلى ابنه أميّة، وانتهت إلى أبي سفيان بن حرب[٢].

٥- الأشناق: وهي الديّات، وكانت لبني تيم.

٦- الإيسار: وهي الأزلام والأقداح وكانت لصفوان بن أميّة.

٧- السفارة: كانت لبني عدي.

وكان أهل مكة أصحاب تجارة وبيع، فكانت لهم رحلتان ورد ذكرهما في القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿ لِإِيلَـٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَـٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَـٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ۝٤ ﴾[٣] ، فرحلة الشتاء إلى اليمن، ورحلة الصيف إلى الشّام.

وتميّز أهل مكّة بالإيلاف، والإيلاف العهد والاتّفاق، وهو اتّفاقيّات وأحلاف تجاريّة عقدها هاشم بن عبد مناف واخوانه مع الدول والبلاد المجاورة القريبة والبعيدة، بهدف تأمين وصول تجار مكّة إلى كل الجهات في مأمن من الاعتداء عليهم.

---

(١) الأزرقي: أخبار مكة، جـ١، ص١١٢.

(٢) الأزرقي: أخبار مكة، جـ١، ص١١٥ الفاسي: شفاء الغرام، جـ٢، ص١٤٤-١٤٥.

(٣) سورة قريش.

وكان هاشم أول من أخذ إيلافاً لقومه من ملوك الشّام الروم وغسّان، ثمّ فعل اخوته كما فعل، فأخذ عبد شمس حبلاً من النجاشي الأكبر، وأخذ نوفل حبلاً من الأكاسرة في فارس والعراق، وأخذ المطلّب حبلاً من ملوك حمير في اليمن[١]، وبذلك أنطلق أهل مكة يضربون في البلاد وينقلون خيراتها من بلد إلى بلد حتى أصبحوا أسياد التجارة.

وزاد في رواج تجارتهم وتطوّرها الأسواق الموسميّة التي كانوا يعقدونها في مكة في موسم الحج، وكانت أسواقاً عامرة مليئة بالحركة والنشاط حيث يجتمع النّاس بعد انقضاء الحجّ فيبيعون ويشترون ويعرضون بضائعهم التجارية والأدبيّة، ومن هذه الأسواق عكاظ ومجنة وذي المجاز وغيرها[٢].

أمّا عبادة أهل مكّة قبل الإسلام، فكانت عبادة الأصنام والأوثان، فكانوا ينصبون لأنفسهم آلهة يعبدونها في الكعبة أو في بيوتهم، وانتشر بينهم شرب الخمور ولعب القمار والتعامل بالرّبا، ونظروا إلى المرأة نظرة شؤم، فلجأ بعضهم إلى وأد البنات خوفاً من العار، واستمرّوا على هذا الحال إلى أن بعث الله محمداً ﷺ وبدأت الدعوة إلى الإسلام.

يثرب:

تقع يثرب عند وادي أضم على بُعد ٤٠٠ كم إلى الشمال من مكة المكرّمة، وسمّيت يثرب نسبة إلى يثرب بن قانية بن مهلائيل بن ارم من بني سام بن نوح عليه السلام، وهو أول من نزلها بعد تفرّق ذريّة نوح عليه السلام[٣]، وقيل إنّ اسمها مأخوذ من الثرب أو التثريب وهو الإفساد، أو التعيير والمؤاخذة بالذنب[٤].

---

(١) الطبري: الرسل والملوك، جـ٢، ص٢٥٢ ابن الأثير: الكامل، جـ٢، ص١٠.

(٢) انظر سعيد الأفغاني: أسواق العرب في الجاهلية والإسلام، ص٢٣٢ وما بعدها.

(٣) المسعودي: مروج الذهب، جـ٢، ص١٥٨ ياقوت الحموي: معجم البلدان، جـ٥، ص٤٣٠ ابن خلدون: العبر، جـ٢، ص٢٨٦ أحمد بن عبد الحميد العباسي: عمدة الأخبار في مدينة المختار، ص٤١.

(٤) انظر ياقوت: معجم البلدان، جـ٥، ص٤٣٠ السيد عبد العزيز سالم: تاريخ العرب، ص٣٨٤.

وعندما نزلها المصطفى ﷺ نهى عن تسميتها يثرب وسمّاها طابة أو طيبة[١]، ومن أسمائها دار الهجرة والمدينة المنورة وهو الاسم الذي تحمله اليوم، وربّما جاءت هذه التسمية بعد أن هاجر إليها عليه الصلاة والسلام ومن أسلم معه من أهل مكة، فقد أنارها بنور الإسلام ونقل أهلها من دياجير الجهل والظلمات إلى نور الحق والإسلام والعدالة والسلام، وسميت مدينة الرسول ﷺ لنزوله بها[٢].

وكان أوّل ذكر ليثرب في نصّ الملك نبوخذ نصر الذي سكن تيماء، وسكنت فيها بعض القبائل العربية خاصة قبيلة بلي، ثمّ استوطنتها جماعة من اليهود هاجروا إليها بعد أن طردهم تيطس الروماني من فلسطين سنة ٧٠م، وقدمت إليها قبيلتي الأوس والخزرج بعد حادث سيل العرم عندما سكنت الأزد في مكة ثمّ توزّعت من هناك إلى عدّة بلاد، فكانت إقامة الأوس والخزرج في يثرب، فلمّا دخلوها وجدوا الأموال والآطام[٣] والنخل بأيدي اليهود، ولمّا كانوا هم الأقوى سكن الأوس والخزرج معهم وعقدوا معهم حلفاً وجواراً يأمن به بعضهم بعضهاً، واستمرّوا على ذلك حتى نقض اليهود عهد الحلف والجوار فاستعان الأوس والخزرج بأقربائهم على اليهود فغلبوهم[٤].

وتحضّر أهل يثرب من الأوس والخزرج بإقامتهم في المدينة واستقرارهم فيها، غير أنّهم لم يتمكّنوا من التخلّص من الرّوح الأعرابيّة، وإنّما ظلّوا محافظين على النزعة إلى التخاصم والقتال، فاشتعلت الحرب بينهما بسبب امرأة من بني سالم، ثمّ توالت الحروب بينهم بعد ذلك، فكان منها حرب الفجار الأولى والثانية، وكان آخر

---

(١) ياقوت: معجم البلدان، جـ٥، ص٤٣٠ السمهودي: وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى، القاهرة، جـ١، ص٨ العباسي: عمدة الأخبار، ص٤٢.

(٢) انظر عن أسمائها وهي كثيرة جداً: السمهودي: وفاء الوفا، جـ١، ص١٩ السيد عبد العزيز سالم: تاريخ العرب، ص٣٨٥.

(٣) الآطام: هي الحصون التي كان يلجأ إليها النساء والأطفال للتحصّن بها عندما يخرج الرجال للقتال.

(٤) جواد علي: المفصّل في تاريخ العرب، جـ٤، ص١٢٩-١٣٠.

هذه الحروب يوم بُعاث[1].

وانتهت حروب الأوس والخزرج بعد أن أقبلوا على الدخول في الإسلام حيث تمكّن عليه الصلاة والسلام من تحويل العداء بينهم إلى محبّة وإخاء، وأطلق عليهم اسم الأنصار لنصرتهم له وللمهاجرين المسلمين وهم يفتخرون بهذه التسمية وهي عندهم بمنزلة النسب.

كان أهل يثرب تجّاراً يخرجون إلى أسواق الشّام ويأتون بما تحتاج إليه مدينتهم من البرّ والشعير والزّيت والقماش وغير ذلك، كما عمل بعضهم بالزراعة، فقد ساعد وجود المياه في المدينة على إقبال أهلها على زراعة النخيل وإنشاء الحدائق والبساتين.

لم يكن لأهل يثرب معبد يتعبّدون فيه، وإنّما كانت لديهم أصنام يحفظونها في بيوتهم يتقرّبون إليها، وكانت بيوتهم مبنيّة باللبِن أو الآجر، وكانوا يتحصّنون فيها عندما يتعرّضون للأخطار، لأنّه لم يكن للمدينة سور، ولم يكن فيها حصون غير آطام اليهود[2].

الطائف:

سميت الطائف بهذا الاسم لوجود حصن يطيف بها، واسمها القديم (وَجّ)[3]، وتقع على مسافة تزيد على ١٠٠ كم إلى الجنوب الشرقي من مكّة، وهي أرض مرتفعة ذات هواء طيّب غنيّة بزروعها وأشجارها، وتقع على جبل غزوان، وأكثر ثمارها الزبيب والرمّان والموز والأعناب، والحبوب بالإضافة إلى العسل.

وسكّانها هوازن وثقيف وهما من القبائل العربية، ويقترن اسم الطائف بمكة، كما

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، جـ١، ص٤١٦-٤١٨ جواد علي: المفصّل، جـ٤، ص١٣٩-١٤١.

(٢) انظر جواد علي: المفصّل في تاريخ العرب، جـ٤، ص١٣٠-١٣٢.

(٣) ياقوت الحموي: معجم البلدان، جـ٤، ص٩ جواد علي: المفصّل في تاريخ العرب، جـ٤، ص١٤٣.

يرتبط سكان المدينة مع أهل الطائف بعلاقات قويّة اجتماعياً واقتصاديّا، وكان لبعض رجالات قريش مزارع وبساتين في الطائف مثل العاص بن وائل السهمي الذي مات بالطائف، والعبّاس بن عبد المطلب الذي كان يحمل الزبيب من مزرعته بالطائف وينبذه في السقاية للحجاج(١).

ويختلف أهل الطائف عن أهل مكة وعن الأعراب من حيث ميلهم إلى الزراعة واشتغالهم بها، وعنايتهم بغرس الأشجار، فقد استفادوا من وجود الماء فأحاطوا مدينتهم بالبساتين، وعملوا بالحرف اليدوية مثل الدباغة والتجارة والحدادة وهي مهن كان يأنف العربي من الاشتغال بها(٢).

وقدمت إلى الطائف جماعة من اليهود طردوا من اليمن ومن يثرب، فسكنوها ودفعوا الجزية لأسيادها.

وكان لأهل الطائف آلهة يعبدونها من الأصنام والأوثان، وأشهر آلهتهم هي اللات، جعلوا له معبداً هو عبارة عن صخرة مربّعة الشكل بنوا حولها بناءً فكانوا يحجّون إليه ويطوفون به، وهدمه المسلمون بعد فتح الطائف.

---

(١) السيد عبد العزيز سالم: تاريخ العرب، ص٣٨٠.

(٢) جواد علي: المفصّل في تاريخ العرب، جـ٤، ص١٥١-١٥٢.

دولة الأنباط العربية:

الأنباط أو نباتايو قبيلة عربية سيطرت على أرض آدوم بعد أن حلّت محل بني قيدار وبدأ ظهورها في الجهة الشرقيّة المتاخمة لمنطقة شرق الأردن الحاليّة منذ القرن الثامن قبل الميلاد، وكانوا عرباً رحّلاً، واستمرّوا يسكنون الخيام إلى القرن الرابع قبل الميلاد، وتركّزت مساكنهم في المناطق الواقعة إلى الشرق من البحر الميت، واختلطوا بالسكّان المتواجدين هناك، وكانوا من بقايا الكنعانيين القدماء ومن الآراميين الذين استقرّوا في المنطقة منذ سيطرة دمشق الآرمية عليها(١).

لقد عرف الأنباط نوعاً من الاستقرار وتميّزوا على كثيرٍ من البدو بإقبالهم على التجارة وقيامهم بدور الوسطاء، ممّا أدّى إلى إثرائهم، فكان هذا واحداً من الأسباب التي دفعت القائد اليوناني أنتيغونس إلى الإقدام على مهاجمتهم بهدف الاستيلاء على مصادر الثروة وانتزاعها من أيديهم وتوسيع أملاكه في سوريا، وهاجم الأنباط على دفعتين هما:

الأولى سنة ٣١٢ ق.م، حيث كلّف قائده أثنايوس بتنفيذ هذه المهمّة، وأرسله على رأس جيش من سبعة آلاف جندي بينهم ستمائة فارس، إلاّ أنّ هذه الحملة مُنيت بالفشل الذريع رغم أنّ الهجوم كان على حين غرّة وفي أحد الأعياد التي كان يحتفل بها الأنباط.

والثانية بقيادة ابنه ديمتريوس الذي قاد أربعة آلاف فارس ومثلهم من المشاه فهاجم صخرة الأنباط (أم البيارة) هجوماً عنيفاً، لكن مصيره كان كمصير من سبقه، ثمّ اضطر إلى عقد الصلح والعودة خاسراً(٢).

---

(١) أسد الأشقر: الخطوط الكبرى في تاريخ سوريا ونشوء العالم العربي، مؤسسة فكر للأبحاث والنشر، بيروت، ١٩٨٢م، جـ٣، ص٢١٠.

(٢) إحسان عبّاس: تاريخ دولة الأنباط، دار الشروق للنشر والتوزيع، الأردن، عمان، ١٩٨٧م، ص٣٠-٣٢.

كان الأنباط شعباً يعشق الحريّة، فكما ردّوا اليونان عن بلادهم وقفوا بوجه النفوذ العبراني ومنعوه من التوغّل في شرقي الأردن، فعجز اليهود في السيطرة على هذه البلاد، وأثبت الأنباط أنّهم قادرون على حماية الحضارة العربية الشاميّة، وردّ الاستعمار الأجنبي عن بلادهم.

وسّع الأنباط سلطتهم من عاصمتهم البتراء إلى المنطقة الشماليّة المجاورة، حيث أعادوا بناء المدن الأدومية والمؤابيّة القديمة، وأقاموا مراكز جديدة لحماية القوافل ومحطات لاستثمار الموارد المعدنيّة، ففي الفترة النبطية بدأت مزاولة حرفة استخراج الأسفلت (القير) من البحر الميت وبيعه للمصريين الذين استخدموه في أعمال التحنيط.

لقد حفر الأنباط مدينتهم في الصخر وبنوا مدينة البتراء التي كانت حصينة من جميع جهاتها، وأصبحت منذ القرن الرابع قبل الميلاد المدينة الرئيسية على طريق القوافل، حيث تربط بين جنوبي الجزيرة العربية مركز إنتاج التوابل وبين مراكز الاستهلاك والبيع في الشمال، كما كانت تسيطر على الطرق المؤدّية إلى مرفأ غزة في الغرب، ومدينتي بصرى ودمشق في الشمال ومدينة أيلة على البحر الأحمر، والخليج العربي في الجنوب[١].

العصر الذهبي لدولة الأنباط يبدأ مع أول ملوكهم، وهو الحارث الأول الذي يبدأ حكمه سنة ١٦٩ ق.م، ويمتدّ حتى فترة حكم مالك الثالث الذي تعرّض للهزيمة أمام الرّومان سنة ١٠٦م، حيث استطاع الأنباط في هذه الفترة بسط سيطرتهم على سيناء وحوران ووادي القرى والحجر ومؤاب والبلقاء وأرض مدين وأعالي الحجاز، وأقاموا عدداً من المدن والمراكز الحضرية منها: أذرع وجرش وعمّان والكرك والشوبك وأيلة مدائن صالح والعُلا وديدن وصلخد ومأدبا ودمّر على حدود دمشق، إضافة إلى البتراء العاصمة والحاضرة الأولى لهم.

---

(١) فيليب حتي: تاريخ سوريا ولبنان، جـ١، ص٤١٨.

عمل الأنباط بالتجارة ومارسوا بعض الصناعات المعدنيّة، وعرفوا صناعة الحياكة والنسيج وبعض الأسلحة، كالأقواس والسهام، وسكّوا النقود من الفضّة والبرونز، كما اهتمّوا بالزراعة اهتماماً كبيراً يدلّ على ذلك السدود والقنوات وخزانات المياه المنتشرة في البلاد التي استوطنوها، وكانت لهم عناية خاصة بالمياه وحفظها والتحكّم بها، ومارسوا زراعة الحبوب وأشجار الفاكهة والعنب والرمّان والتين وغيرها.

كانت ديانة الأنباط ساميّة وأساس طقوسها الخصب، فكان ذو الشرى (دوسارس) أكبر آلهتهم وهو إله الشمس وله السيادة على جميع الآلهة الأخرى[١]، وكان على شكل مقام يمثله حجر أسود مستطيل، ومن آلهتهم اللات إله القمر، ومناة والعزى وهبل، وأتارغاتس وهي آلهة آراميّة أقاموا لها أماكن عبادة في خربة التنوّر، وفي ذات راس في الكرك.

كان نظام الحكم عند الأنباط ملكيّاً وراثيّاً، وأشهر ملوكهم الحارث الأول وهو أول ملوك الأنباط، وعبادة الأول (٩٥-٨٨ق.م) الذي تمكّن من إلحاق الهزيمة بإسكندر جنايوس اليهودي الذي طمع في السيطرة على شرق الأردن. أمّا الحارث الثالث (٨٧-٦٢ق.م) فقد شهد عصره فتوحات واسعة وصلت إلى دمشق شمالاً[٢].

وكانت مدينة البتراء هي عاصمة الأنباط، وقد شيّد أهلها بيوتهم ومعابدهم وقصورهم حفراً في الصخر، فصارعت الزمن وبقيت خالدة تشهد بعظمة بناتها، منها بناء الخزنة، والمسرح الذي يُفضي إلى سهل فسيح تتناثر فيه الكهوف الطبيعيّة أو المحفورة في الصخر، والدّير وهو بناء ضخم عرضه (٥٠) متراً وارتفاعه حتى قمة الجرّة التي تزيّن أعلى البناء (٤٥) متراً، وبداخل الدير قاعة أقيم في جدارها الخلفي

---

(١) فيليب حتي: تاريخ سوريا، جـ١، ص٤٢٨-٤٢٨ أسد الأشقر: الخطوط الكبرى، جـ٣، ص٢١١.

(٢) انظر جواد علي: المفصّل في تاريخ العرب، جـ٣، ص٣٠ محمد مهران: تاريخ العرب القديم، ص٥٠٩-٥١٠.

نصب حجري يمثّل الإله (ذو الشرى)[1]، أمّا قصر البنت فيختلف عن بقية الأبنية في المدينة، لأنّه بناء بالحجر أُقيم احتفاءً بزيارة فرعون وابنته للمدينة، وكانت المباني والآثار الموجودة في المدينة متأثّرة بالطابع الهلنستي.

وتحدّث الأنباط اللغة العربية القديمة، وكتبوا بالخط الآرامي، إلاّ أنّه عُرِفَ بالخط النبطي تمييزاً له عن الخطوط الآرامية، ويعتبر نقش النمّارة أقدم نقش وصل إلينا من الكتابات النبطية، وهو يرجع إلى سنة ٣٢٨م، وأرّخ به قبر امرى القيس بن عمرو أحد ملوك الحيرة[2].

وفيما يلي مقارنة لبعض الأحرف العربيّة والنبطيّة:

أ، ب د ج ر س

ل لـ ع ق م ي

تـدمـر:

ورد ذكر تدمر لأوّل مرّة في كتابات تفلات بيلا صر الأول سنة ١١١٧-١٠٨٠ق.م، ثمّ ورد ذكرها في التوراة في سفر الأيّام الثاني[3].

وتدمر باليونانيّة بالميرا Palmyra ، وهي مأخوذة من لفظة Palma اللاتينيّة، ومعناها نخلة، ويذكر بأنّ الإسكندر عندما تغلّب عليها أطلق عليها بالميرا أي مدينة النخل لكثرة ما يكتنفها من غابات النخيل، وهناك من يرى أنّ بالميرا ترجمة لكلمة تمر أو تامار العبرانيّة ومعناها نخلة[4].

(١) انظر لانكستر هاردنج: آثار الأردن، ص١٣٤ السيد عبد العزيز سالم: تاريخ العرب، ص١٩٨-١٩٩.

(٢) جواد علي: المفصّل في تاريخ العرب، جـ٣، ص٦ السيّد عبد العزيز سالم: تاريخ العرب، ص١٨٤.

(٣) التوراة: سفر الأيّام الثاني، الإصحاح الثامن، ص٦٩١.

(٤) جواد علي: المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام، جـ٣، ص٧٦-٧٧.

=

ازدهرت تدمر كمدينة ذات موقع تجاري ممتاز، فقد كانت القوافل تمرّ بها منذ القرن السادس قبل الميلاد تحمل منتوجات اليمن أو الحبشة إلى العراق أو إلى فارس أو آسيا الصغرى، وبدأ الاهتمام بها يتطوّر ويزداد منذ القرن الأول الميلادي، حيث أخذت الطرق تتحوّل إليها وتتّسع تجارتها حتى بلغت قمّة مجدها في القرن الثالث الميلادي.

ظهرت أطماع الرومان بتدمر منذ القرن الأول الميلادي على يدّ ماركوس أنطونيوس، وحاولوا فتحها لكنّهم فشلوا، وأخذوا يتدخّلون في شؤونها فأدخلها هادريان في حمايته سنة ١٣٠م، وسمّاها (أدريان بوليس) نسبة إليه، ورغم ارتباطها بالرومان إلاّ أنّها لم تفقد استقلالها الداخلي، فقد بقيت تدير شؤونها بنفسها(١)، ويتولاّها ملوك من أبنائها.

وأصبحت تدمر مستعمرة رومانيّة في عهد هادريانوس وسبتيموس سفيروس Ptimius Severus (١٩٣-٢١١م)، وكان أذينة بن أذينة بن خيران أشهرملوكها وتمكّن من تحقيق نصر مؤزّر ضدّ الفرس واستعاد منهم أراضي الجزيرة الفراتيّة التي استولوا عليها من الرومان، فانهالت عليه الألقاب والتشريفات من الرّومان، وأطلقوا عليه لقب القنصل، ثمّ لُقّبَ ملك المُلوك أو أمبراطور الشرق، لكنّه قُتل في مؤامرة داخليّة فانتقل المُلك لابنه وهب اللات (أتينودورس)، لكنّه كان صغيراً فتولّت أمّه زنوبيا الوصاية عليه، وصارت صاحبة السيادة.

وزنوبيا اسمها زينب أو الزبّاء (بنت زباي)، وكانت سمراء اللّون جميلة ذات موهبة فائقة، حصلت من الرومان على لقب (سبتميا) وهو أكبر ألقاب الشرف عندهم، وأظهرت مقدرة فائقة على إدارة شؤون الحكم(٢)، وقامت بإسقاط اسم الأمبراطور الروماني أورليان عن النقود، وسكّت نقوداً عليها صورة رأسها، وتولّت قيادة جيش تدمر، وكانت تراودها فكرة إقامة دولة عربية موحّدة من بلاد الشّام

(١) أحمد شلبي: موسوعة التاريخ الإسلامي، جـ١، ص١٠٥.
(٢) جواد علي: المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام، جـ٣، ص١١٢.

والعراق ومصر وآسيا الصغرى، فنشرت سلطانها على هذه البلاد وأعلنت نفسها أمبراطورة على الشرق (أغسطا)، بالاعتماد على العناصر العربية التي التفّت حولها.

أثارت زنوبيا حفيظة الرومان، وتخوّفوا منها، فأرسلوا جيشاً إلى الشرق، فانبرت لهم وحقّقت انتصاراً باهراً وقتلت هرقليا نوس قائد جيوش الرومان.

ثمّ أعاد أورليان تجهيز الجيوش الرومانية، فدبّر لها حيلة حيث تظاهر جيشه بالانهزام أمامها في إحدى المعارك، وكان قد نصب لها كميناً وراء تلال أنطاكية وبساتينها، وفاجأها بعد أن اندفع جيشها خلف الرومان، وأنزل بها خسارة فادحة، فعادت إلى تدمر ولاحقتها جيوش الرومان، وفرض عليها أورليان حصاراً مشدّداً حتى عجزت عن المقاومة، ولمّا حاولت الخروج أسرها الرومان واستسلمت تدمر سنة ٢٧٢م فدخلها أورليان واستولى على خزائن المدينة وأملاكها.

كان نظام الحكم في دولة تدمر العربية ملكيّاً وراثيّاً، مع وجود حكومة كانت تُناط بمجلسين أحدهما للشيوخ والآخر للعشائر، وكان لمدينة تدمر رئيساً تناط به إدارة المدينة ويساعده عدد من الموظفين، كما كان هناك قائد للجيش، وقائد للحامية العسكرية[١].

وتكلّم أهل تدمر العربية، وعبدوا مجموعة من الآلهة منها بعل وبعل السماء واللات، وكان لكل إله من هذه الآلهة هيكل يُعبد فيه.

الغساسنة:

يعود الغساسنة بأصولهم إلى اليمن، هاجروا منها بعد خراب سد مأرب، وسمّوا بالغساسنة نسبة إلى عين ماء شربوا منه هناك[٢]، وهم من آل جفنة، وأطلق عليهم اسم أزد غسّان، يقول حسّان بن ثابت:

---

(١) نبيه عاقل: تاريخ العرب القديم، ص١٤٣.

(٢) المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، جـ٢، ص١٠٧ القلقشندي: نهاية الأرب في أنساب العرب، ص٢١.

أما سألت عنّا فإنّا معشر نجب الأزد نسبتنا والماء غسّـان[1]

وسمّي الغساسنة (آل جفنة) لأنّهم ينتسبون إلى جدّ لهم اسمه جفنة بن عمرو مزيقياء بن عامر ماء السماء، أو إلى جفنة وهي قبيلة من غسّان من اليمن، والجفن هو الكرم، وقاد الغساسنة في خروجهم عمرو المعروف باسم (مزيقياء) بن عامر ماء السماء.

ويذكر المؤرّخون أنّ الغساسنة نزلوا مشارف الشّام في الأردن، وامتدّ سلطانهم إلى حوران حتى وصلوا دمشق وتدمر، وكان أول ملوكهم بالشّام الحارث بن عمرو ابن عامر، وقيل جفنة بن عمرو بن عامر[2].

وأقام الغساسنة علاقات تحالف مع الرومان الذين حكموا بلاد الشّام، واستفاد الرومان من وجود الغساسنة في ضرب خصومهم الفرس، ورد غارات القبائل العربية التي كانت تشكّل خطراً ضدّ الرومان، لهذا اشتدّ الخصام بين الغساسنة في الشّام والمناذرة في العراق، ووقف المناذرة إلى جانب الفرس وأصبحوا حلفاءهم.

وكان الحارث بن جبلة من أشهر ملوك الغساسنة، حيث استطاع الانتصار على المنذر بن ماء السماء ملك الحيرة، وتمكّن من قتله في معركة (يوم حليمة) سنـة ٥٥٤م[3].

ومن ملوكهم أيضاً الحارث بن عمير بن أبي شمّر الذي قتل مبعوث المصطفى ﷺ، وكان آخر ملوكهم جبلة بن الأيهم الذي دخل الإسلام بعد معركة اليرموك، ثمّ ارتدّ عن الإسلام.

اتّخذ الغساسنة مدينة بصرى عاصمة لهم، وكانوا ينقلونها أحياناً إلى الجابية قرب مرج الصفّر، وامتدّت بلادهم من حوران إلى الجولان واليرموك وفلسطين والبلقاء والكرك ومعان، واشتغلوا بالزراعة، فعمّروا القرى والضياع، وكان يَفِدُ على بلاطهم

(١) حسّان بن ثابت الأنصاري: الديوان، دار صادر، بيروت، ص٢٥١.
(٢) انظر جواد علي: المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام، جـ٣، ص٣٩٩.
(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ: جـ١، ص٣٢٧-٣٢٩.

بعض شعراء العرب الكبار أمثال النابغة الذبياني، وحسان بن ثابت، وكان زوال دولتهم من بلاد الشّام مع انتهاء سيادة حلفائهم الروم بدخول المسلمين إلى بلاد الشام سنة ١٣هـ/ ٦٣٥م.

دولة المناذرة:

يعود المناذرة إلى أُصول عربيّة، فهم من قبيلة تنوخ، وكانوا ثلاث طبقات، هي تنوخ والعباد والأحلاف[١]، هاجروا من اليمن على أثر خراب سدّ مأرب، وأقاموا في جنوب غرب العراق، واتّخذوا مدينة الحيرة عاصمة لهم، وكانت على مقربة من الكوفة.

جاءت كلمة الحيرة من حرتا Harta أو حيرتا (حيرتو) Herta لسريانيّة الأصل، ومعناها المعسكر أو المخيّم، وتقابل كلمة حاصير Haser العبرانيّة، كما تقابل كلمة العسكر عند المسلمين التي جاءت بمعنى الحضر والحاضرة.

كان مالك بن فهم الأزدي أوّل ملوك الحيرة، وكان منزله بالأنبار، وظلّ يقيم فيها إلى أن رماه ابنه سليمة بن مالك بن فهم بسهم وهو لا يعرفه فأرداه قتيلاً، فلمّا عَلِمَ أنّ سليمة قاتله قال[٢]:

جـزانـي لا جـزاه الله خيـراً سليمـة انّـه شـرّاً جـزانـي
أُعلّمـه الـرمـايـة كـلّ يـومٍ فلمّـا اشتـدّ سـاعـده رمـانـي

ثمّ تولّى ملك الحيرة من بعده ابنه جذيمة الأبرش، وكان به برص فهابت العرب أن تسمّيه به إعظاماً له، فسمّوه جذيمة الوضّاح وجذيمة الأبرش، وكان من أفضل ملوك العرب رأياً وأشدّهم نكاية[٣].

---

(١) ياقوت الحموي: معجم البلدان، جـ٢، ص٣٣١ جواد علي: المفصّل في تاريخ العرب، جـ٣، ص١٦٦.

(٢) انظر جواد علي: المفصّل في تاريخ العرب، جـ٣، ص١٥٩.

(٣) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، جـ١، ص٦١٣ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، جـ١، ص١٩٧.

عُرِفَ جذيمة الوضّاح بأنّه صاحب النديمين اللذين يضرب بهما المثل، وهما مالك وعقيل ابنا فرج بن مالك بن بلقين قدما إليه من الشّام وفي طريقهما وجدا عمرو بن عدي ابن اخته، وكان قد ضلّ في البريّة ولم يتمكّن من العثور عليه ففرح بذلك فرحاً عظيماً، وكان معروفاً عنه أنّه لا ينادم أحداً إلاّ الفرقدين وهما صنمان اسماهما (الضيزنين)، حيث كان يستسقي بهما ويستنصر بهما على عدوّه، فلمّا قدم عليه مالك وعقيل بابن اخته اتّخذهما نديمين وذكر ذلك متمّم بن نويرة في مرثيته لأخيه مالك قال[1]:

وكنّا كندمانَيْ جذيمة حقبة ... من الدهر حتّى قيل لن يتصدّعا

فلمّا تفرّقنا كأنّي ومالكاً ... لطول اجتماع لم نبت ليلةً معاً

وملك بعد جذيمة ابن اخته عمرو بن عدي، وهو أوّل من نزل الحيرة من الملوك، ثمّ جاء من بعده ابنه امرؤ القيس الذي ورد اسمه في نقش النمارة.

وكان النعمان الأوّل ابن امريء القيس رجلاً قويّاً حازماً ومحارباً مشهوراً، فكان يغزو بكتيبتين عنده هما: الدوسر وأهلها من قبيلة تنوخ، والشهباء وهي من الفرس وكان يقال لهاتين الكتيبتين (القبيلتان)، ولقوّتهما فقد كان يضرب بهما المثل، وفي الدوسر يقول أحد الشعراء:

ضربت دوسر فيهم ضربة ... أثبتت أوتاد ملك فاستقر

وكان جيش النعمان يتكوّن من خمس كتائب هي: الدوسر والشهباء، والأشاهب (أي بيض الوجوه)، والرهائن، وهم خمسمائة رجل رهائن لقبائل العرب يقيمون على باب الملك سنة مستعدين لأوامره ويستبدلون بمثلهم في فصل الربيع، والصنائع وهم بنو قيس وبنو تيم اللات، وهم خواص الملك، والوضائع وهم ألف رجل من الفرس يقيمون في الحيرة نجدة لملوك العرب ويُستبدلون كل سنة[2].

---

(١) المسعودي: مروج الذهب، جـ٢، ص٩٩ عبد العزيز سالم: تاريخ العرب، ص٢٤٧.

(٢) عبد العزيز سالم: تاريخ العرب في عصر الجاهلية، ص٢٥٩-٣٦٠.

وإلى النعمان يُنسب بناء قصر الخورنق الشهير بالقرب من الحيرة، وارتبط اسم الخورنق باسم بانيه سنمّار وهو رجل روميّ، فلمّا أتمّ بناءه ظهر جِماله وأعجب من حسنه وإتقانه، فقد كان يصعد إليه النعمان على دابّته والبحر تجاهه والبرّ خلفه فيرى الحوت والضبّ والظبي والطير والنخل والزرع، وقال له سنمّار: إنّي أعلم موضع آجرّة لو زالت زال القصر كلّه، فسأله النعمان عنها، فأراه إيّاها، ثمّ أمر به فقذف من فوق القصر، وصار يضرب به المثل على الجزاء السيء ويقال: جزاه جزاء سنمار[1]، فقال الشاعر[2]:

جزاني جزاه الله شرّ جزائه ... جزاء سنمار وما كان ذا ذنب
سوى رَمّهِ البنيان ستين حجّة ... يُعَلّي عليه بالقراميد والسّكْبِ
فلمّا رأى البنيان تمّ سَحوقُه ... وآض كمثلِ الطّودِ ذي الباذخ الصّعْبِ
وظنّ سنمار به كل خيرةٍ ... وفوز لديه بالمودّة والقُربِ
فقال: اقذِفوا بالعلج من فوق رأسه ... فهذا لعمرُ الله من أعجبِ الخَطْبِ

وارتبط اسم قصر الخورنق باسم قصر آخر هو قصر السّدير، وكان السّدير فيما بين الحيرة والشّام، وسمّي السدير لكثرة سواده وشجره من النخيل، له ثلاث قباب متداخلة، وثلاثة أبواب[3]، وورد ذكره في أشعار بعض الجاهليين مقروناً بالخورنق فورد في قول المنخّل[4]:

وإذا صحوت فإنّني ... ربّ الشويهة والبعير
وإذا سكرت فإنّني ... ربّ الخورنق والسّدير

(١) هناك من ينسب قصة نهاية سنمار إلى أُحيحة بن الجُلاّج عندما طلب من سننمار أن يبني له أطم فبناه له، فلمّا كمل وأخبره أنّه فيه حجر إذا زال تقوّض القصر من عند آخره، دفعه أحيحة من الأطم فخرّ ميتاً. (انظر جواد علي: المفصّل في تاريخ العرب، جـ٣، ص٢٠١).

(٢) انظر الطبري: الرسل والملوك، جـ٢، ص٦٦-٦٧ ابن الفقيه: مختصر كتاب البلدان، ص١٦٤-١٦٥.

(٣) ياقوت الحموي: معجم البلدان، جـ٣، ص٢٠١-٢٠٢.

(٤) جواد علي: المفصّل في تاريخ العرب، جـ٣، ص٢٠٣.

وصار عرش الحيرة بعد النعمان إلى ابنه المنذر، وقيل إلى المنذر بن امرى القيس، ويعرف المنذر هذا بالمنذر بن ماء السمّاء، وماء السماء هي أمه سميت لجمالها وحسنها، وخلف المنذر ابنه عمرو الذي نسب إلى أُمه فسمي (عمرو بن هند)، وفي عهده أصبحت الحيرة موئلاً للشعراء يفدون عليها لقول الشعر والحصول على جوائز عمرو بن هند، فكانوا يتنافسون في مجلسه، وإلى أمه هند ينسب دير من أديرة الحيرة يُعرف بدير هند الكبرى.

وتولّى ملك الحيرة إياس بن قبيصة الطائي ولم يكن لخمياً وهو الذي حدثت في عهده معركة ذي قار سنة ٦٠٤م، أو ٦١٠م وكان سببها مطالبة كسرى أبرويز لهانيء ابن قبيصة أحد بني ربيعة بتسليم الودائع التي أودعها النعمان لديه إلى كسرى، فرفض هانيء تسليمها لغير أهلها، فغضب كسرى وأرسل جيوش الفرس مع بعض الجيوش العربية إلى الحيرة لمقاتلة العرب، إلاّ أنّ العرب تجمّعوا وتمكّنوا من الوقوف للفرس وهزموهم هزيمة منكرة في معركة ذي قار التي انتصف فيها العرب من العجم[(١)] .

وكما فعل ملوك الغساسنة الذين ارتبطوا بالرومان، كذلك فعل ملوك الحيرة، فقد ارتبطوا بالفرس واتّخذوهم أحلافاً لهم، فاستعملهم الفرس خطّاً دفاعياً لهم ضدّ القبائل العربية وضد خطر الرومان في الغرب، وكان الفرس والرومان هم الذين غذّوا الروح العدائية واستمرار أسباب الصراع والحروب ما بين عرب الحيرة وعرب الشّام الغساسنة.

وامتدّ نفوذ المناذرة ليشمل معظم بلاد ما بين النهرين، وغرباً إلى بلاد الشام، وجنوباً إلى نجران واليمن، واهتمّ المناذرة بالزراعة والتجارة ساعدهم على ذلك موقع عاصمتهم الحيرة، وتكلّموا اللغة العربية، وكان نظام الحكم عندهم ملكيّاً وراثيّاً.

---

(١) انظر الطبري: الرسل والملوك، جـ٢، ص١٩٣ وما بعدها جواد علي: المفصّل في تاريخ العرب، جـ٣، ص٢٩٣-٢٩٤.

فتح ملوك الحيرة أبوابهم للشعراء العرب، فوفدوا على بلاطهم يمدحون الملوك والأمراء، وكان من بين من وفد على عاصمة ملكهم عمرو بن كلثوم، وطرفة بن العبد، والحارث بن حلّزة اليشكري، والنابغة الذبياني وغيرهم.

وبقيت دولة المناذرة إلى أن قَدِمَ العرب المسلمون باتّجاه العراق وفارس لنشر الإسلام في هذه الديار، وتمّ فتح العراق بعد معركة القادسية سنة ١٥هـ/ ٦٣٦م.

الفصل الثالث

قيام دولة الإسلام الأولى

- محمد صلى الله عليه وسلّم.
- ظهور الرسالة الإسلاميّة.
- دولة الإسلام في المدينة المنوّرة.
- تعامل المسلمين مع اليهود في المدينة وخارجها.

محمد صلّى الله عليه وسلّم

هو محمد بن عبد الله بن عبد المطّلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب ابن مرّة(١)، المبعوث رحمة وهدى للنّاس أجمعين، ينتهي نسبه إلى معد بن عدنان من ولد إسماعيل بن إبراهيم عليهما السّلام، وأُمّه آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة ابن كلاب بن مرّة، فهو من أبوين قُرشيين من أشراف بني هاشم، من رؤوس العرب.

ولد محمد ﷺ في مدينة مكّة يوم الاثنين (١٢) ربيع الأول عام الفيل(٢) ، وهو عام ٥٧٠م، وهو العام الذي غزا فيه إبرهة الأشرم الحبشي بلاد الحجاز.

نشأ محمد ﷺ يتيماً، فقد توفي أبوه عبد الله وهو في بطن أُمّه قبل أن يولد، ثمّ توفيت أُمّه وعمره ست سنوات، فكفله جدّه عبد المطّلب، وكان يحبّه كثيراً ويتوسّم فيه الخير، ثمّ توفي جدّه فكفله عمّه أبو طالب، وكان يرافقه في بعض أسفاره، فخرج به في رحلة تجاريّة إلى الشّام وعمره (١٢) سنة، فلمّا مرّ على بصرى ورآه بحيرا الرّاهب لمح فيه علامات النبوّة، فطلب من عمّه أن يرجع به حتى لا يراه يهود فيتعرّضوا له بالأذى(٣) .

كان النبي عليه الصلاة والسّلام حسن الخَلق والخُلق، اشتهر بالأمانة منذ صغره، وكان على الحنيفيّة، وهي دين إبراهيم عليه السّلام، فكان يخلو بنفسه إلى غار حراء يقضي فيه بعض الليالي يتفكّر بالكون وخالقه.

عَمِلَ منذ صِغرهِ برعاية الأغنام، فكان يرعى أغنام أهله بأجياد، وقيل إنّه كان

---

(١) ابن هشام، عبد الملك (ت٢١٣هـ/٨٢٨م): السيرة النبوية، تحقيق طه عبد الرؤوف سعد، دار الجيل، بيروت، جـ١، ص٨٩ وما بعدها الطبري: الرسل والملوك، جـ٢، ص٢٧١.

(٢) ابن هشام: السيرة النبوية، جـ١، ص٢٩٤ المقدسي، المطهر بن طاهر: البدء والتاريخ، جـ٤، ص١٣٢.

(٣) المقدسي: البدء والتاريخ، ج٤، ص١٣٤؛ المقريزي: إمتاع الإسماع، ج١، ص٧.

يرعاها لأهل مكّة بالقراريط[1]، وحضر حرب الفجّار، كما حضر بعدها وبنفس العام حلف الفضول الذي تضمّن اتّفاق قبائل مكّة على نصرة المظلوم والوقوف معه إلى أن يستعيد حقّه.

عرضت عليه الطاهرة (خديجة بنت خويلد) أن يخرج في تجارة لها إلى الشّام مع غلامها ميسرة، فوافق على ذلك، وكان أميناً في عمله، فربحت تجارة مكّة على يديه أرباحاً وفيرة، فأعجبت به الطاهرة ورغبت في الزواج منه، حيث تزوّجها وعمره (٢٥) سنة، وبقيت زوجة له حتّى توفيت[2]، وكانت أول من آمن بدعوته عندما نزلت عليه الرسالة.

شارك محمد ﷺ في إعادة بناء الكعبة قبل البعثة بحوالي (٥) خمس سنوات، فكان يحمل الحجارة مع قريش في عملية البناء، ولمّا انتهوا إلى حيث يوضع الركن الأسود اختلفوا وخافوا الفرقة، فاتّفقوا على تحكيم أوّل رجل يدخل عليهم إلى البيت من باب شيبة، فكان محمد عليه الصّلاة والسّلام أوّل من دخل عليهم البيت، ورضوا به حكماً، حيث بسط ثوبه ثمّ حمل الركن بنفسه ووضعه في الثّوب، ثمّ طلب من كل ربع من أرباع قريش أن يأخذ بطرف من أطراف الثّوب ويحملوه، ثمّ تناوله ووضعه في مكانه[3].

---

(١) ابن سعد الطبقات الكبرى، ج١، ص١٢٥-١٢٦.

(٢) انظر ابن سعد: الطبقات الكبرى، جـ١، ص١٣١-١٣٢ محمد جمال الدين سرور: قيام الدولة العربية الإسلاميّة، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٥٢م، ص٦٨.

(٣) ابن سعد: الطبقات الكبرى، جـ١، ص١٤٥-١٤٧.

ظهور الرسالة الإسلاميّة

بدأت الدعوة الإسلاميّة عندما أوحى الله سبحانه وتعالى إلى نبيّه محمداً ﷺ في ١٧ رمضان سنة (٦١٠) للميلاد، وكان عمره عليه الصلاة والسلام أربعون عاماً، وكلّفه الله سبحانه وتعالى بالدّعوة إلى الإسلام لقوله عزّ وجلّ: ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ﴾[١]، وقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ۝٤ ﴾[٢].

وبعد أن تيقّن محمد ﷺ أنّ الله سبحانه وتعالى أوحى إليه وكلّفه بدعوة الإسلام، بدأ بدعوة المقرّبين والثّقات، فاستجاب له أبو بكر، وأسلم معه عثمان بن عفّان، والزبير بن العوام، وسعد بن أبي وقّاص، وعبد الرحمن بن عوف، وطلحة بن عبيد الله، وأبي عبيدة، والأرقم بن أبي الأرقم وغيرهم.

وكانت دعوته أوّل الأمر سريّة اتّجهت إلى كل من يثق به ويطمئن إلى إمكانيّة قبوله الدعوة، واستمرّ الحال على ذلك ثلاث سنين، ثمّ أمره الله تعالى بإظهار دعوته، قال تعالى: ﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ۝٩٤ إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ ۝٩٥ ﴾[٣].

استجاب النبي ﷺ لأمر الله تعالى، حيث توجّه إلى الصّفا بظاهر مكّة، ونادى كل بطن من بطون قريش باسمها، فلمّا اجتمعوا إليه أخبرهم أنّ الله تعالى أمره أن ينذر عشيرته الأقربين[٤]، لقوله تعالى: ﴿ وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ۝٢١٤ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٢١٥ فَإِنۡ عَصَوۡكَ فَقُلۡ إِنِّى بَرِىٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ ۝٢١٦ ﴾[٥].

---

(١) سورة العلق: الآيات ١-٢.
(٢) سورة المدثر: الآيات ١-٤.
(٣) سورة الحجر: الآيات ٩٤-٩٥.
(٤) الطبري: الرسل والملوك، جـ٢، ص٣١٨.
(٥) سورة الشعراء: الآيات ٢١٤-٢١٦.

اعترضت قريش على النبي ص وأعرضت عنه، وكان عمّه أبو لهب من أوائل المعترضين عليه، حيث قال: (تباً لك سائر اليوم، ألهذا دعوتنا؟)، فأنزل الله عزّ وجلّ قوله: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾[١].

كانت معارضة قريش شديدة للنبي عليه الصّلاة والسّلام، وحاول رجالها الضغط على عمّه أبي طالب ليكفّ عن دعوته، إلاّ أنّ ذلك كان يزيده ثباتاً على هذه الدعوة، رغم محاولات قريش دفع بعض الأشخاص على القيام بمهاجمة المسلمين وإلحاق الأذي بهم لدفعهم على ترك الإسلام.

واستعانت قريش بأحبار اليهود في مدينة يثرب (المدينة المنوّرة) للردّ على النبي عليه الصلاة والسلام، فطلبوا أن يسألوه عن ثلاثة أمور هي: الفتية الذين ذهبوا في الدهر الأوّل، وعن الرجل الطوّاف، وعن الرّوح، فإن عجز عنها كان كاذباً، وإن أجابها فهو نبي مرسل من الله عزّ وجل[٢].

وسألوا النبي عن هذه الأمور، فلم يجبهم من فوره انتظاراً لأمر الله تعالى، حتى أنزل الله عليه قرآناً يجيب على تساؤلاتهم، فجاء في سورة الكهف: ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾[٣]، كما أجاب فيها عن ذي القرنين بقوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ۝٨٣ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ۝٨٤﴾[٤]، أمّا الرّوح فردّ أمرها إلى الله تعالى الذي أحاط بكل شيءٍ علما، قال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[٥].

---

(١) سورة المسد: الآيات ١-٣.

(٢) ابن هشام: السيرة النبوية، جـ٢، ص١٣٩-١٥١.

(٣) سورة الكهف: الآية ١٣.

(٤) سورة الكهف: الآيات ٨٣-٨٤.

(٥) سورة الإسراء: الآية ٨٥.

وتعرّضت قريش للمسلمين بالأذى والإساءة وصدّهم عن الإسلام، ومحاولة التفريق بينهم، ولمّا ازداد أذاهم للمسلمين أذِنَ الرسول ﷺ للمسلمين بالهجرة إلى الحبشة فراراً بدينهم، فهاجروا إليها مرّتين، ورغم محاولات قريش وتوسّطها عند النجاشي لردّهم إلى مكّة، إلاّ أنّه استقبل المسلمين استقبالاً حسناً وأكرمهم، وتمتّعوا في بلاده بالحماية حتّى عادوا إلى بلادهم[1].

وخرج النبي ﷺ إلى الطائف ينشر فيها دعوته ومعه زيد بن حارثة، وكان يلتمس نصرة ثقيف فهم أخواله، وأقام بها عشرة أيّام يدعو أهلها، لكن دون نتيجة، ثمّ تركها بعد أن أغرى أهلها سفهاءهم بالإساءة إليه، وعاد إلى مكّة مستجيراً بالمطعم بن عديّ فأجاره.

عاد النبي ﷺ إلى نشر دعوة الإسلام في مكّة حتى أُسريَ به إلى المسجد الأقصى المبارك في مدينة القدس، ثمّ عُرِجَ به من هناك إلى سدرة المنتهى في ليلة واحدة، قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[2].

وكانت رحلة الإسراء قبل الهجرة النبويّة بعام[3]، أو عامين، وفرض الله سبحانه وتعالى فيها الصّلاة على المسلمين، فربطت هذه الرحلة بين أقدس بقعتين على الأرض مكّة المكرّمة (المسجد الحرام) والقدس الشريف (المسجد الأقصى المبارك).

---

(١) الطبري: الرسل والملوك، جـ٢، من ص٣٢٩-٣٣١.

(٢) سورة الإسراء: الآية ١.

(٣) ابن سعد: الطبقات الكبرى، جـ١، ص٢١٤.

تنظيمات الرسول ﷺ في المدينة المنوّرة

كان عام ٦٢٢م عام تحوّل جذريّ في تاريخ الدعوة الإسلاميّة، وهو تاريخ الهجرة النبويّة، وكان النبي ﷺ قد هيّأ لذلك بعد دخول عددٍ من أهل يثرب في الإسلام من الأوس والخزرج عن طريق التقائهم بالنبي في مواسم الحج، فبايعوه واتّفقوا معه على أن ينتقل مع أصحابه من المسلمين من مكّة إلى يثرب وذلك في بيعة العقبة الثانية، وتعهّدوا أن يقوموا بحمايته ومن يهاجر من المسلمين، وكانت الهجرة النبوية الشريفة إلى المدينة المنوّرة في الثاني من ربيع الأول[١].

وبعد أن استقرّ النبي ﷺ في المدينة، وهي دار الهجرة، رأى أن يضع نظاماً يضبط علاقة سكّان المدينة بمختلف فئاتهم وأديانهم، فبدأ بتنظيم علاقة المسلمين بعضهم ببعض، فآخى بين المهاجرين والأنصار، ثمّ وضع وثيقة[٢] كانت بمثابة دستور لجميع سكّان المدينة مسلمين وغير مسلمين تضمّنت الأمور التالية[٣]:

١- أنّ المسلمين أمّة واحدة من دون النّاس على اختلاف شعوبهم وقبائلهم.

٢- التعاون والتضامن بين الجماعة الإسلاميّة.

٣- تقرير حريّة الاعتقاد، فلليهود دينهم كما للمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم.

٤- فتح المجال أمام الراغبين من اليهود للدخول في الإسلام، وعندها يكون لهم حقوق المسلمين، وعلى المسلمين نصرهم.

٥- فضّ الخصومات بالعودة إلى الله ورسوله محمد ﷺ.

٦- جميع سكان المدينة مسؤولون عن حمايتها من أي اعتداء، مسلمين وغير مسلمين.

---

(١) انظر الطبري: الرسل والملوك، جـ٢، ص٣٩٢-٣٩٣.

(٢) انظر نصّ الوثيقة في كتاب أكرم ضياء العمري: المجتمع المدني في عهد النبوّة، المدينة المنورة، ١٩٨٣م، ص١١٩-١٢٢.

(٣) محمد سرور: قيام الدولة العربية الإسلامية، ص٩٥-٩٦ سيد عبد العزيز سالم: تاريخ الدولة العربية، ص٣٥٢-٣٥٤.

٧- ألاّ تجار قريش ولا من نصرها.

٨- كل جماعة تنفق على نفسها في حرب الدفاع عن المدينة (على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم).

٩- تقرير حرمة المدينة، أي أنّه يحرّم فيها ما يحرّم في مكّة.

أقام المسلمون في المدينة أكثر من سنة حتى قويت شوكتهم حيث فرض الله سبحانه وتعالى عليهم الجهاد في السنة الثانية للهجرة، قال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾[1]، وبدأ المسلمون بعد ذلك يعدّون أنفسهم للجهاد في سبيل الله، فكانت مغازي رسول الله ﷺ، وكانت أهم هذه المغازي:

١- غزوة الأبواء بعد (١٢) شهراً من الهجرة، وهي أول غزوة غزاها رسول الله ﷺ بنفسه[2].

٢- غزوة بدر الكبرى سنة ٢هـ/ ٦٢٤م.

٣- غزوة أُحد سنة ٣هـ/ ٦٢٥م.

٤- غزوة الأحزاب (الخندق) سنة ٥هـ/ ٦٢٧م.

٥- غزوة بني قريظة سنة ٥هـ/ ٦٢٧م.

٦- غزوة الحديبية سنة ٦هـ/ ٦٢٨م، حيث استنفر رسول الله ﷺ أصحابه لأداء العمرة في هذه السنة، وحدث تفاوض مع قريش انتهى إلى عقد صلح الحديبية الذي تضمّن بنوداً هامة منها:

أ- عودة المسلمين في عامهم من غير عمرة على أن يؤدّوها في العام التالي.

ب- مدّة الصلح عشرة أعوام.

---

(١) سورة الحج: الآية ٣٩.

(٢) ابن سعد: الطبقات الكبرى، جـ٢، ص٨.

ج- من أراد الدخول في حلف محمد ﷺ من القبائل دخل، ومن أراد الدخول في حلف قريش دخل أيضاً.

د- من جاء من الكفار مسلماً ردّوه، ومن جاء الكفار من المسلمين لا يردوّه.

٧- غزوة خيبر سنة ٧هـ/ ٦٢٩م.

٨- غزوة مؤتة سنة ٨هـ/ ٦٣٠م.

٩- فتح مكة سنة ٨هـ/ ٦٣٠م.

١٠- غزوة حنين سنة ٨هـ/ ٦٣٠م.

١١- غزوة تبوك سنة ٩هـ/ ٦٣١م.

وفي السنة العاشرة للهجرة / ٦٣٢م حجّ النبي ﷺ بالنّاس حجّة الوداع، وكانت تسمّى حجّة الإسلام، وهي الحجّة التي سبقت موته بقليل، حيث توفي عليه الصّلاة والسّلام في ١٢ ربيع الأول سنة ١١هـ/ ٦٣٣م.

لقد نظّم الرسول ﷺ حكومة الإسلام في المدينة المنورة بعد أن استقرّ بها، فاتخذ المسجد مقرّاً لحكومته، حيث كان يجلس فيه يلتقي أصحابه، ويستقبل الوفود، ويحكم بين الناس، يفقههم في أمور دينهم[١] ويناقشهم في كل شأن من شؤون حياتهم.

بدأ عليه الصلاة والسلام نظام الإدارة الإسلامية بتعيين العمال في الولايات وأنابهم على المدن والقبائل بهدف تعليم الناس أحكام الشريعة والدين وإقامة الصلاة والقضاء بين الناس، فعيّن عتاب بن أسيد على مكة بعد فتحها وعمره عشرون عاماً، وفرض له راتباً شهرياً قدره ثلاثون درهماً في الشهر فكان أول راتب يخصص للعمال والولاة.

كذلك ولّى عليه الصلاة والسلام الحارث بن نوفل الهاشمي على بعض أعمال

(١) رحيم كاظم الهاشمي وعواطف محمد العربي شنقارو: الحضارة العربية الإسلامية، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ص٢٩.

مكة، وكان له أمراء عيّنهم على المدينة عند خروجه منها، فعيّن سعد بن عبادة عندما خرج في غزوة الأبواء سنة ٢هـ/ ٦٢٤م[١]، وأناب علي بن أبي طالب عندما خرج في غزوة تبوك سنة ٩هـ/ ٦٣١م، وأناب باذان الفارسي على اليمن بعد أن دخل الإسلام وكان ملك اليمن قبل الإسلام، فأبقاه على عمله حتى مات بعد حجة الوداع، وبعث أبا موسى الأشعري إلى زبيد وعدن، وخالد بن الوليد على صنعاء.

اعتمد النبي عدّة أسس عندما كان يختار عماله وولاته، فكان يختار من صحابته من عُرف بالتقوى والعدل والسيرة الحسنة والعلم، وكان يوصي أصحابه عندما يكلفهم ويدعوهم إلى العدل والتسامح واتباع الحق[٢].

وبذلك يمكن بيان الأسس التي كانت عليها دولة الإسلام في المدينة المنورة بعد الهجرة وتشمل:

١- المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، وتنظيم علاقاتهم.

٢- الدفاع عن المدينة المنورة عاصمة الدولة الإسلامية.

٣- بناء المسجد الجامع النبوي، الذي أصبح مؤسسة الدولة والدين، وسبق أن اتخذ المسلمون مسجد قباء، وكان أول مسجد بني في الإسلام[٣].

٤- إقرار الجهاد في سبيل الله تعالى.

٥- تحويل قبلة المسلمين من المسجد الأقصى إلى البيت الحرام سنة ٢هـ/ ٦٢٤م، قال تعالى: ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ﴾[٤].

---

(١) ابن سعد: الطبقات الكبرى، جـ٢، ص٨.

(٢) انظر رحيم كاظم وعواطف شنقارو: الحضارة العربي، ص٣٠.

(٣) ابن هشام: السيرة النبوية، جـ٣، ص٢٢.

(٤) سورة البقرة: الآية ١٤٤.

٦- نشر الإسلام في الجزيرة العربية وخارجها، فكان فتح مكة أول الفتوحات الإسلامية.

٧- إلغاء الأساس القبلي في التعامل، واعتبار رابط العقيدة هو أساس العلاقة بين المسلمين.

٨- تأديب اليهود وإخراجهم من المدينة المنورة وأطرافها.

٩- توجيه الرسل إلى الملوك والأفراد بهدف دعوتهم إلى الإسلام فيما بين سنتي (٧-٨هـ/ ٦٢٨-٦٢٩م) إلى كل من النجاشي وقيصر وكسرى وعبد وجيفر والمقوقس.

١٠- استقبال وفود القبائل العربية التي أقبلت على الدخول في الإسلام.

١١- أداء الرسول ﷺ لحجة الوداع.

تعامل المسلمين مع اليهود في المدينة وخارجها

عندما هاجر الرسول ﷺ إلى المدينة، كان اليهود يشكلون قسماً كبيراً من سكانها، لذلك اهتمّ بتنظيم علاقتهم بالمسلمين، وتحديد دورهم في المشاركة بالدفاع عن المدينة ضدّ الأخطار الخارجية، وجاء ذلك من خلال الصحيفة التي كتبها عليه الصلاة والسلام ووافق عليها يهود المدينة، إلا أن اليهود كعادتهم كانوا ينقضون عهودهم ومواثيقهم، فكانوا يشككون بصحة الدعوة الإسلامية ويثيرون الشبهات حول النبي ﷺ ويحاولون زرع الفتنة بين المسلمين بكل الوسائل المعروفة لديهم[١]، فسألوا النبي عليه الصلاة والسلام مرّة: إذا كان الله قد خلق الخلق، فمن خلق الله؟ فكان ردّ الرسول ﷺ بسورة الإخلاص: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾[٢].

وحاول اليهود إثارة الحقد والكراهية بين المسلمين عن طريق إرسال من يذكّر الأوس والخزرج بيوم بعاث وحروبهم قبل الإسلام، لكن الله ردّ كيدهم، كما حاولوا شنّ حرب نفسية ضد المسلمين في غزوة بدر فأشاعوا أن النبي عليه الصلاة والسلام قُتل وأن المسلمين تعرضوا للهزيمة، إلا أنه سرعان ما بان زيف ادّعائهم، وكشف الله خبثهم[٣]، وتيقّن المسلمون أنه لا يركن لأحدٍ منهم، لذلك أخذ النبي ﷺ ومعه المسلمون بتصفية حسابهم مع كل قبيلة تغدر بالمسلمين من اليهود، أو تنكث بعهدهم لهم.

١- إجلاء بني قينقاع عن المدينة المنورة في ١٥ شوال ٢هـ/ ٦٢٤م:

وكان بنو قينقاع يسكنون داخل المدينة المنورة، وهم من أكثر اليهود تحدياً للمسلمين، فذهبت امرأة مسلمة يوماً إلى سوق الصاغة ومعها حُلي لتبيعها، فسخِر

---

(١) عصام محمد شباور: الدولة العربية الإسلامية الأولى، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٩٥م، ص١٥٧.

(٢) سورة الإخلاص: الآيات ١-٤.

(٣) عصام محمد شباور: الدولة العربية، ص١٦١.

منها أحد اليهود وعبث بثيابها لتظهر عورتها، مما أثار أحد المسلمين فقام بقتله، ثم وثب اليهود على المسلم وقتلوه[1]، فأنذرهم النبي ﷺ بالكفّ عن إيذاء المسلمين، لكنهم تحدّوا المسلمين، فنزل أمر الله بقتالهم، وأمر النبي ﷺ أصحابه بحصار بني قينقاع في دورهم حتى نزلوا على حكمه وأراد قتلهم، ثم توسّط لهم عبد الله بي أبي سلول، فتمّ إجلاءهم عن المدينة المنورة إلى وادي القرى، ثم تركوه ونزلوا أذرعات شمال الحجاز[2].

٢- إجلاء بني النضير في ربيع الأول سنة ٤هـ/ ٦٢٦م:

وكانوا يقيمون على بعد عدّة أميال شمال المدينة، حيث أخذوا بالتعاون مع قريش بعد انتصار المسلمين في غزوة بدر سنة ٢هـ/ ٦٢٤م، ولمّا هاجمت قريش المسلمين في أحد، رفضوا الإشتراك مع المسلمين بحجة أن القتال يدور يوم السبت، وان عهدهم مع المسلمين هو المشاركة في الدفاع داخل المدينة وأحد خارج المدينة، ثم توالت أحداث كثيرة بعد ذلك أهمها محاولتهم الغدر بالرسول ﷺ بإلقاء صخرة عليه من على ظهر جدار وهو جالس في مناسبة إصلاحه، لكن الله سبحانه وتعالى فضح مؤامرتهم وأمر النبي بالعودة إلى المدينة[3].

وأنذر النبي بني النضير بالجلاء عن حصونهم ومزارعهم، ولكنهم رفضوا ذلك بتحريض من عبد الله بن أبي سلول زعيم المنافقين ووعدهم بالنصر، لكنه تخلّى عنهم، فحاصرهم المسلمون وقطعوا نخيلهم وأحرقوا بعض بساتينهم حتى صاروا في وضع حرج، فطلبوا حقن دمائهم مقابل الاستسلام، وسمح لهم بالخروج من غير سلاح فرحل بعضهم إلى خيبر وبعضهم إلى أذرعات[4].

---

(١) الواقدي، المغازي، القاهرة ١٩٤٨م، جـ١، ص١٧٧.

(٢) عصام شباور: الدولة العربية، ص١٦٣.

(٣) ابن سعد: الطبقات الكبرى، جـ٢، ص٥٧.

(٤) الطبري: الرسل والملوك، جـ٢، ص٥٥٤.

٣- القضاء على بني قريظة سنة ٥هـ/ ٦٢٧م:

كان بنو قريظة يقيمون في حصون لهم قرب المدنية المنوّرة، وكانوا قد وادعوا الرسول ﷺ ولم يظهروا له العداوة حتّى السنة الخامسة للهجرة وهي السنة التي حدثت فيها غزوة الأحزاب حيث انقلبوا على المسلمين وتآمروا مع قريش والقبائل العربية الأخرى في غزوة الأحزاب (الخندق)، ولم تنفع محاولات الرسول عليه الصّلاة والسّلام بالحفاظ على عهدهم للمسلمين، حيث قدّموا المساعدة للأحزاب(١).

وبعد انتصار المسلمين في غزوة الأحزاب، سار المسلمون إليهم في ثلاثة آلاف وحاصروا حصونهم وضيّقوا عليهم الخناق حتى طلبوا الخروج من المدينة، فأبى رسول الله ﷺ إلاّ أن ينزلوا على الحكم ويختاروا من شاؤوا لذلك، وذلك بسبب إصرارهم على الغدر في أصعب الظروف التي كان يمرّ بها المسلمون، فاختاروا سعد بن معاذ ليحكم فيهم، فحكم عليهم بقتل الرجال وسبي الذراري والنساء وتقسيم الأموال، فرضي النبي ﷺ بحكمه وقال: (لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سموات)(٢).

٤- إذعان يهود خيبر في محرّم سنة ٧هـ/ ٦٢٩م:

وكان يهود خيبر يقيمون في حصون كثيرة ومنيعة فوق الصخور والجبال إلى الشمال من المدينة المنوّرة، وكان يهود خيبر يشكّلون خطراً كبيراً على المسلمين للأسباب التالية:

أ- إلتجاء أكثر اليهود الذين أجلاهم المسلمون عن المدينة المنورة وما حولها إلى خيبر.

ب- إمكانيّة اتّفاقهم مع الفرس أو الروم بهدف القضاء على المسلمين.

ج- مناعة حصونهم وقوّتها بكثرة رجالها وسلاحها.

---

(١) ابن سعد: الطبقات الكبرى، جـ٢، ص٦٧.

(٢) ابن هشام: السيرة النبوية، جـ٤/ ص١٩٩-٢٠٠.

د- بُعدها عن المدينة المنوّرة، فالوصول إليها يحتاج إلى جهد ومشقّة.

وكان سيّد اليهود في خيبر هو أسير بن رازم يحرّض على قتال المسلمين، فأرسل له المسلمون عدداً من الرجال تمكّنوا من اغتياله، ثمّ جهّز النبي ﷺ جيشاً يزيد على ألف وسبعمائة مقاتل بينهم مائة فارس، وقادهم في محرّم سنة ٧هـ/ ٦٢٩م حتى فاجأ فلاحي خيبر وهم خارجون إلى مزارعهم صباحاً، فولّوا هاربين إلى حصونهم[١]، ونزل المسلمون في وادي الرجيع بين خيبر وغطفان لمنع غطفان من تقديم المساعدة لهم[٢]، فلمّا تقدّمت غطفان لمساعدتهم أسرع النبي ﷺ بإرسال قوّات إسلاميّة للإغارة على منازلهم، فعادت غطفان أدراجها لتحمي أهلها وأموالها.

واتّبع النبي ﷺ فنوناً مختلفة بهدف إضعاف حصون خيبر وإجبارها على الاستسلام، منها أنّه أمر بقطع مئات من أشجار النخيل لإدخال الرعب في نفوسهم، ثمّ قام بحصار حصونهم الواحد تلو الآخر وكلّما سقط حصن أو استسلم انتقل إلى غيره، فدخل حصن ناعم، ثمّ حصن الصعب بن معاذ، فحصن الزبير وهكذا حتى تجمّع اليهود أخيراً في حصني الوطيح والسلالم[٣]، ولمّا أدركوا أنّ نهايتهم قاربت طلبوا حقن دمائهم وأن يقوموا بزراعة الأرض التي كانت لهم مقابل نصف ناتجها، فقبل النبي عليه الصّلاة والسّلام بذلك شريطة أن يكون من حقّ المسلمين إخراجهم متى شاؤوا.

ولمّا رأى يهود فدك ما حصل بخيبر، قبلوا أن يدفعوا نصف ممتلكاتهم دون قتال، فكانت فدك خالصة للنبي ﷺ، فكان ينفق منها على أبناء السبيل، وامتنع يهود وادي القرى، فقاتلهم المسلمون حتى استسلموا، وعوملوا معاملة يهود خيبر، فتركت لهم الأرض والنخيل مقابل النصف، وخمّس رسول الله ﷺ غنائمهم بين المسلمين، وكذلك فعل يهود تيماء ودفعوا الجزية للمسلمين[٤].

---

(١) ابن سعد: الطبقات الكبرى، جـ٢، ص١٠٦.

(٢) ابن هشام: السيرة النبوية، جـ٢، ص٢٩٩.

(٣) الواقدي: المغازي، جـ٣، ص٢٧٦.

(٤) عصام شباور: الدولة العربيّة، ص١٧٤.

الفصل الرابع

ميّزات الحضارة العربيّة الإسلاميّة

- الوحدانيّة.
- التسامح.
- الشُّمول والعالميّة.
- الأصالة.
- التفاعل.

الحضارة العربيّة الإسلاميّة حضارة عالميّة فريدة، اتّصلت بالكثير من الحضارات العالميّة فانتفعت بها، كما سمحت بانتفاع الحضارات الأخرى من منجزاتها ومظاهرها، وقد تميّزت بعدد من المميّزات والخصائص أهمّها:

١ - الوحدانيّة:

دعى الإسلام إلى توحيد الله سبحانه وتعالى وعبادته عبادة خالصة منزّهة عن الإشراك به، فالله هو الواحد الأحد الذي لم يلد ولم يولد وليس له شريك في الملك، قال تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾[(١)].

فالتوحيد هو القاعدة الأولى في الإسلام، والتي يجب أن يؤمن بها قلب المسلم وينطق بها لسانه.

وكلمة التوحيد ترسخ عند قائلها أنّ لا معبود بحقّ إلاّ الله سبحانه وتعالى، وأنّه لا محيي ولا مميت، ولا رازق ولا مانع ولا ضار ولا نافع إلاّ الله، فعلينا أن نتوجّه إليه بقلوب مؤمنة صادقة، فلا نعبد سواه ولا نذلّ ولا نخضع ولا نسجد إلاّ له، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[(٢)].

وكلّ ما في الوجود دال على عظمته ووحدانيته، وكل يسبح له، فالشمس والقمر والأرض والجبال والبحار والنجوم وكل شيء يسبحه ويعبده.

وهذا ما قرّره القرآن الكريم بقول الله عزّ وجلّ: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾[(٣)].

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٦٣.

(٢) سورة الأعراف: الآية ١٩٤.

(٣) سورة الإسراء: الآية ٤٤.

٢- التسامح:

جاء الإسلام على عكس ما كان سائداً آنذاك يدعو إلى عبادة الله بالإقناع والحجّة، ولا يسمح لأحد من المسلمين إلزام النّاس على الدخول في الإسلام وذلك تقريراً لمبدأ إلهي أخلاقي عظيم، قال تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾[١].

وعلى هذا المبدأ سار المسلمون في علاقتهم بأهل الأديان الأخرى وكانوا يبيحون لأهل البلد الذي يفتحونه البقاء على دينهم إذا هم دفعوا الجزية وفوق هذا يقدّمون لهم الحماية من أي اعتداء ولا يمسّون عقائدهم ولا شعائرهم ولا معابدهم.

وفي العهد الذي قطعه عمر بن الخطاب على نفسه لأهل القدس مثلٌ رائع في ذلك، فقد أعطاهم الأمان على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم فلا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا تؤخذ أموالهم ولا يكرهون على دينهم[٢].

فقد منح الإسلام لغير المسلمين حرية أباحت لهم ما لا يبيحه الإسلام لأهله، ومن آثار هذه الحرية الدينية ما رسمه الإسلام من أدب المناقشة الدينية مع أهل الكتاب على أن يكون العقل والمنطق أساس هذه المناقشة وعمادها الإقناع وبالّتي هي أحسن، لقول الله عزّ وجل: ﴿۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾[٣].

أمام هذا عاش أهل الذمّة بين المسلمين لا يعتدي عليهم أحد ولا يسيء لهم أحد، يتزاورون ويتهادون وتحفظ حقوقهم ويسوى بينهم وبين المسلمين في القضاء.

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٥٦.

(٢) انظر الطبري: الرسل والملوك، عفيف طبارة: روح الدين الإسلامي، ص٢٨٢.

(٣) سورة العنكبوت: الآية ٤٦.

٣- الشّمول:

تتميّز الحضارة العربيّة الإسلاميّة بالشمول لأنّها جمعت بين مدنية الإسلام ومدنيّة العرب في الجاهليّة وبين مقتبسات الحضارات والأُمم الأخرى، كالفرس والهنود واليونان والرومان والأقباط وغيرهم، وهي حضارة عالميّة لا تقتصر على شعب أو عرق أو لون، وإنّما تشارك فيها كل الشعوب والأشكال والألوان والأعراق.

لقد بدأ الإسلام يدعو النّاس إلى الإيمان يعلّمهم أحكام دينهم ويعلّمهم القرآن وأحكامه والحديث وعلومه والفقه، ثمّ ينتقل بهم ليتعرّفوا على منجزات الحضارات والأُمم ويطّلعوا عليها، فتمكّن المسلمون من الإفادة من هذه العلوم، وصحّحوا ما فيها من الأخطاء، وأضافوا إليها إضافات كثيرة.

وقد عُنيت حضارة الإسلام بحضارة الإنسان منذ صغره، واهتمّت برعايته في الطفولة والشّباب والهَرَم، ووضع الإسلام القواعد المناسبة لتربيته وتوجيهه نحو الخير ليكون عنصراً نافعاً في الحياة.

ولهذا كان الفرد يتلقّى تعليمه وتأديبه منذ الصّغر فيتعوّد على مكارم الأخلاق في الكتاب والمسجد والمدرسة، ويتمّ الإشراف على سلوكه وتصرّفاته في المجتمع، ويتمّ تعويده على آداب الحديث والجلوس والطعام والشّراب وآداب المسير في الطريق، كما كانت دولة الإسلام تسهر على توفير المأكل والمشرب والملبس للفرد المسلم وتحافظ على حياته وماله وعرضه وحريته سواء أكان مسلماً أم ذمّياً، إن عاش بين المسلمين[1]، فلم يترك الإسلام شيئاً من حياة الفرد والجماعة إلاّ ونظر فيه وشملها برعايته ووازن بين متطلّبات حياته في الدنيا ومستلزمات معاشه وبين ما تقتضيه الحياة الآخرة، فوجّهه إلى الإيمان بالله تعالى وعبادته ليحظى بسعادة الدّارين الأولى والآخرة، قال تعالى: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ﴾[2].

---

(١) ناجي معروف: أصالة الحضارة العربية، ص١٧١-١٧٢.

(٢) سورة الشعراء: الآية ٧٧.

وجاء الإسلام بتشريعاته وقوانينه دون أن يترك أمراً من أُمور الحياة الدّنيا، ولا شأناً من شؤون الآخرة فيرسم سرّ سعادة الإنسان ويملأ كل فراغ يعترض سبيله في الحياة، سواء أكان ذلك بالفروض الدينية، كالصيام والصلاة والزكاة والحجّ والجهاد، أو الاستمرار في أداء الأعمال النافعة التي تخدم الإنسانية كما تخدم صاحبها، كطلب العلم والعمل بالزراعة أو الصناعة أو التجارة أو أي ميدان آخر.

٤- الأصالة:

أصالة الحضارة العربية الإسلاميّة هو الأساس الذي تقوم عليه هذه الحضارة، أي التراث العربي الإسلامي الذي خلفته الأمة العربية الإسلاميّة في عصورها الزاهرة.

وتبدأ أصالة الحضارة العربيّة الإسلاميّة بالفهم الصحيح لكتاب الله تعالى وسنّة رسوله ﷺ، والإحاطة الشاملة بالإسلام عقيدة وعبادة وتشريعاً، ويمكن تمييز جوانب الأصالة في الحضارة العربيّة الإسلاميّة في المجالات التالية:

١- وجود نظم عربيّة متميّزة ومنفردة عن الأنظمة الأخرى تتّصف بشموليتها وتغطيتها لمجالات النشاط الإنساني، وصلاحيّة تطبيقها لكل زمان ومكان، وتتضمّن قواعد لقيام دولة إسلاميّة تحكم بمبادى العدل والشورى، وفيها تنظيمات إدارية وسياسية واقتصادية واجتماعية وفكرية وأخلاقية يصلح أن يسير بموجبها أي مجتمع في أي مكان وأي زمان.

٢- تصحيح أخطاء ونظريّات الأوائل في كثيرٍ من المجالات العلميّة والفلسفيّة، كنظرية الإبصار التي كانت سائدة عند اليونان، حيث قام الحسن بن الهيثم بتصحيحها وإيجاد نظرية صحيحة بديلة عنها، والإضافة إلى كافة فروع المعرفة الإنسانيّة، كالرياضيات والعلوم والطب، واكتشاف طرق علاجية جديدة، وتعليل أسباب كثير من الأمراض، واستحداث أدوات متطوّرة لإجراء العمليات الجراحية، وتصحيح نظرية بطليموس عن الكون، وإضافة الكثير من المعلومات الجغرافيّة والفلكية التي لم تكن معروفة من قبل.

٣- وفي مجال العلوم أيضاً، تمكّن المسلمون من إيجاد علوم عربيّة صرفة لم يقتبسوا شيئاً منها عن أي جماعة كانت مثل علم الجبر، وهو علم عربي صريح يُنسب إلى محمد بن موسى الخوارزمي، كما ابتكروا علوم خاصة بهم هي علوم القرآن والفقه والحديث والكلام وعلوم اللغة والأدب من نحو وصرف وبلاغة وشعر وغيرها.

٤- وفي مجال العمارة، قام العرب ببناء مدن عربية إسلاميّة ذات مواصفات متميّزة كالبصرة والكوفة والقيروان وواسط والفسطاط ومراكش وغيرها، وبنوا فيها المدارس والمساجد الإسلاميّة والقصور والحمّامات والجامعات.

٥- في المجال الفني، كان لهم إنتاج فريد من نوعه بما تركوه في قصورهم ومساجدهم من لوحات فنية رائعة سواء أكانت عن طريق الرسم بالدهان الزّيتي (الفريسكو) الذي انتشر على نطاق واسع كما هو في قصير عمرة في الصحراء الأردنيّة، أو عن طريق الحفر والنحت كما هو في قصر المشتى في الأردن جنوب مدينة عمّان، فقد كانت زخارفه تشتمل على مدرستين فنيتين متميّزتين، أو بالزخرفة بالفسيفساء ذات الأشكال والألوان الرائعة كما في مسجد بني أميّة بمدينة دمشق، ومسجد قبّة الصخرة المشرفة في مدينة القدس، أو في قصر هشام بمدينة أريحا الذي كان يشتمل على أرضيّات فسيفسائية في غاية الإبداع والاتقان.

٦- الأصالة في النظرة الاجتماعية: إذ إنّ الإسلام يتميّز بنظرته الإنسانيّة التي تساوي بين جميع البشر بعيداً عن مظاهر الرق والعبودية والاستغلال، وقد سبق الإسلام جميع المبادى التي دعت إلى الحرية والاستقلال، بل رسم لها جميعاً معالم الطريق في هذا المجال، ومع هذا فقد عجزت جميع المبادى والحضارات أن تصل إلى ما وصل إليه الإسلام من تحقيق العدل والمساواة ومنح الحرية في كل شيء وبصورة منظّمة ودقيقة لا تسمح فيه باغتصاب حرية أحد أو إعطاء أحد حرية على حساب أحد.

٥- التفاعل:

لم تكن الحضارة العربية الإسلاميّة حضارة جامدة ولا حضارة متقوقعة على نفسها، وإنّما كانت حضارة مفتوحة ومتفاعلة مع جميع الحضارات المعاصرة والسابقة، تعطي وتأخذ، فاتّصلت بالحضارتين الهندية والصينية، ودرس علماء العرب والمسلمين علوم الهنود والصينيين فصحّحوا ما وجدوا عن أبناء هاتين الحضارتين، وحدث مثل ذلك عند اتّصالها بالحضارة اليونانيّة فصحّحوا أخطاء بطليموس وإقليدس وغيرهما في المجالات العلمية، وأضافوا إليها وصحّحوا خطأ نظرية الإبصار، بينما كان اتّصالها بالحضارة الأوروبية المتخلفة في العصور الوسطى لتمنح لها مقومات التطوّر والانطلاق، وينقل عنها علماء أوروبا نظريات وعلوم بأكملها ليبنوا عليها ما أهلهم لكي يسبقوا العالم أجمع، ولا يمكن أن تتمّ هذه الحضارة إلاّ إذا كانت على درجة كبيرة من التفاعل والاتّصال بالحضارات الأخرى.

الفصل الخامس

المظهر السياسي للحضارة العربية الإسلاميّة

- الخلافة.
- ولاية العهد.
- الشُورى.
- الوزارة.
- الحجابة.
- الكتابة.

الخلافة

معنى الخلافة ونشأتها:

الخلافة لغةً من خلف، وخلفه يَخْلُف: صار خلفه، وجلست خلف فلان أي بعده، واستخلف فلاناً: جعله مكانه، والخلفُ: الولد الصالح يبقى بعد الإنسان، والخليفة: الذي يستخلف ممّن قبله، والخلافة: الإمارة[١].

والخلافة اصطلاحاً كما عرّفها الماوردي[٢]: هي رئاسة عامّة لأُمور الدنيا والدّين، أو كما عرّفها ابن خلدون[٣]: هي حمل الكافة على مقتضى أحكام النظر الشرعي في مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها، فهي خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا، والخليفة هو السلطان الأعظم للمسلمين الذي تولّى أمرهم بعد الرسول ﷺ، وقال ابن الجوزي: الخلافة نيابة عن الله عزّ وجلّ في عباده وبلاده وتنفيذ أوامره وأحكامه، وكان يقوم بها الأنبياء، ثمّ قام بها بعدهم الخلفاء[٤].

بدأ ظهور وظيفة الخلافة بعد وفاة الرسول ﷺ، فقد توفي عليه الصّلاة والسّلام دون أن ينصّ على شخص بعينه ليكون قائماً بأمر المسلمين من بعده، ونسي بعض النّاس أنّه بشر معرّض للموت كغيره من الرسل السابقين، فلم يصدّقوا خبر موته[٥] حتى حضر أبو بكر، فكشف عن وجه المصطفى ﷺ وقبّل بين عينيه وقال: بأبي أنت وأمي! ما أطيبك حيّاً وما أطيبك ميتاً! ثم خرج إلى النّاس فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: من كان يعبد محمداً فإنّ محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فأنّ الله حيّ لا

---

(١) ابن منظور: لسان العرب، جـ٩، ص٨٣-٨٤، مادة خلف.

(٢) الماوردي: الأحكام السلطانيّة والولايات الدينية، ص٥.

(٣) ابن خلدون: المقدمة، ص١٩١.

(٤) ابو الجوزي: المصباح المضيء في خلافة المستضيء، جـ١، ص٩٣.

(٥) انظر الطبري: الرسل والملوك، جـ٣، ص٢٠٠ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، جـ٢، ص٢١٩.

يموت، ثمّ قرأ قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾(١)، فثاب النّاس إلى رشدهم، إلاّ أنّ مسألة ولاية أمر المسلمين خلفاً للمصطفى عليه الصّلاة والسّلام كانت الأمر الذي شغل النّاس بعد ذلك.

وبدأت تظهر رغبات النّاس في من توليه أمر المسلمين، فالأنصار كانت تميل إلى ترشيح سعد بن عبادة الخزرجي، ورغب بعض بنو هاشم أن يكون الأمر لعلي بن أبي طالب الذي كان مشغولاً بتجهيز النبي ﷺ ودفنه فلم يلتفت للأمر، واجتمع الأنصار في سقيفة بني ساعدة يتشاورن في الأمر فلما وصل خيرهم إلى أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه أسرع ومعه عمر بن الخطاب وأبو عبيدة عامر بن الجراح، فأتى إليهم وسألهم ما يصنعون، فقالوا: منّا أمير ومنكم أمير، فرد عليهم أبو بكر وذكر فضل الأنصار ودورهم ومواقفهم المشرّفة مع رسول الله ﷺ ومع المهاجرين ثم قال: لقد علمتم أن رسول الله قال: لو سلك الناس وادياً وسلكت الأنصار وادياً لسلكت وادي الأنصار، ولقد علمت يا سعد أن رسول الله قال وأنت قاعدٌ: قريش ولاة هذا الأمر، فبرّ الناس تبعٌ لبرّهم، وفاجرهم(٢) تبعٌ لفاجرهم، فقال سعد: صدقت فنحن الوزراء وأنتم الأمراء. فقام عمر بن الخطاب وبايع أبا بكر ثم بايعه أبو عبيدة، ثم بايع الأنصار ومن حضر من المسلمين(٣).

(١) سورة آل عمران: الآية ١٤٤.

(٢) انظر الطبري: الرسل والملوك، جـ٣، ص٢٠١-٢٠٣.

(٣) يذكر بعض الرواة والمؤرخين أنه عندما أكمل أبو بكر كلامه قام رجل من الأنصار هو حباب بن المنذر فقال: أنا جُذَيْلها المُحَكك وعُذَيْقها المُرَجّب منا امير المؤمنين ومنكم أمير يا معشر قريش - وكان يعني بذلك داهيتها وكان هذا مثلاً يضرب لمن يستشفى برأيه وعقله، فالجذيل هو تصغير الجذل وهو أصل الشجر أو عود يكون في وسط مبرك الابل تحتك به وتستريح عليه، والعذيق تصغير عذق وهو النخلة، والمرجب: الذي تبنى إلى جانبه دعامة لكثرة حمله ولعزّة على أهله ويضرب به المثل في الرجل الشريف الذي يعظمه قومه (انظر الجاحظ: البيان والتبيين، جـ٣، ص١٤٧، الطبري: الرسل والملوك، جـ٣، ص٣٠٦، ابن الأثير: الكامل في التاريخ جـ٢، ص٢٢١-٢٢٢، ابن الجوزي: تاريخ عمر بن الخطاب، ص٦٨-٦٩، ابن الكثير: البداية والنهاية، جـ٥، ص٢١٦).

فلما أدرك بعض المسلمين حرج الموقف بادروا إلى حسم الأمر وكانت النتيجة العادلة التي انتهت إلى اختيار أبي بكر الصدّيق لهذه المهمة الصعبة، وكان لعمر بن الخطاب وأبي عبيدة عامر بن الجراح الدور الأكبر في اتخاذ القرار(١)، والحصول على موافقة جميع الأطراف التي رغبت بنيل شرف الخلافة، وكانت هناك عدة أسباب دفعت إلى اختيار أبي بكر الصديق لهذا المنصب منها:

١- أنه صديق رسول الله ﷺ وصاحبه في الهجرة وأول الداخلين في الإسلام.

٢- كبر سنّه، فضلاً عن ورعه وتقواه.

٣- إصرار الرسول ﷺ على اختياره ليؤمّ المسلمين في الصلاة نيابة عنه.

٤- كثرة تجاربه في الجاهلية والإسلام.

وجاء اختياره تأكيداً لمبدأ الشورى، فبويع بالخلافة يوم السقيفة البيعة الخاصة، ثم بويع في اليوم التالي البيعة العامة، وألقى أبو بكر خطبته المشهورة، فرسم للمسلمين من خلالها دستوره الذي سيسوسهم بموجبه بالعدل والحقّ، واعتبر نفسه مسؤولاً أمام الله، وأنّ له عليهم حقّ المشورة والموازرة، وقال فيها: (أطيعوني ما أطعت الله فيكم، فإن عصيت فلا طاعة لي عليكم، القويّ فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحقّ منه، والضعيف فيكم قويّ عندي حتى آخذ الحقّ له)(٢).

ولمّا مرض أبو بكر وأحسّ بدنوّ أجله خشي أن ينقسم المسلمون على أنفسهم من أجل الخلافة، فرآى بثاقب نظره أن يحتاط لذلك بتعيين خلف له، ولكنه رغب ألاّ ينفرد برأيه فاستدعى إليه أصحاب الرأي والمشورة في الأمّة، كعبد الرحمن بن عوف، وعثمان بن عفّان، وأسيد بن حضير، وسعيد بن زيد وغيرهم من المهاجرين والأنصار، فأثنوا جميعاً على عمر بن الخطّاب، فكتب له عهداً بالخلافة جاء فيه: (بسم الله الرحمن الرحيم: هذا ما عهد به أبو بكر خليفة محمد رسول الله عند آخر

---

(١) ابن قتيبة: الإمامة والسياسة، ص٨.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، جـ٢، ص٢٢٤-٢٢٥ ابن كثير: البداية والنهاية، جـ٦، ص٣-٥-٣٠٦.

عهده بالدّنيا، وأول عهده بالآخرة، في الحال التي يؤمن فيها الكافر، ويوقن فيها الفاجر، ويصدق فيها الكاذب، إنّي استعملت عليكم عمر بن الخطّاب، فإن برّ وعدل، فذلك علمي به، وإن جار وبدّل فلا علم لي بالغيب، والخير أردت، ولكل امريٍ ما اكتسب، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلبٍ ينقلبون)[١].

وبعد وفاة أبي بكر سار عمر على سياسة سلفه أبي بكر، فقام بأعمال إصلاحيّة في شؤون المال والإدارة، فكان أوّل من دوّن الدواوين، ورتّب العطاء للمسلمين، واستفاد عمر من النظم البيزنطية والفارسية في البلاد المفتوحة، فترك الدواوين تكتب بلغة أهلها، وبقي ديوان أهل الشام يكتب بالرومية، وديوان العراق بالفارسية وديوان مصر بالقبطية، فلما بُويع عمر سار على نهج أبي بكر، ورسم منهاجاً للمسلمين أساسه الحق والعدل، فكان مثال الرجل المسؤول الذي لا تأخذه لومة لائم[٢].

ولقب أبو بكر خليفة رسول الله، ولقب عمر خليفة خليفة رسول الله ﷺ، ثم أضيف له لقب جديد هو أمير المؤمنين[٣].

وكما فعل أبو بكر فعل عمر إذ فكّر في مسألة الحكم عندما ألحّ عليه المسلمون أن يستخلف، لكنه خاف عاقبة ذلك، وآثر أن يحصر الأمر في ستة من كبار الصحابة، ليختاروا واحداً من بينهم للخلافة، وهم على بن أبي طالب -عثمان بن عفان- طلحة بن عبيد الله- الزبير بن العوام- سعد بن أبي وقاص، وعبد الرحمن بن عوف، وفوّض إليهم التشاور في هذا الأمر[٤].

ورفض عمر أن يعهد بالخلافة لابنه عبد الله حتى لا تستحيل الخلافة إلى ملك وراثي بعده، وجعل ابنه عامل ترجيح في حالة عدم اتفاق أهل الشورى على تولية أحدهم لمنصب الخلافة.

---

(١) محمد بن سعد: الطبقات الكبرى، جـ٣، ص١٩٩ ابن الجوزي: تاريخ عمر بن الخطاب، ص٧٥.
(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، جـ٢، ص٢٩٣.
(٣) ابن الجورزي: تاريخ عمر بن الخطاب، ص٧٧.
(٤) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، جـ٤، ص٢٢٨.

وبعد وفاته تداول أهل الشورى موضوع الخلافة ثلاثة أيام وانتهى الأمر إلى اختيار عثمان بن عفان، فبايعه عبد الرحمن بن عوف[١]، ثم بايعه المسلمون ومن بينهم علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، وكانت بيعته في آخر ذي الحجة سنة ٢٣هـ/ ٦٤٤م.

لقد بدأ عثمان بن عفان عهده بخطوات تستهدف تحقيق المزيد من السيطرة على عمال الولايات، وقد نجح عثمان في السنوات الأولى من حكمه، إلا أن الأمر لم يستمر، فقد استاء منه رجال الأقاليم، وغضب عليه كثير من المهاجرين والأنصار لإهماله شأنهم بعد أن أشركهم في الشورى، وأسند المناصب إلى من هم دونهم سناً وكفاية، وبالرغم من أن عثمان اشتهر بورعه وتقواه، وامتاز بالحلم والتواضع إلا أنه لم يستطيع أن يحكم الدولة العربية بعد أن تغيرت أحوالها، واتسعت أملاكها، وكثرت أموالها، وزادت مطامع رجالها وشهواتهم، فغلب عثمان على أمره، وذهب ضحيّة المؤامرة المدبرة التي أحيكت ضده من أصحاب المصالح الذين تستروا بالإسلام، فبذروا أسباب الفرقة والنزاع في الصف الإسلامي، وانتهى الأمر بمحاصرة عثمان في بيته وقتله[٢]، وبعد الفتنة التي أودت بمقتله اجتمع الصحابة من المهاجرين والأنصار، وهرعوا إلى علي بن أبي طالب يريدون توليته، ورغم تردده أول الأمر، إلا أنه لم يجد بدّاً من قبول الخلافة، فبايعه المسلمون ومن بينهم طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام[٣].

ومع أن انتخاب الخلفاء الراشدين كان انتخاباً غير منظمٍ، فقد سادته فكرة الشورى التي تتمشى مع الروح العربية وتبعد كل البعد عن النظام الوراثي.

وكانت سلطة الخلفاء الراشدين مطلقة، فلم يكن هناك حدود مرسومة تحدد واجباتهم بالضبط، باستثناء الشرع ورضى الأمة.

---

(١) انظر الطبري، الرسل والملوك، جـ٤، ص٢٢٧-٢٣٣.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، جـ٣، ص٧٧-٩٠.

(٣) الطبري: الرسل والملوك، جـ٤، ص٤٢٧-٤٢٨، ابن الأثير: الكامل في التاريخ، جـ٣، ص٩٨.

الخلافة في العهد الأموي

لقد أسهمت عدة عوامل في وصول الأمويين إلى منصب الخلافة، أهمها مقتل الإمام على بن أب طالب كرم الله وجهه، وموقف ابنه الحسن المسالم لبني أميّة، فقد آثر حقن دماء المسلمين، وكان يكره الحرب ويشفق على المسلمين من الفتن الدامية، ولم يكن يثق بأهل الكوفة بعد أن خذلوا أباه في صفين[١] ، لذلك بدأ التفاوض مع الأمويين وانتهى الأمر بتنازله عن الخلافة لمعاوية بن أبي سفيان في سنة ٤١هـ/ ٦٦٠م[٢] فسمي ذلك العام بعام الجماعة.

بدأ معاوية بن أبي سفيان عهده بنقل عاصمة ملكه إلى دمشق، وأحاط نفسه بالحرس والحجاب[٣]، وتلقب بلقب الملك مع استمرار تسميته (أمير المؤمنين)، واتخذ لنفسه الدور والقصور، وتمتع بمظاهر الأبهة والسلطان التي تمتع بها قياصرة الروم وأكاسرة الفرس.

وكان معاوية بن أبي سفيان أول من ادخل مبدأ الوراثة في نظام الخلافة بعد أن كان يعتمد على الشورى ويستند إلى الدين، عندما أقدم على أخذ البيعة بولاية العهد لابنه يزيد[٤]، بعد أن طلب من عماله تمهيد السبيل لذلك، واستعمل كل وسائل الدهاء والحيلة من أجل مبايعة يزيد[٥]، وكان أخذ في إعداده لهذا الأمر وأرسله للمشاركة في حروب الثغور.

وكتب إلى عماله بتقريظه ومدحه ليزيل ما ألصقه به أعداء الأمويين من صفات الخلاعة وشرب الخمر وإيواء المغنين، ثم أخذ له البيعة بنفسه من وفود الأمصار[٦].

---

(١) انظر ابن الجوزي: المصباح المضيء في خلافة المستضيء، جـ١، ص٣٦٩.
(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، جـ٢، ص٢٠٣-٢٠٤.
(٣) اليعقوبي: التاريخ، جـ٢، ص٢٧١.
(٤) اليعقوبي: التاريخ، جـ٢، ص٢٥٦.
(٥) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، جـ٢، ص٢٤٩ وما بعدها.
(٦) انظر ابن قتيبة: الإمامة والسياسة، ص٢٦٣، ابن الأثير: الكامل في التاريخ، جـ٢، ص٢٥٠، صبحي صالح: النظم الإسلامية، ص ٢٦٨.

وبعد ا تولى يزيد الخلافة سنة ٦٠هـ/ ٦٨٠م شرع في أخذ بيعة أولئك النفر الذين امتنعوا عن بيعته في عهد أبيه وهم الحسين بن علي سبط رسول الله ﷺ وعبد الله بن عمر وابن العباس، أمّا الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير فقد امتنعا عن مبايعته[1] (١٨٥)، وكتب أهل الكوفة إلى الحسين يطلبون إليه الخروج إلى العراق لمبايعته فاستمع إلى كلامهم وخرج، إلا أنه تعرّض لصدام غير متكافيء مع قوات الأمويين في موقعة كربلاء، في العاشر من محرم سنة ٦١هـ/ ٦٨١م، فقتل هو ومن معه من أهل البيت[2]، وكان مقتله سبباً في إذكاء التشييع وازدياد العداء بينهم وبين بني أميّة.

ابتدأ حبل الأمن بالاضطراب في خلافة هشام بن عبد الملك ثم ازدادت الأحول سوءاً في عهد يزيد بن الوليد وإبراهيم بن الوليد الذي لم يلبث أن خلعه مروان بن محمد حيث قتله ونكّل بأنصاره فاشتعلت نار العصبية بين القبائل المضرية واليمانية، وساءت أحول الخلافة كثيراً بسبب الفتن والقلاقل وثورات الخوارج، فسهّل ذلك من مهمة الدعوة العباسية التي تمكنت من تقويض أركان الدولة الاموية بعد هزيمة مروان بن محمد في معركة الزاب سنة ١٣٢هـ/ ٧٥٠م[3].

---

(١) انظر الطبري: الرسل والموك، جـ٥، ص٣٣٩-٣٤٣. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، جـ٣، ص٢٦٣-٢٦٤.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، جـ٣، ص٢٧٩-٢٩٦، وانظر محمد محاسنة: صفحات من تاريخ آل البيت، ص١٠١-١٠٢، صبحي صالح: النظم الإسلامية، ص٢٦٨.

(٣) المسعودي: مروج الذهب، جـ٣، ص٢٧١، وابن الاثير: الكامل في الرايخ، جـ٣، ص٣٢٧-٣٢٨.

الخلافة في العصر العباسي

ظهرت الدعوة العباسية في عهد مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية، وانكشف أمر الدعوة لمروان، فقبض على إبراهيم بن محمد بن علي العباسي إمام هذه الدعوة فسجنه وقتله، وقد أوصى إبراهيم الإمام بالإمامة لأخيه أبي العباس، وكانت خراسان مركز الدعوة العباسية، أمّا مقرّ الدعوة الذي يصدر الأوامر والتوجيهات فكان في الحميمة جنوب الأردن[١].

وقام بهذه الدعوة عدد من الدعاة الذين تحملوا مسؤولية العمل والتنفيذ، وبينهم عدد لا بأس به من الفرس على رأسهم أبو مسلم الخراساني، لذلك قال عنها البعض بأنها دعوة فارسية وقامت على أكتاف فارسية دون أن يعودوا إلى المصادر الأصلية للتعرف على حملة لواء هذه الدعوة وقادتها، وكم شارك فيها من الفرس حتى يقال بأنها دعوة فارسية، على أن هذا لا يعني الإنتقاص من الدور الهام والمشاركة الفاعلة التي قامت بها بعض الشخصيات الفارسية[٢] اضافة إلى أن بلادهم كانت المسرح الفعلي لنشاط هذه الدعوة، ونقطة لإنطلاق الجيوش التي شكلت جيوش الدعوة العباسيّة.

واستطاعت هذه الدعوة مواجهة الدولة الأموية وتقويض أركانها بعد أن تمكنت من هزيمة مروان الثاني في موقعة الزاب، وبذلك انتقل الحكم إلى العباسيين، وتولى أبو العباس السفاح الخلافة سنة ١٣٢هـ/ ٧٥٠م[٣].

وأشرك العباسيون الأعاجم (الفرس) في السلطة، فأشغلوا مناصب حساسة وكان

---

(١) الطبري: الرسل والملوك، جـ٣، ص٤٢١-٤٢٢، المسعودي: مروج الذهب، جـ٣، ص٢٧٠، ياقوت الحموي: معجم البلدان، جـ٢، ص٣٠٧.

(٢) الطبري: الرسل والملوك، جـ٧، ص٣٥٣-٣٦٣، ٤١٧-٤٢٨، المسعودي: مروج الذهب، جـ٣، ص٢٦٤-٢٦٥، ابن الأثير: الكامل في التاريخ، جـ٤، ص٢٩٩-٣٠٢، ٣٢٢-٣٢٧.

(٣) المسعودي: مروج الذهب، جـ٣، ص٢٧٧-٢٧٨، ابن الأثير: الكامل في التارايخ، جـ ٤، ص٣٢٢-٣٢٣.

=

أول وزير للعباسيين من الفرس وهو أبو سلمة الخلاّل[1]، وتأثروا بهم، فغلبت على خلفائهم النزعة الإستبدادية، وأصبحت الخلافة العباسية ملكاً وراثياً تماماً، وتجاهل العباسيون مسألة السن، فعهدوا بالخلافة إلى أشخاص لم يبلغوا سن الرشد، كما حدث عندما عهد الرشيد إلى ابنه الأمين وعمره خمس سنوات، وإلى ابنه المأمون وعمره ١٣ سنة، اضافة إلى انهم كانوا يسندونها إلى اكثر من واحد كما فعل كل من المهدي والرشيد والمتوكل[2].

وقرّب بعض الخلفاء إليهم الأتراك، وجندوا منهم فرقاً عسكرية، فكان لذلك اسوأ الأثر على نظام الخلافة، حيث بدأوا يتدخلون في شؤون الدولة، حتى في اختيار الخلفاء وتعيينهم وعزلهم في بعض الاحيان، وظهر تدخلهم واضحاً بعد وفاة الواثق بن المعتصم سنة ٢٣٢هـ/٨٤٧م الذي لم يعهد لأحد من بعده بولاية العهد، فتجاوز الاتراك ابنه وبايعوا أخاه المتوكل[3]، وبعد مقتل المتوكل زاد عبثهم بشؤون الخلافة واعتدوا على بعضهم، وسملوا عيون بعضهم ليكون بالامكان عزلهم عن منصب الخلافة[4].

ومن اجل التخلص من سيطرة القادة الاترك أرسل الخليفة الراضي إلى محمد بن رائق أمير واسط والبصرة، وأغراه بمنصب جديد هو إمرة الأمراء مقابل إنهاء سيطرة القادة الأتراك، وكان هذا المنصب سياسياً وعسكرياً، فتقلّد ابن رائق الإمارة ورئاسة الجيش، وفوض إليه الخليفة تدبير المملكة، وأن يُخطب له على جميع المنابر[5]، وامتدت فترة أمير الأمراء فيما بين ٣٢٤-٣٣٤هـ/ ٩٣٥-٩٤٥م.

---

(١) المسعودي: مروج الذهب، جـ٣، ص٢٩٨.

(٢) انظر الطبري: الرسل والملوك، جـ٩، ص١٧٥-١٨٠، المسعودي: مروج الذهب، جـ٣، ص٣٨٦-٣٨٧، ابن الاثير: الكامل في التاريخ، جـ٥، ص ١١٢-١١٣، صبحي الصالح: النظم الإسلامية، ص٢٧٠.

(٣) انظر الطبري: الرسل والملوك، جـ٩، ص١٥٤-١٥٥.

(٤) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، جـ٥، ص٢٣٧ وما بعدها، الذهبي: دول الإسلام ص١٧٧.

(٥) انظر السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص٣٩٢.

وفي سنة ٣٣٤هـ/ ٩٤٥م دخل المعزّ البويهي بغداد على رأس جيش أعجمي، وأنشأ إمارة وراثية، وأبقى الخلافة العباسية بعد أن انتزع منها السلطة التنفيذية، وشارك البويهيون الخليفة العباسي في مظاهر السلطان، فكان يذكر اسم الأمير على المنابر مع اسم الخليفة، وينقش اسمه على السكة، ولم يبق للخليفة غير بعض الجوانب الدينية من حيث تعيين القضاة والوعاظ وأئمة المساجد والقائمين بالشؤون الدينية.

وكان البويهيون من غلاة الشيعة لا يعترفون بحق العباسيين في الحكم حتى أن معزّ الدولة فكّر بإقامة خلافة علوية، لكنه عدل عن ذلك بناءً على نصيحة الصيمري[١]، وتلقب البويهيون بألقاب الملك والسلطان، وتسمّوا بأسماء منها صمصام الدولة وعضد الدولة، ومعزّ الدولة، وبهاء الدولة... إلخ.

وكثرت الفتن والإضطرابات، فاستعان الخليفة القائم بطغرلبك مؤسس الدولة السلجوقية، فدخل بغداد سنة ٤٤٧هـ/ ١٠٥٥م، وقضى على البويهيين واستأثر السلاجقة بالسلطة، وأقيمت علاقات طيبة بين الخليفة العباسي والسلاجقة، وارتبطوا برباط المصاهرة، حيث تزوج طغرلبك من ابنة الخليفة القائم، كما زوّج القائم ابنه المقتدي من ابنة السلطان ألب أرسلان، ثم تزوج الخليفة المستظهر ابنة السلطان ملكشاة، وتزوج المقتفي من ابنه محمد بن ملكشاة.

ومع ذلك حدثت خلافات بين العباسيين والسلاجقة، فانتزعوا من الخليفة المسترشد بردة الرسول عليه الصلاة والسلام، ولقب ملكشاة نفسه (أمير المؤمنين)، فحاول الخليفة استعادة النفوذ العباسي بالقوة، لكنه وقع في أسر السلطان السلجوقي مسعود، وانقضّت عليه طائفة من الباطنية وهو في خيمته وقتلوه، وسلك الراشد ساسة أبيه، فوثب عليه الخراسانية في أصفهان وقتلوه.

وفي أواخر العصر العباسي تعرّضت دولة الخلافة الإسلامية لغزو المغول، ودخل هولاكو بغداد، فأسر آخر خلفاء بني العباس وقتله سنة ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م، فكانت هذه نهاية الخلافة العباسية في المشرق الإسلامي.

---

(١) الهمذاني: تكملة تاريخ الطبري، ص٣٥٤ وما بعدها، فاروق عمر: النظم الإسلامية، ص٣٢.

الخلافة الإسلامية في المغرب والأندلس

لم يقتصر قيام الخلافة على المشرق الإسلامي، وإنما ظهرت في المغرب خلافة جديدة هي الخلافة الفاطمية[١] سنة ٢٩٧هـ/ ٩٠٩م، ثم انتقلت إلى مصر في عهد المعز لدين الله الفاطمي سنة ٣٦٢هـ/ ٩٧٢م.

وينتسب الفاطميون إلى فاطمة بنت الرسول ﷺ، وكانوا يقصرون الخلافة على أبناء فاطمة من علي ابن أبي طالب دون غيرهم، وأوجبوا على الإمام أن يعين اسم ولي العهد قبل موته، لهذا قالوا بأن علياً أوصى للحسن، والحسن أوصى للحسين والحسين أوصى لعلي زين العابدين وهكذا، وأعدّ جوهر الصقلي لنقل الخلافة الفاطمية من إفريقية إلى مصر، فبنى مدينة القاهرة، واسس الجامع الازهر، ثم أرسل إلى المعز بالقدوم إلى مصر، ودخل المعز إلى مدينة القاهرة سنة ٣٦٢هـ/ ٩٧٢م[٢].

وبسط الفاطميون نفوذهم إلى آسيا الصغرى شمالاً، وإلى بلاد النوبة جنوباً، واستمرت الدولة الفاطمية قائمة حتى خلع صلاح الدين العاضد لدين الله سنة ٥٦٧هـ/ ١١٧١م)[٣]، واقيمت الدعوة العباسية بمصر.

وتمكن عبد الرحمن الناصر أن يتلقب بلقب الخلافة في الأندلس سنة ٣١٦هـ/٩٢٨م، ولقب بأمير المؤمنين[٤]، فصار هنالك ثلاث خلافات إسلامية هي الخلافة العباسية في بغداد والخلافة الفاطمية في بلاد المغرب، والخلافة الأموية في الأندلس، وكان الخليفة الأموي في الأندلس يمثل رئيس الحكومة وقاضيها الأعلى وقائد الجيش، ويتمتع بالسلطتين الدينية والدنيوية.

---

(١) انظر السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص٥٢٤، حيث يسمي الدلوة الفاطمية بالدولة الخبيثة العبيدية، وأن أول من أقامها بالنغرب عبيد الله المهدي.

(٢) الهمذاني: تكملة تاريخ الطبري، ص٤٢٩-٤٣٠، انظر ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ٢، ص١٠٢-١٠٣.

(٣) السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص٥٢٥.

(٤) انظر السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص٥٢٣.

إلا أن الخلافة في كل من المغرب والأندلس لم تتمتع بنفس النفوذ الذي تمتعت به الخلافة الإسلامية في المشرق، ولم تجد الأنصار والأعوان الذين يعملون على حمايتها، فالبرغم من قيام الخلافة الفاطمية في المغرب إلا أن تأثيرهم على المغرب لم يكن بدرجة كبيرة، واستمرت المذاهب السنيّة السائدة في تلك المناطق إضافة إلى المذهب الاباضي الخارجي المعتدل.

وكان يتم اختيار أشخاص من ذوي الكفاءة والمقدرة لتولي خلافة المسلمين ووضع الفقهاء مجموعة من الشروط الواجب توفرها فيمن يتولى هذا المنصب منها[١]:

١- العدل والاستقامة.

٢- العلم بأحكام الشريعة الإسلامية.

٣- سلامة الحواس والأعضاء.

٤- الرأي المفضي إلى سياسة الرعية وتدبير المصالح.

٥- الشجاعة والنجدة المؤدية إلى حماية البيضة وجهاد العدو.

٦- النسب القرشي.

وقبل البحث في هذه الشروط لا بد أن يكون من تجتمع فيه هذه الصفات مسلماً ذكراً، لأنه لا يجوز أن يلي أمر المسلمين واحد من غيرهم، ولا يقبل المسلمون أن تتولى أمرهم امرأة على مبدأ: (ما أفلح قوم قط ولّوا أمرهم امرأة).

وإذا انعقدت الخلافة لرجل من المسلمين صار على المسلمين له حق الطاعة امتثالاً لقول الله سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ﴾[٢]، ولا يجوز عزله إلا لواحد من الأسباب التالية:

١- الكفر أو الإرتداد عن الإسلام.

---

(١) الماوردي: الاحكام السلطانية، ص٦، ابن خلدون: العبر، جـ١، ص١٩٢-١٩٥.

(٢) سورة النساء: الآية ٥٩.

٢- الأسر وموالاة العدو.

٣- إصابته بعاهة عقلية كالجنون.

٤- فقدان الأعضاء إذا كانت تمنعه عن القيام بالواجبات.

وتنعقد الإمامة من وجهين: أحدهما باختيار أهل العقد والحل، والثاني بعهد من الإمام الذي سبقه، ويرى الماوردي أنه لا يجوز أن يكون للأمة إمامان في وقت واحد(١).

وكان رئيس الدولة الإسلامية يحمل ألقاباً اختلفت من وقت إلى آخر، فلقب أبو بكر الصديق بلقب خليفة رسول الله ﷺ، وهو لفظ قرآني ورد في عدة آيات منه قوله تعالى: ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾(٢).

ولقب عمر ابن الخطاب بلقب أمير المؤمنين وكان المسلمون يطلقون هذا اللقب على قادة البعوث وعلى من يقود جماعة من المسلمين في الغزو أو الحج(٣).

أما لقب إمام الذي ورد ذكره في القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿ ۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾(٤)، فتعني الشخص الذي يؤتمّ به ويقتدى بعمله في نظام معين وارتبط هذا اللفظ بالصلاة لأن الناس يقتدون بالإمام في الصلاة، وأطلق هذا اللقب على رئيس الدولة الإسلامية الذي يعتبر إماماً للمسلمين في الصلاة، وحاكماً لهم في كافة المجالات الدينية والدنيوية(٥).

وللشيعة نظرية خاصة في موضوع الإمامة فهي ترى أن الإمامة ليست من المصالح العامة التي تفوّض إلى نظر الأمة، وإنما ركن الدين وقاعدة الإسلام فلا

---

(١) الماوردي: الأحكام السلطانية: ، ص٩.

(٢) سورة ص: الآية ٣٦.

(٣) انظر صبحي الصالح: النظم الإسلامية، ص٢٨٩.

(٤) سورة البقر: الآية ١٢٤.

(٥) الماوردي: الأحكام السلطانية: ص٥ وما بعدها، ابن خلدون: العبر: جـ١، ص١٩٠ وما بعدها.

يجوز تفويضها إلى الأمة، ويجب على النبي تعيين الإمام، وهم يعتبرون الإمام معصوماً عن الكبائر والصغائر، فقد نص النبي عليه السلام على إمامة علي ويستشهدون بنصوص مؤولة من الكتاب والسنة.

ولاية العهد

وهو نظام استحدثه معاوية بن أبي سفيان في الدولة الإسلامية، ولم يكن له وجود قبل ذلك حيث يقوم الخليفة باختيار رجل من المسلمين ويأخذ له البيعة من الناس ليتولى خلافة المسلمين بعد موته.

وكان المغيرة بن شعبة هو الذ ي أشار على معاوية بولاية العهد فاستحسنها معاوية، ورغم ظهور حزب معارض لهذه البيعة على رأسه عبد الرحمن بن أبي بكر والحسين بن علي بن أبي طالب وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر بن الخطاب والأحنف بن قيس، إلا أن معاوية استطاع بمساعدة ولاته وأعوانه أن يأخذ له البيعة من الولايات الإسلامية[1]، وبذلك يكون وضع حجر الأساس لإرساء النظام الوراثي في الحكم بدلاً من مبدأ الشورى الذي كان أساس الاختيار عند المسلمين.

وكان المسلمون يشترطون أربعة شروط حتى تكون ولاية العهد صحيحة هي:

١- قبول ولي العهد ورضاه.

٢- حضور ولي العهد للبيعة وإلا فلا تصحّ بيعته.

٣- أن يكون ولي العهد بالغاً عندما يعهد إليه، فلا تصح ولاية الصغير أو الفاسق.

٤- أن تتوفر فيه شروط الخلافة لأنه سيتولى أمر المسلمين خلافة لمن عهد إليه،

---

(١) انظر حول هذا الموضوع ابن خلدون: العبر، ص٢١٠ وما بعدها.

واستخلف بنو أمية عدة أشخاص لولاية العهد، فسليمان بن عبد الملك عهد لعمر بن عبد العزيز ولأخيه يزيد على التوالي، وكذلك عهد الرشيد لأبنائه الأمين والمأمون والمعتصم وأجاز بعض العلماء ذلك استناداً إلى ما فعله الرسول ﷺ عندما استخلف على جيش مؤتة زيد بن حارثة، فإن أصيب فجعفر بن أبي طالب، فإن أصيب فعبد الله ابن رواحة، فإن أصيب فليرتض المسلمون رجلاً منهم[١].

وكان لنظام ولاية العهد في العصر العباسي وإعطائه أكثر من واحد أثر في إضعاف الخلافة العباسية، وظهور المنازعات بين أفراد الأسرة العباسية، مما أدى إلى أن تحاك المؤامرات والمكائد داخل قصور الخلافة، وفتح المجال للعناصر الأجنبية لتلعب دورها في هذه المؤامرات والسيطرة على الخلفاء لوقوفها إلى جانبهم، كوقوف البرامكة إلى جانب الرشيد في نزاعه مع أخيه الهادي[٢]، ووقوف الفضل بن الربيع مع الأمين والفضل بن سهل مع المأمون في النزاع الذي دار بين الأخوين بعد وفاة أبيهما[٣]، وقادت إلى سيطرة بعض العناصر الأجنبية على الحكم وإنفصال كثير من الأقاليم عن الدولة العباسية مما زاد في ضعفها بمرور الوقت وتسهيل مهمة الغزاة المغول (التتار) في دخول بغداد والقضاء على الخلافة العباسية سنة ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م.

---

(١) الماوردي: الأحكام السلطانية، ص١٥.

(٢) انظر الطبري: الرسل والملوك، جـ٨، ص٢٠٧-٢١٢، ابن الاثير: الكامل في التاريخ، جـ٥، ص٧٧-٧٨، توفيق اليوزبكي: دراسات في النظم العربية، ص٥٩.

(٣) انظر الطبري: الرسل والملوك، جـ٨، ص٣٦٥-٣٨٧، ابن الاثير: الكامل في التاريخ، جـ٥، ص١٣٤-١٤٠، محب الدين بن الشحنة: روض المناظر في علم الأوئل والأواخر، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٩٧م، ص ١٤٥-١٤٦.

الشورى

ورد لفظ الشورى في القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾[1]، وفي قوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾[2]، والشورى هي التداول في الأمر، وإبداء الرأي فيه وتغليب الأرجح والأحسن.

وكان العرب قبل الإسلام يميلون إلى التشاور في أمورهم، ويعمدون إلى المفاوضات والتحكيم في بعض مشاكلهم فيسعون إلى الصلح وفض المنازعات عند حدوث المنافسات وعند التسابق إلى حماية (اللطائم) وهي القوافل التجارية بين الحجاز والعراق، فيجتمع الناس من مختلف القبائل فيتحاورون ويصطلحون أو يتواعدون على الإلتقاء في مكان معين وزمان معين.

وكانت قريش تجتمع في دار الندوة للمشورة وإبرام الأمور[3]، وسميت الندوة لأنهم كانوا يتندون فيها للخير والشر، ويتباحثون شؤون الحرب والسلم.

وعندما ظهر الإسلام كانت حياة المصطفى عليه الصلاة والسلام نموذجاً لتطبيق مبدأ الشورى، فكان لا يقطع في أمر حتى يأخذ برأي الصحابة ويستشيرهم في ذلك إمتثالاً لأمر الله تعالى ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾.

فعندما نزل المسلمون على أول ماء من بدر استعداداً لحرب قريش، جاء الحباب بن المنذر بن الجموح إلى رسول الله ﷺ، وسأله: هل أنزلك الله هذا المنزل ليس لنا أن نتقدمه أو نتأخر عنه؟ أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ فردّ عليه الصلاة والسلام: بل هو الرأي والحرب والمكيدة، فقال له: يا رسول الله: انهض بالناس حتى تأتي

(١) الشورى: الآية ٣٨.
(٢) آل عمران: الآية ١٥٩.
(٣) الأزرقي: أخبار مكة، جـ٢، ص١٠٩، محمد محاسنة: صفحات من تاريخ آل البيت ص٥١.

أدنى ماء القوم فتنزله، ثم نغوّر ما وراءه من القُلُب، ثم نبني عليه حوضاً، فنملؤه ماءً، ثم نقاتل القوم، فنشرب ولا يشربون، فقال له الرسول عليه الصلاة والسلام: لقد أشرت بالرأي، فنهض بمن معه من المسلمين حتى أتى أدنى ماءٍ وبُني حوض عليه ومُليء بالماء وردمت القُلُب الأخرى حتى لا يستفيد منها العدو(١).

وشاور الرسول ﷺ المسلمين قبل أن يخرج إلى غزوة أحد وأخذ برأيهم، وشاورهم عندما تجمّع الأحزاب للقضاء على المسلمين، فأشاروا عليه بحفر الخندق حول المدينة وأخذ بمشورتهم أيضاً.

كما تظهر الشورى بعد وفاة الرسول ﷺ بين المسلمين في أمور كثيرة منها: بيعة أبي بكر الصديق ليكون خليفة في سقيفة بني ساعدة(٢)، وفي اجتماع كبار الصحابة للبحث في أمر الردّة وقتال المرتدين، وفي تأميم الأراضي المفتوحة كأرض السواد التي حبسها عمر بن الخطاب على مصالح المسلمين وجعلها ملكاً للأمّة وليس ملكاً للأفراد(٣)، وفي اختيار الخليفة من بين الصحابة الستة الذين عيّنهم عمر ليكون الخليفة من بينهم(٤)، وفي فرض العطاء للمسلمين في خلافة عمر بن الخطّاب عندما دوّن الدواوين(٥).

وأحاط عمر بن عبد العزيز نفسه بمجموعة من خيار أهل المدينة وجعلهم أهل مشورته، حيث كان يأخذ آراءهم في الأحوال التي تعترضه قبل أن يقدم على أمر من الأمور.

ومن تتبّع تاريخ المسلمين تجد أنّهم كانوا يسمحون بحريّة الرأي والتعبير،

---

(١) عبد السلام هارون: تهذيب سيرة ابن هشام، ص١١٥، ابن الكثير: البداية والنهاية، جـ٣، ص٢٦٦-٢٦٧.

(٢) الطبري: الرسل والملوك، جـ٣، ص٢٠١-٢٠٣، ابن الاثير: الكامل في التاريخ، جـ٢، ص٢٢١-٢٢٢.

(٣) أبو يوسف: الخراج، ص٣٥، ابن الجوزي: تاريخ عمر بن الخطاب، ص١١٣-١١٤.

(٤) الطبري: الرسل والملوك، جـ٣، ص٢٢٧-٢٣٩ ابن الجوزي: تاريخ عمر بن الخطاب، ص٢٤٩.

(٥) البلاذري: فتوح البلدان، ص٤٣٥.

والأخذ بالنزعة الديمقراطيّة، فأبو بكر الصّديق قال في أول خطبة له بعد أن تولّى الخلافة: (إنّي وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوّموني)[١]، وقال عمر ابن الخطّاب وهو خليفة: (من رآى منكم فيّ اعوجاجاً فليقوّمه)، فقام إليه أعرابي وقال له: (لو رأينا فيك اعوجاجاً لقوّمناه بسيوفنا)، وذكر ابن الجوزي أنّه كان بين عمر بن الخطاب وبين رجل كلام في شيء فقال له الرجل: اتّق الله يا أمير المؤمنين، فقال له رجل من القوم: أتقول لأمير المؤمنين اتقّ الله؟! فقال له عمر: دَعه فليقلها لي، نِعْمَ ما قال، ثم قال عمر: لا خير فيكم إذا لم تقولوها، ولا خير فينا إذا لم نقبلها منكم[٢].

والإسلام يجد في الشّورى اطّلاع على آراء الجماعة، وقدرة على تمييز أفضل الآراء التي ستخدم مصالح المسلمين، وتنير لهم طريق العمل.

الوزارة

الوزارة لغة من الوَزَرُ وهو الملجأ، والوَزَر: الجبل المنيع، والوَزَرُ في كلام العرب: الجبل الذي يُلتجأ إليه[٣]، قال تعالى: ﴿ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴾[٤]، والوِزْرُ: الحِملُ الثقيل، والوِزر: الذنب لثقله، والأوزار: السلاح، قال الأعشى:

وأعـددتُ للحـرب أوزارهـا ... رمـاحـاً طـوالاً وخيـلاً ذكـورا

والوزارة كلمة مشتقّة من الوِزْرُ وهو الثقل لأنّ الوزير يحمل أعباء الحكومة، أو من الوزَرَ وهو الملجأ لأنّ الملك أو الخليفة يلجأ إلى رأي الوزير ومشورته، أو من الأزر وهو الظهر، أو الوَزَرَ وهو المعتصم[٥]، فالخليفة يقوى ويستند إلى وزيره كما

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، جـ٢، ص٢٢٤.
(٢) ابن الجوزي: تاريخ عمر بن الخطاب، ص١٧٦.
(٣) ابن منظور: لسان العرب، جـ٥، ص٢٨٢/ مادة وزر.
(٤) سورة القيامة: الآية ١١.
(٥) انظر أبو يعلي: الأحكام السلطانية، ص١٣.

يستند البدن إلى الظهر، والوزير هو مستشار الخليفة ومعاونه، أو نائب مفوّض يحكم باسم الخليفة.

ويعيد المستشرقون اللفظ إلى الفارسيّة للشبه بينها وبين كلمة (فيشير) أي القاضي أو الحكم، إلاّ أنّ هذا مرفوض لأنّ القرآن الكريم فصل في ذلك، فقد وردت في القرآن في عدّة مواضع في خطاب موسى لربّه، قال تعالى: ﴿وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ۝٢٩ هَٰرُونَ أَخِي ۝٣٠ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي ۝٣١ وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي ۝٣٢﴾[1]، وقال أيضاً: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا﴾[2].

وكان الرسول ص يستشير أصحابه ويسألهم رأيهم في المشاكل الخاصة والعامة لا سيما أبا بكر، لذلك سمّى بعض النّاس أبا بكر وزير النبي، وبهذا المفهوم كان عمر وزيراً لأبي بكر، فكان يوزّع الزكاة على مستحقيها، ويقضي بين الناس بأمر الخليفة.

كما كان علي وعثمان وزيران لعمر، فكان علي يكتب الرسائل وينظر في شؤون الأسرى، وعثمان مستشاراً لبعض الأمور ذات الطابع القبلي لمعرفته بأحوال القبائل وأنسابها[3].

وبذات المفهوم كان لخلفاء بني أميّة وزراء، فكان لا بُدّ للخليفة أن يستشير بعض ذوي الرأي ليحملوا عنه بعض الأعباء، إلاّ أنّهم لم يصطلحوا على تسميتهم بالوزراء باستثناء زياد بن أبيه الذي لقّبه بعض النّاس بالوزير في خلافة معاوية بن أبي سفيان[4].

ولم تظهر الوزارة كوظيفة رسمية في الدولة الإسلاميّة إلاّ في عهد بني العبّاس، وجعل الفقهاء لمن يتقلّد الوزارة شروطاً هي شروط الإمامة باستثناء النسب القرشي، وأضافوا إلى ذلك شرط الكفاية والمعرفة بأمر الحرب والخراج، لأنّه قد يباشرهما

---

(١) سورة طه: الآيات ٢٩-٣٢.

(٢) سورة الفرقان: الآية ٣٥.

(٣) انظر صبحي الصالح: النظم الإسلامية، ص٢٩٥.

(٤) انظر اليعقوبي: التاريخ، جـ٢، ص٢٥٩ صبحي الصالح: النظم الإسلامية، ص٢٩٦.

بنفسه أو ينيب عنه من هو أهل لذلك(١).

وفي العصر العباسي اتّخذ العباسيون الوزراء ومنحوهم هذه الألقاب، وكان أبو سلمة الخلال أول وزير عبّاسي، ولقّب (وزير آل محمد)، وأقرّه أبو العباس على منصبه وتسميته، وكان للوزير صلاحيّات واسعة في الإشراف على الدواوين ممّا أدّى إلى وقوع التصادم بين سلطتي الخليفة والوزير، فلجأ بعض الخلفاء إلى تقليص سلطة الوزراء، فأبو جعفر المنصور لم يتّخذ وزيراً بصورة دائمة، وكان أكثر وزرائه من الموالي لحذقهم في الكتابة، ومهارتهم في التنظيمات الإدارية(٢).

وفي عهد الرشيد بلغت الوزارة حدّاً كبيراً من القوة، فاستوزر يحيى بن خالد البرمكي وفوّضه جميع أنواع السلطة والإشراف على الدواوين، فقرّب يحيى البرامكة، وخوّلهم الإشراف على عيار السكّة في دور الضرب لتحديد مقدار المعادن الثمينة في المسكوكات لا سيما الذهب والفضة، وسيطروا على الوظائف وخزائن الأموال، وتخوّف الرشيد من اتّساع سطوتهم وسلطانهم وتأثيرهم على عامة النّاس، فعمل للقضاء عليهم، ونكبهم سنة ١٨٧هـ/ ٨٠٣م(٣).

وأطلق المأمون يد الفضل بن سهل في الأمور السياسية، وفوّض إليه شؤون الحرب والإدارة، وأطلق عليه اسم (ذو الرياستين)، وعندما شكّ المأمون بخطره أعدّ له من قتله(٤).

وضعف مركز الوزارة في عهد نفوذ الأتراك بانتقال السلطات الفعلية إلى الجيش وألغي منصب الوزارة في بعض الأحيان، فعندما دخل البويهيون بغداد سنة ٣٣٤هـ/ ٩٤٥م قام مقامه كاتب الأمير البويهي، وأصبحت الوزارة في الفترة البويهية ذات

---

(١) الماوردي: الأحكام السلطانية، ص٢٥.

(٢) ابن الطقطقي: الفخري في الآداب السلطانية، ص١٥٧-١٥٩.

(٣) انظر الجهشياري: الوزراء والكتّاب، ص١٧٨ المسعودي: مروج الذهب، جـ٣، ص٤٠٢-٤٠٣ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، جـ٥، ص١١٤ وما بعدها.

(٤) ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ٤، ص٤١-٤٤.

صفة عسكرية، فصار للوزير قيادة الجيش وتوجيهه إلى المواقع الحربية، واتّخذ عضد الدولة البويهي وزيرين أحدهما مسيحي[1]، واشتهرت الأُسر الفارسية بتولي منصب الوزارة مثل البرامكة وبني سهل وبني طاهر وبني الفرات وبني الجرّاح، وازداد التنافس على منصب الوزارة فأحدث ذلك فتناً كثيرة.

وعرفت مصر الوزارة في العصر الفاطمي، إلاّ أنّ المعزّ لدين الله، بدأ تسميتها بالوساطة، لأنّ صاحبها كان يتوسّط بين الخليفة والرعيّة[2]، ولم يظهر لقب وزير إلاّ في خلافة العزيز بالله سنة ٣٦٨هـ/٩٧٨م، فكان يعقوب بن كلس أول وزراء الفاطميين[3]، وكان الوزير يقوم بنشر الدعوة للفاطميين وإدارة شؤون الدولة الحربية والمدنية، وأصبحت الوزارة وراثية في بعض العائلات كعائلة أمير الجيوش بدر الجمالي[4]، وفي أواخر العصر الفاطمي تنازع الوزراء فيما بينهم، وأدّى ذلك إلى اضمحلال الدولة الفاطمية التي تمّ القضاء عليها بقدوم صلاح الدين الأيوبي إلى مصر سنة ٥٦٧هـ/ ١١٧١م[5].

واستحدث المماليك منصب وزير الصحبة، وكان يصحب السلطان في حروبه وأسفاره، بينما تكون مهمة الوزير الأصلي القيام بأمور الدولة ومهام الحكم نيابة عن السلطان.

وأنف الأمويون بالأندلس من تسمية الوزير، فقسّموا خطته أصنافاً وجعلوا لكل صنف وزيراً، فجعلوا لحسبان المال وزيراً، وللنظر في حوائج المتظلّمين وزيراً، وللنظر في أحوال أهل الثغور وزيراً، وجعلوا له بيتاً يجلس فيه لتنفيذ أمر السلطان[6]، وكان الوزير يصل إلى منصبه عندهم عن طريق الرشوة ودفع المال،

---

(١) أبو علي: الأحكام السلطانية، ص١٦.
(٢) ابن الطوير: نزهة المقلتين، ص١٠٥ أيمن فؤاد سيد: الدولة الفاطمية في مصر، ص٢٥١.
(٣) ابن الصيرفي: الإشارة إلى من نال الوزارة، ص٤٧ ابن الطوير: نزعة المقلتين، ص١٠٥.
(٤) ابن الصيرفي: الإشارة إلى من نال الوزارة، ص٩٤ وما بعدها.
(٥) ابن الطوير: نزهة المقلتين، ص٤٧/ المقدمة أيمن فؤاد سيد: الدولة الفاطمية، ص٢٣٩ وما بعدها.
(٦) ابن خلدون: العبر، جـ١، ص٢٣٩.

فبعد وفاة الصاحب بن عبّاد وقعت مساومة، حول منصب الوزارة بين أحد الولاة ووزير سابق، فدفع أحدهما ثمانية ملايين درهم لضمانها، ودفع الآخر ستة ملايين على إقراره عليها، فأشرك السلطان الاثنين في الوزارة، وسامح كلاً منهما بألفي درهم، وجلسا معاً على منصب الوزارة.

وكانت الوزارة عند العباسيين على قسمين هما:

١- **وزارة التفويض**: وتجمع بين كفايتي السيف والقلم، وتقوم على تصرّف الوزير المطلق في شؤون الدولة، بعد أن يكون الخليفة بنفسه فوّض إليه ذلك[١]، ويكون الوزير من أهل العلم والعدالة، سليم الحواس والأعضاء، شجاعاً مسلماً حراً ذكراً صاحب كفاية وخبرة في شؤون الحرب والمال، وتشمل مهام وزير التفويض الأمور التالية:

- تعيين الموظفين وعزلهم.
- جباية الأموال وإنفاقها.
- تسيير الجيوش للحرب.
- الجلوس للنظر في المظالم.

٢- **وزارة التنفيذ**: ولا يكون لصاحبها تدبير الأمور باجتهاده، وإنّما يقتصر عمله على تنفيذ أوامر الخليفة والتزام آرائه، فيكون الوزير واسطة بين الخليفة والرعية[٢]، فيقوم بتقليد الولاة وتجهيز الجيوش إذا كلّفه الخليفة بذلك، ويصغي لظلامات الرعيّة، فإذا قدر عليها فصل فيها، وإلاّ أعادها إلى الخليفة، ولا يشترط فيه أن يكون حرّاً ولا عالماً، وقد يكون من أهل الذمّة، ولكن يشترط فيه أن يكون رجلاً صادقاً أميناً قليل الطمع حتى لا يرتشي، وألاّ يكون من أهل الأهواء، بل من أهل التجربة والحنكة والتدبير.

---

(١) انظر الماوردي: الأحكام السلطانية، ص٢٨.

(٢) الماوردي: الأحكام السلطانية، ص٢٩.

ويمكن تمييز أربعة فروق بين وزارتي التفويض والتنفيذ هي[1]:

١- يجوز لوزير التفويض مباشرة الحكم والنظر في المظالم، ولا يجوز ذلك لوزير التنفيذ.

٢- يجوز لوزير التفويض أن يستبد برأيه في تقليد الولاة، ولا يجوز ذلك لوزير التنفيذ.

٣- من حقّ وزير التفويض أن ينفرد بتسيير الجيوش وتدبير الحرب ووضع الخطط العسكرية، ولا يحق ذلك لوزير التنفيذ.

٤- إنّ من حقّ وزير التفويض التصرّف في بيت المال بالدفع والقبض، وليس ذلك من حق وزير التنفيذ.

الحجابة

الحجاب لغة الستر، وحجب الشيء يحجبه حجباً: ستره، وامرأة محجوبة: قد سترت، والحاجب: البوّاب، وحجبه منعه من الدخول، وحجابة الكعبة: سدانتها وتولّي حفظها، وحجابها هم الذين بأديهم مفاتيحها، وحاجب الشمس: ناحية منها، لقول الشاعر:

تراءت لنا كالشمس تحت غمامة   بدا حاجب منها وظنّت بحاجب

وفي حديث الصلاة (حتّى توارت بالحجاب): حين غابت الشمس في الأُفق واستترت به، فالحجاب: الأُفق[2].

واصطلاحاً الحجابة هي منع الناس من الدخول إلى الخليفة، أو تنظيم مقابلة المراجعين للخليفة وترتيبهم في الدخول إليه لحماية الخليفة من الأخطار وتلافياً

---

(١) انظر أبو يعلي: الأحكام السلطانية، ص١٦ صبحي الصالح: النظم الإسلامية، ص٣٠٢-٣٠٣.

(٢) ابن منظور: لسان العرب، جـ١، ص٢٩٨-٢٩٩ / مادة حجب.

لازدحام الناس على الأبواب، ويقول ابن خلدون إنّ الحجابة في الدولتين الأموية والعباسية هي لمن يحجب السلطان عن العامة بإغلاق بابه دونهم أو فتحه لهم في مواقيته. أمّا في الدولة الأموية بالأندلس فهي لمن يحجب السلطان عن الخاصة والعامة ويكون واسطة بينه وبين الوزارة ومن دونهم، فكانت منصباً رفيعاً، ثمّ تطوّر الأمر لتكون من المراتب العليا فمن حصل على لقبها لا يتركه لأنّهم يعدونه شرفاً لهم[1].

في صدر الإسلام لم يمنع الخلفاء الراشدون أحداً من الدخول إليهم، بل كانوا يخاطبون الناس على اختلاف فئاتهم ومراتبهم بلا حجاب ليلاً ونهاراً، فلا يوجد ما يحول بين الخلفاء والناس في أي مكان أو زمان.

وبدأ اتخاذ الحجاب في العصر الأموي زمن الخليفة معاوية بن أبي سفيان، وكان لحادثة الخوارج التي أطاحت بحياة الخليفة علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه أكبر الأثر في اتخاذ الحجاب، حيث بدأ معاوية بن أبي سفيان يتخوّف على نفسه من شرّ الناس[2] وإمكانيّة اعتدائهم عليه كما حصل لعلي قبله.

إلاّ أنّ بني أميّة كانوا يؤكّدون على حجابهم ألاّ يحجبوا عنهم ثلاثة أشخاص في أي وقت كان، هم مؤذّن الصّلاة، وصاحب البريد، وصاحب الطعام، ويظهر ذلك من حديث عبد الملك بن مروان لحاجبه حيث قال له: (قد وليتك حجابة بابي إلاّ عن ثلاثة: المؤذّن للصلاة فإنّه داعي الله، وصاحب البريد فأمر ما جاء به، وصاحب الطعام لئلاّ يفسد)[3].

ولم يقتصر اتّخاذ الحجاب على الخلفاء في المشرق الإسلامي وإنّما تعدّى ذلك إلى الولاة والأمراء، ويظهر ذلك من وصية عبد الملك بن مروان لأخيه عبد العزيز والي مصر حيث يقول له[4]: (أبسط بشرك وألِنْ كنفك، وآثر الرفق في الأُمور فإنّه

---

(١) ابن خلدون: العبر، جـ١، ص٢٤٠.

(٢) اليعقوبي: التاريخ، جـ٢، ص٢٧١.

(٣) ابن خلدون: العبر، جـ١، ص٢٢٠ علي إبراهيم حسن: التاريخ الإسلامي، ص٥٢٧.

(٤) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، جـ٤، ص١٠٢.

أبلغ ببابك، وانظر حاجبك فليكن من خير أهلك، فإنّه وجهك ولسانك، ولا يقفنّ أحد ببابك إلاّ أعلمك مكانه لتكون أنت الذي تأذن له أو تردّه).

واقتدى الخلفاء العباسيون بخلفاء بني أميّة في اتخاذ الحاجب، وزادوا في منع النّاس من لقاء الخليفة إلاّ في الأمور الهامة، وصار بين الناس وبين الخليفة حاجزان أو داران هما: دار الخاصة ودار العامة، وكان الخليفة يقابل كل طائفة بحسب حالاتها وظروفها في مكان معيّن في إحدى هاتين الدارين وتبعاً لإدارة الحجاب على أبوابها، ثمّ أضاف العباسيون حاجباً ثالثاً ليحجب السلطان عن العامة والعامة عن السلطان، فأحاط هذا الحاجب نفسه بهالة من الإجلال وقوي نفوذه وسلطانه حتى أصبح مستشار الخليفة في جميع الشؤون المهمة[١]، ونافس الحجاب الأقوياء بعض الوزراء في صلاحياتهم، فيذكر مسكويه أنّ محمد بن ياقوت غلب على تدبير الأمور بنظره في جباية الأموال، وحضور أصحاب الدواوين مجلسه وتفرّده بكل ما يعمل الوزراء[٢]، بل إنّ بعض الحجاب تدخّلوا في بعض الأمور التي أدّت إلى الإيقاع بين الخلفاء وأصحاب المناصب الأخرى، فالفضل بن الربيع هو الذي أوقع بالبرامكة عند الرشيد.

وأصبحت الحجابة عند الفاطميين من الوظائف المهمّة، وكان الحاجب يعرف باسم (صاحب الباب)، وعرفت الحجابة باسم (الوزارة الصغرى)[٣]، وكان لا يشغل هذه الوظيفة إلاّ موظف كبير ولا يستطيع أحد مقابلة الخليفة إلاّ بإذنه، وكان صاحبها ينظر في المظالم، فإذا كانت الوزارة رتبة عسكرية فإنّ الوزير هو الذي ينظر في المظالم ويكون صاحب الباب من جملة موظّفيه[٤].

---

(١) صبحي الصالح: النظم الإسلامية، ص٣٠٧ حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلامي السياسي، جـ٤، ص٣٣٥.

(٢) مسكوية: تجارب الأمم، جـ٢، ص٨٢ صبحي الصالح: النظم الإسلاميّة، ص٣٠٧.

(٣) انظر ابن الطوير: نزهة المقلتين، ص١٢٢ القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٣، ص٣٧٩ عطية مصطفى مشرفة: نظم الحكم بمصر في عصر الفاطميين، ص٩٥.

(٤) ابن الطوير: نزهة المقلتين، ص١٢٢ عطية مشرفة: نظم الحكم، ص٩٥.

واتّخذ بنو حفص في أفريقية الحجّاب، إلاّ أنّ مهمّتهم اختلفت بعض الشيء عن مهمّة الحاجب في بقية البلاد الإسلامية، فكان عمله عندهم هو الإشراف على قصر السلطان، والنظر في أمور الطعام والكساء والعطاء، وفي بعض الأحيان يقوم بختم السجلات الرسمية، بالإضافة إلى وظيفته كحاجب، ثمّ جمعوا له وظيفة السيف والحرب والرأي والمشورة فصار الحاجب أهم المراتب وأعلاها[1].

الكتابة

ظهرت الحاجة إلى الكتابة في حياة الرسول ﷺ وذلك لتدوين الآيات القرآنيّة الشريفة، وأطلق على من كان يقوم بهذا العمل اسم كتّاب الوحي، وكان بعض هؤلاء الكتّاب يحرّرون الكتب التي كان يبعث بها عليه الصّلاة والسّلام إلى الملوك والأمراء، وكثر عدد الكتّاب فبلغ اثنين وأربعين كاتباً، وتوزّعت اختصاصاتهم على النحو التالي[2]:

١- كتّاب الوحي: وكانوا يقومون بتدوين آيات القرآن الكريم، ومنهم علي بن أبي طالب، وعثمان بن عفان، وأبيّ بن كعب، وزيد بن ثابت[3].

٢- كتّاب أموال الصدقات: وقام بها الزبير بن العوّام، وجهم بن الصّلت.

٣- كتّاب المداينات والمعاملات بين النّاس: وقام بها المغيرة بن شعبة، والحصين ابن نمير.

٤- كتّاب المغانم: وقام بها معيقيب بن أبي فاطمة، وكعب بن عمر بن زيد.

---

(١) ابن خلدون: العبر، جـ١، ص٢٤١.

(٢) انظر ابن كثير: البداية والنهاية، جـ٥، ص٢٩٥ وما بعدها.

(٣) الطبري: الرسل والملوك، جـ٣، ص١٧٣ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، جـ٢، ص٢١٣ ابن كثير: البداية والنهاية، جـ٥، ص٢٩٥.

٥- كاتب الردّ على الملوك: وقام بهذه المهمّة عبد الله بن الأرقم[١].

٦- كتّاب الترجمة عن اللغات المختلفة: وأهمّهم زيد بن ثابت[٢].

وكان حنظلة بن الربيع وهو من الكتّاب المشهورين يحتفظ بخاتم النبي ﷺ، ويخلف كل كاتب يغيب عن عمله، وفي عهد الخلفاء الراشدين زادت الحاجة إلى الكتّاب بسبب الأعباء الضخمة في دواوين الدولة، وأصبح الكتّاب موظّفين يشرفون على الدواوين، ويختار الخلفاء كتّابهم ممّن يجيدون الخط، وممّن يعبّرون عن رأيهم بأبلغ العبارات.

ولما انتقلت الخلافة إلى بني أميّة تعدّد الكتّاب لتعدد مصالح الدولة، وأشار بعض الخلفاء إلى أهميّة الكتّاب، ويظهر ذلك واضحاً في خطاب عبد الملك بن مروان لأخيه عبد العزيز حين وجهه إلى مصر عندما قال: (تفقّد كاتبك وحاجبك وجليسك، فإنّ الغائب يخبّره عنك كاتبك، والمتوسّم يعرّفك بحاجبك، والداخل عليك يعرّفك بجليسك)[٣].

واشتهر من الكتّاب في عهدهم زياد بن أبيه كاتب أبي موسى الأشعري، وسالم كاتب هشام بن عبد الملك، وفوّضه هشام بالكتابة نيابة عنه إلى الولاة في الشؤون المختلفة، وقام بنقل بعض رسائل أرسطو من اليونانية إلى العربية، وله مجموعة رسائل في مائة ورقة[٤]، وعبد الحميد الكاتب كاتب مروان بن محمد، وتتلمذ على سالم كاتب هشام، وهو من أشهر وأبلغ كتّاب العصر الأموي، حتّى قيل بإنّ (الرسائل فتحت بعبد الحميد وختمت بابن العميد)، وعبد الحميد هو أول من أطال الرسائل واستعمل التحميدات في فصول الكتب، وقتل مع مروان بن محمد سنة ١٣٢هـ/ ٧٥٠م[٥].

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية، جـ٥، ص٣٠٣.

(٢) ن.م: جـ٥، ص٣٠٠-٣٠١.

(٣) ابن قتيبة: عيون الأخيار، جـ١، ص١٠٣.

(٤) ابن النديم: الفهرست، ص١٧١ حسين كساسبة: المؤسسات الإدارية في مركز الخلافة العباسية، ص١٥٥.

(٥) انظر ابن خلّكان: وفيات الأعيان، جـ٣، ص٢٢٨-٢٣١.

وفي العصر العباسي كثرت الدواوين وتعدّدت، وتطوّرت معها الكتابة، وكان أشهر الكتّاب هو كاتب الرسائل، وكان الكاتب يصدر السجلات مطلقة ويكتب في آخرها اسمه ويختم عليها بخاتم السلطان، وهو طابع منقوش فيه اسم السلطان أو شارتُه[1]، ويشترط فيه أن يتمتّع بمقدرة لغوية وأدبيّة، وصاحب دراية واطّلاع دائم، فطناً، بارعاً، بليغاً، وشهد العصر العباسي عدداً كبيراً من كتّاب الرسائل المشاهير منهم محمد بن عبدالملك الزيّات كاتب المعتصم[2]، والحسن بن وهب الذي تولّى ديوان الرسائل في خلافة المعتصم أيضاً[3].

وراعى العباسيون أن يكون كاتب الخراج على معرفة بالشؤون المالية والحسابية، وخبيراً بشؤون الري وحفر القنوات والترع والجسور والنواعير[4]، ومن مشاهير كتّاب الخراج خالد بن برمك الذي تولّى ديوان الخراج في عهد أبي العبّاس[5]، والحسن بن سهل كاتب المأمون.

وكان مع القضاة كتّاب يسجلون الأحكام والمرافعات والدعاوي، واشترط فيمن يتولّى هذه الوظيفة أن يكون عارفاً بالحلال والحرام، وصاحب ثقافة إسلاميّة واسعة، وأن يكون عادلاً عاقلاً مسلماً أميناً عفيفاً بعيداً عن الطمع، منزّهاً عن قبول الرشوة.

وأصبح للكتابة أهميّة خاصة في العصر العباسي، وكان الكاتب يترقّى في منصبه فرتبته لا تقل أهمية عن رتبة الوزير، وأُعطي صلاحيات واسعة، وكان يقوم بإذاعة المراسيم والبراءات وتحرير الرسائل السياسية.

وفي مصر كان للكاتب مرتبة خاصة في عهد بني طولون، فاتّخذ ابن طولون (كاتب السّر) وهو بمثابة سكرتير خاص له. أما كاتب الإنشاء فكان يحرّر له الكتب

---

(١) ابن خلدون: العبر، جـ١، ص٢٤٦.

(٢) ابن النديم: الفهرست، ص١٧٧، ابن خلكان: وفيات الاعيان، جـ٥، ص١٠١، حسين كساسبة: المؤسسات الإدارية، ص١٦٣.

(٣) ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ٢، ص٤١٥.

(٤) ابن قتيبة: عيون الاخبار، جـ١، ص٤١٥.

(٥) الجشيلري: الوزراء والكتّاب، ص٨٩.

التي يرسلها إلى الملوك والأمراء، ويتقاضى راتباً شهرياً مقداره (١٥٠) ديناراً، والكتّاب الذين معه ثلاثون ديناراً في الشهر.

وفي العصر الفاطمي كان بمصر كاتب يتولّى الإشراف على ديوان الرسائل الذي أصبح يُعرف بديوان الإنشاء[١]، وكان يتولاه رجل من أجلّ كتّاب البلاغة ويلقّب بلقب (كاتب الدست)[٢]، أو (الشيخ الأجلّ).

وبالإضافة إلى كاتب الدست، فقد عرفت عند الفاطميين وظيفتان كتابيتان هما[٣]:

١- صاحب القلم الدقيق: وكانت وظيفته مجالسة الخليفة ومذاكرته فيما يحتاج إليه من كتّاب الله وأحاديث المصطفى ﷺ وأخبار الأنبياء والخلفاء وسير الأوّلين والتوقيع على المظالم.

٢- صاحب القلم الجليل: ووظيفته استلام رقاع المظالم من صاحب القلم الدقيق ووضعها في الصيغة القانونيّة قبل عرضها على الخليفة للتصديق عليها.

واشتهر من كتّاب العصر الفاطمي جوهر الصقلي، وابن منجب الصيرفي الذي وضع كتاباً حدّد فيه شروط ومميّزات من يتولّى ديوان الإنشاء هو (القانون في ديوان الرسائل)[٤]، والأسعد بن مماتي صاحب كتاب (قوانين الدواوين).

وفي أيّام المماليك تصدّر صاحب ديوان الإنشاء مكانة هامة بين موظّفي الدولة، وكان يشرف على الديوان طبقتين من الكتّاب هما:

١- كتّاب الدست: وكانوا يجلسون إلى السلطان ويقرؤون له السير والقصص، فكانت وظيفة هؤلاء الكتّاب تقابل وظيفة صاحب القلم الدقيق عند الفاطميين.

---

(١) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ١، ص١٠٣.
(٢) ابن الطوير: نزهة المقلتين، ص٨٧ القلقشندي: صبح الأعشى، جـ١، ص١٠٢.
(٣) ابن الطوير: نزهة المقلتين، ص٨٧-٩٠.
(٤) انظر ابن الصيرفي: القانون في ديوان الرسائل.

٢- كتّاب الدّرَج: وهم كتّاب ديوان الرسائل وسمّوا كذلك لأنّهم كانوا يكتبون الرسائل والمنشورات على ورق مستطيل مركّب من عدّة أوصال.

واشتهر من كتّاب الدواوين في العصر المملوكي عددٍ كبيرٍ كان في طليعتهم ابن فضل الله العمري صاحب كتاب (مسالك الأبصار في ممالك الأعمار)، والنويري صاحب كتاب (نهاية الأرب في فنون الأدب)، والقلقشندي صاحب كتاب (صبح الأعشى في صناعة الإنشا) وغيرهم.

الفصل السادس

المظهر الإداري للحضارة العربية الإسلاميّة

- مقدّمة.
- الإمارة على البلدان.
- الدواوين.
- البريد.
- القضاء.
- المظالم.
- الحسبة.

مقدّمة

ظهرت طلائع التنظيم الإداري في الإسلام في حياة الرسول ﷺ، فقد كان يُرسل إلى القبائل التي تدخل في الإسلام من يفقّهها في الدّين ويعلّمها أحكام القرآن الكريم، وغلب على هذا التنظيم الطابع الديني، فقد كان عليه الصّلاة والسّلام يُنيب عنه بعض العمّال والموظّفين الذين أطلق عليهم اسم النقباء، والنقيب هو الضمين لما يتولاّه من الأمور، وسمّي هؤلاء بالنقباء، لأنّهم ضمنوا إسلام قومهم، وكانت أهم وظائفهم إقامة الصّلاة وجمع أموال الزكاة[1].

ومن أشهر ولاة الرسول ﷺ عتّاب بن أسيد، حيث استعمله على مكّة المكرّمة عند خروجه لغزوة حنين[2]، وجعل له درهماً عن كل يوم، فكان ذلك أوّل راتب مالي وضع للعمّال في عهد الرسول عليه الصّلاة والسّلام.

اختار عليه الصّلاة والسّلام رجال إدارته من الصحابة كل حسب مواهبه واستعداده، وكان يزوّدهم بالتدريب الكافي والإرشادات التي تتّفق مع تطوّر الدولة واتّساعها، وكانت القدرة على نشر الدعوة الإسلاميّة هي الأساس الأوّل للعمل في الميدان الإداري، وجاء في مقدمّة العاملين في هذا المجال نخبة من المهاجرين والأنصار منهم أبو بكر الصّديق، وعمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب، وعثمان بن عفان، وحمزة بن عبد المطلب، وجعفر بن أبي طالب، وعمّار بن ياسر، وحذيفة بن اليمان وغيرهم.

وكان يحثّ رجال إدارته على أن يسلكوا أمثل السّبل للإفادة من نشاطاتهم، وأن يتحلّوا بالأمانة والإخلاص في العمل، وأن يعملوا ما فيه مصلحة الرعية متّخذين من القرآن الكريم وتوجيهات المصطفى عليه الصّلاة والسّلام نبراساً يضيء لهم طريق العمل، ويذكر عنه عليه الصّلاة والسّلام عند اختيار موظّفيه مراعاة قدراتهم، حيث

---

(١) فاروق عمر فوزي: النظم الإسلاميّة، ص٦٩ حسن إبراهيم حسن: النظم الإسلاميّة، ص١٥٢.

(٢) انظر ابن الأثير: الكامل في التاريخ، جـ٢، ص٧٨.

كان يقول: (أرحم أمّتي بأمّتي أبو بكر وأشدّهم في دين الله عمر، وأصدقهم حياءً عثمان، وأقضاهم عليّ، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل، وأفرضهم زيد بن ثابت، وأقرأهم أبيّ بن كعب، ولكل أمّة أمين وأمين هذه الأمّة أبو عبيدة)[1] .

الإمارة على البلدان

أقرّ أبو بكر عمّال النبي ﷺ على وظائفهم وأعمالهم، فجعل أبا عبيدة على المال، وترك لعمر بن الخطاب أمر القضاء، ولعليّ أمر الفتوى في النوازل والمشكلات، وفي خلافة عمر بن الخطاب اتّسعت البلاد التابعة للدولة الإسلاميّة نتيجة الفتوحات فقسّمت الدولة إلى ثمانِ ولايات هي:

١- الأهواز والبحرين.

٢- ولاية سجستان ومكران وكرمان.

٣- ولاية طبرستان.

٤- ولاية خراسان.

٥- ولاية العراق، وكانت قسمين أحدهما حاضرته البصرة، والآخر حاضرته الكوفة.

٦- فلسطين وكانت ولاية مستقلة.

٧- ولاية الشّام وكانت قسمين هما دمشق وحمص.

٨- أفريقية وكانت ثلاثة أقسام هي مصر العليا ومصر السفلى وغرب مصر.

وعيّن عمر على هذه الولايات ولاة يستمدّون سلطتهم من الخليفة، ولكل منهم الحقّ في القيام بكل ما يراه مناسباً في أي مرفق من مرافق الحياة الدينية والدنيوية في ولايته، وغالباً ما كان عمر يختار عمّاله من العرب لمقدرتهم على فهم أُصول

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية، جـ٥، ص٣٠٨.

الشريعة وتعاليمها، فورد عنه الإشادة بالعرب، فقال وهو يوصي عمّاله: (ولا تجلدوا العرب فتذلّوها ولا تجمّروها[1] فتفتنوها، ولا تغفلوا عنها فتحرموها. . .)[2].

وسلك عثمان بن عفّان مسلك عمر في الإدارة، واهتمّ باختيارهم وتقديم النصائح لهم للعمل بالعدل والحقّ والإنصاف بين الرعية.

وفي خلافة بني أميّة استمرّ الخلفاء في اختيار عمّالهم وولاتهم من العرب الخُلّص، وبلغ اهتمامهم باختيار الولاة أن بعضهم كان يسند هذا المنصب إلى أفراد من البيت المالك، وسمحوا لولاة الأقاليم الإقامة في دمشق عاصمة الدولة، وصار الوالي يعيّن رجلاً يحكم الولاية نيابة عنه، واستعان بعضهم بطائفة من كبار الموظفين أهمهم عامل الخراج والقاضي وصاحب الشرطة لمساعدتهم في إدارة الولايات.

وعندما تولّى عمر بن عبد العزيز عزل الكثير من العمّال واستبدلهم بمن كان واثقاً من قدرتهم على العدل والإنصاف، وحدّ من سلطات الولاة وربط عملهم بالخليفة، فلا يقطعون بأمر من الأمور إلاّ بعد الرجوع إليه، وقسّمت البلاد إدارياً إلى خمس ولايات كبرى هي:

١- الحجاز واليمن وأواسط بلاد العرب.

٢- العراقان العربي والعجمي.

٣- أفريقية الشمالية بما فيها الأندلس وجزر البحر المتوسط.

٤- مصر بقسميها السفلى والعليا.

٥- بلاد الجزيرة وأرمينيا وأذربيجان وآسيا الصغرى.

وفي العصر العبّاسي حرص خلفاء بني العبّاس على اختيار ولاة الأقاليم ممّن يثقون بهم، ولم يتركوا لهم السلطات التي كانوا يحصلون عليها في العصر الأموي،

---

(١) التجمير: حبس الجنود في الثغور أي عدم منحهم الإجازات لزيارة أهلهم.

(٢) الطبري: الرسل والملوك، جـ٤، ص٢٠٤ صبحي الصالح: النظم الإسلاميّة، ص٣١٠.

بل كانت سلطاتهم محدودة، ولا تتعدّى إمامة المسلمين في الصّلاة وقيادة الجيوش والدفاع عن الولايات، وأوكلوا بعض المهمّات الأخرى إلى موظفين آخرين خاصة الشؤون المالية والقضائيّة، وكان الخليفة أبو جعفر المنصور لا يسمح ببقاء الولاة فترة طويلة ليضمن بقاءهم تحت سيطرته، فإذا انتهت ولاية أحدهم يطلب إليه أن يقدّم تقريراً شاملاً عن إدارة ولايته، فإذا ثبت استغلاله لنفوذه كانت تُصادر أمواله[١]، وهذا ما دفع البعض إلى تسميته (بالدوانيقي)[٢]، لذلك كان الخليفة مصدر القوة السياسيّة والإدارية، وإليه ترجع كل الأُمور المتعلّقة بإدارة الدولة.

إلاّ أنّ سيطرة الخلفاء على الولايات وولاتها لم تستمر في العصر العبّاسي الثاني، حيث منح بعض الولاة سلطات واسعة في إدارة شؤونهم الداخليّة، وأسندت إلى بعض الأمراء الأتراك صلاحيّات واسعة في إدارة الولايات، ممّا أفسح المجال بمرور الوقت أمام المتنفّذين إلى الاستقلال عن الخلافة العباسيّة.

وحدّد فقهاء المسلمين نوعين من الإمارة في العصور الإسلاميّة هما الإمارة العامة والإمارة الخاصّة، وكانت الإمارة العامة على نوعين هما: إمارة استكفاء وإمارة استيلاء، وأضاف الماوردي نوعاً ثالثاً هي إمارة الجهاد.

١- **الإمارة الخاصة**: وكان يقتصر عمل صاحبها على تدبير الجيوش وسياسة الرعية وحماية البيضة والذبّ عن الحريم، وليس له أن يتعرّض للقضاء والأحكام وجباية الخراج والصدقات، وإنّما يعيّن لها موظّفون مختصّون، كما كان صاحب الإمارة الخاصة له مسؤوليّة الإشراف على تسيير قوافل الحجّ إلى الديار المقدّسة[٣]، وانتشر هذا النوع من الإمارة على نطاق واسع في العصر الأموي، وكان قليلاً في العصر العباسي.

---

(١) انظر اليعقوبي: التاريخ، جـ٢، ص٣٨٧-٣٨٩ علي إبراهيم حسن: التاريخ الإسلامي العام، ص٥٦٢.

(٢) الدانق: وزن نقدي قليل جداً كان معروفاً في العصر الإسلامي ويساوي أقل من نصف غرام (انظر فالترهنتس: المكاييل والأوزان، ص٦٢).

(٣) الماوردي: الأحكام السلطانية، ص٣٧-٣٨.

٢- **الإمارة العامة**: وتكون فيها سلطة الأمير شاملة وينظر في جميع الشؤون المتعلّقة بالولاية، وهي على نوعين هما:

أ- **إمارة الاستكفاء**: وفيها يختار الخليفة أحد رجاله الأكفياء، ويفوّض إليه إمارة الإقليم، ولا يرجع إليه ألاّ في الأمور الهامة، وتنعقد باختيار الخليفة لذلك تسمّى إمارة بعقد عن اختيار، وتشتمل وظائف من يتولاها على الأمور التالية[١]:

١- تدبير الجيوش وترتيبهم في النواحي وتقدير أرزاقهم.

٢- النظر في الأحكام وتقليد القضاة.

٣- جباية أموال الخراج والصدقات وإنفاقها في الوجوه المشروعة.

٤- حماية الدين والدفاع عن الحريم.

٥- إقامة حدود الشرع.

٦- إمامة المسلمين في الصلاة.

٧- تسيير قوافل الحج.

٨- جهاد العدو وقسمة الغنائم إذا كان متاخماً للعدو.

وتقلّد هذا النوع من الإمارة عددٍ كبيرٍ من الأمراء في العصور المختلفة، منها ولاية الحجّاج بن يوسف على العراق، وولاية عبد العزيز ابن مروان على مصر، وفي العصر العباسي ولاية أبو مسلم الخراساني على خراسان، وولاية عيسى بن موسى على الكوفة، وعيسى بن علي على فارس، وداود بن علي على مكة والمدينة واليمن واليمامة[٢].

ب- **إمارة الاستيلاء**: وهي التي يستولي فيها الأمير بالقوّة على بلاد يقلّده الخليفة إمارتها، ويفوّض إليه تدبيرها وسياستها، فيكون الخليفة مضطراً لهذا التقليد لتغلّب

---

(١) الماوردي: الأحكام السلطانية، ص٣٥ فتحية النبراوي: تاريخ النظم والحضارة الإسلاميّة، ص٧٧.

(٢) جهادية القره غولي: العقلية العربية في التنظيمات الإدارية والعسكرية، ص٧٥.

الأمير عليها[1]، وتسمّى إمارة بعقد عن اضطرار، ويكون صاحبها مطلق التصرّف في جميع شؤون ولايته، ولكن حتى يقرّه الخليفة على إمارته فإنّ عليه أن يلتزم بطاعة الخليفة في الأمور الدينية، والوقوف إلى جانب الخلافة ضد الأخطار التي تتعرّض لها، وجمع الأموال المفروضة على الرعية[2].

وازداد ظهور هذا النوع من الإمارة حين ضعفت سلطة الخلافة المركزية، ووهنت قبضتها على الأطراف، فعندما عجز المعتمد عن يعقوب بن الليث الصفار كتب إليه بولاية خراسان، وفي سنة ٢٨٥هـ/ ٨٩٨م ولّى المعتضد محمد بن أبي الساج أعمال أذربيجان وأرمينية بعد أن تغلّب عليها[3]، ومن أنواع هذه الإمارة الدولة الحمدانيّة في الموصل وحلب، والدولة الاخشيدية في مصر والشّام، والدولة البويهية في فارس وكرمان، والغزنوية في الهند وبلاد الأفغان وغيرها.

وتختلف إمارة الاستيلاء عن الاستكفاء في عدّة أمور منها أنّ إمارة الاستيلاء متعينة في المتولي (تؤخذ بالتغلّب) وبعقد عن اضطرار، أمّا إمارة الاستكفاء فمقصورة على اختيار المستكفي (الخليفة)، وتشتمل إمارة الاستيلاء على البلاد التي تغلّب عليها المتولّي، وتقتصر إمارة الاستكفاء على البلاد التي تضمنها عهد الخليفة للأمير، وأنّ وزارة التفويض تصحّ في إمارة الاستيلاء، ولا تصحّ في إمارة الاستكفاء[4]، وقد تكون إمارة الاستيلاء وراثية، بينما لا يكون هذا في إمارة الاستكفاء، ولم تظهر إمارة الاستيلاء في عهد بني أميّة.

٣- **إمارة الجهاد**: وذكر هذه الإمارة الماوردي في كتابه (الأحكام السلطانيّة والولايات الدينية)، وكانت تسند هذه الإمارة إلى ولاة الثغور ومناطق الحدود المتاخمة للعدو، وكان يتولاّها قادة الجيش، وهي إمّا أن تكون مقصورة على تدبير

---

(١) الماوردي: الأحكام السلطانية، ص٣٩.

(٢) الماوردي: الأحكام السلطانية، ص٣٩-٤٠ صفاء حافظ عبد الفتاح: نظم الحكم في الدولة العباسية، ص٨٥.

(٣) الطبري: الرسل والملوك، جـ١٠، ص٦٨.

(٤) الماوردي: الأحكام السلطانية، ص٤٠-٤١: فتحية النبراوي: تاريخ النظم، ص٧٨.

الجيوش وإدارة الحرب، وعند ذلك تتّفق مع الإمارة الخاصة، وإمّا أن يفوّض متولّيها التصرّف في الغنائم وعقد الصلح أو إعلان الحرب على الأعداء بما يتّفق ومصلحة المسلمين العامة، وعند ذلك تكون شبيهة بإمارة الاستكفاء، وكان لصاحبها التصرّف في تسيير الجيوش، وصرف مرتّبات الجند، وتعيين العرفاء والنقباء، وتحديد شاراتهم وأعلامهم، ووضع خطط الحرب، وعقد المعاهدات مع الأعداء[١].

وخصّص الحكّام رواتب مجزية للولاة والعمّال بهدف دفعهم للعمل بأمانة والإنصاف بين الرعية، وكان أوّل راتب مالي وضع للعمال على عهد الرسول ﷺ عندما فرض لعتّاب بن أسيد نائبه على مكة درهماً في كل يوم (٣٠ درهماً في الشهر)، وجعل عمر بن الخطاب لعمّار بن ياسر عندما وجهه إلى الكوفة (٦٠٠) درهماً في السنة ونصف شاةْ ونصف جريب رزقاً كل يوم، وجعل لمعاوية بن أبي سفيان ألف درهم في السنة في ولايته على الشّام، وكان العمّال والولاة يزوّدون بمخصّصات إضافية لإبعادهم عن الإغراء وقبول الرشوة.

وجعل بنو أميّة لعمّال الأقاليم امتيازات كثيرة، وذلك ترغيباً للعمّال في الاستمرار على ولائهم لبني أميّة، أمّا العباسيون فاشتطوا في منح الرواتب للعمال، فجعل المأمون للفضل بن سهل ثلاثة ملايين درهم في السنة.

الدواوين

الديوان كلمة فارسية معرّبة معناها الدفتر أو السجل أو مجتمع الصحف، وأصله دوّان وهو الدفتر الذي يكتب فيه أسماء الجيش وأهل العطاء[٢]، وأطلق اسم الديوان على المكان أو الدائرة التي تحفظ فيها الأوراق والسجلات، والديوان بالفارسية اسم للشياطين[٣]، وسمي الكتاب باسمهم لحذقهم في الأمور ووقوفهم على الجلي =

---

(١) انظر الماوردي: الأحكام السلطانية، ص٤٣ وما بعدها جهادية القره غولي: العقلية العربية، ص٨٤-٨٥.

(٢) انظر ابن منظور: لسان العرب، جـ١٣، ص/١٦٦ مادة دون.

(٣) ابن قتيبة: عيون الأخبار، جـ١، ص١١١.

والخفي منها، ثم سمي مكان جلوسهم باسمهم فقيل ديوان[1].

وهناك من يرى أن أصل الديوان عربية من دون، وذلك بالنظر إلى اللفظ المقترن بديوان الشعر[2]، فالدواوين هي الدوائر الرسمية التي تكون مهمتها القيام بالأعمال الإدارية والإشراف على شؤون المال، وهي تقابل الوزارات في الوقت الحاضر.

ويرجع ظهور الديوان إلى عهد الخليفة عمر بن الخطاب، ويذكر الماوردي أن الناس اختلفوا في سبب وضع الديوان، فقيل أن أبا هريرة قدم على عمر بمال من البحرين، فقال له عمر ماذا جئت به؟ فقال خمسمائة ألف درهم، فاستكثرها عمر، وقال له: أتدري ما تقول؟ قال: نعم مائة ألف خمس مرات، فقال عمر: أطيب هو؟ فقال لا أدري، فصعد عمر المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس قد جاءنا مال كثير، فإن شئتم كلنا لكم كيلاً وأن شئتم عددنا لكم عداً، فقام إليه رجل وقال: يا أمير المؤمنين، قد رأيت الأعاجم يدوّنون ديواناً لهم، فدوّن أنت لنا ديواناً[3]، فكيف إذا علمنا أن المسلمين عندما فتحوا بلاد فارس وجدوا في بيوت أموال كسرى ثلاثة آلاف ألف ألف ألف درهم؟

ويقال بأن خالد بن الوليد أشار عليه فقال: كنت بالشام، فرأيت ملوكها قد دوّنوا ديواناً وجندوا جنوداً، فدوّن ديواناً، وجنّد جنوداً فأخذ بقوله[4]، وكان ذلك سنة ٢٠هـ/ ٦٤٢م.

والمهم في الأمر أن كثرة الأموال التي تدفقت على المسلمين نتيجة الفتوحات الإسلامية دفعت المسلمين للتفكير بضبطها وتنظيم توزيعها، وتنظيم الجند المقاتلين

---

(١) الماوردي: الأحكام السلطانية، ص٢٤٩، أبو يعلى: الأحكام السلطانية، ص٢٢١.

(٢) انظر القلقشندي: صبح الأعشى، جـ١، ص٨٩، صالح أبو دياك: دراسات في التاريخ الإسلامي، ص٨٩، حسين الكساسبة: المؤسسات الإدراية، ص٣٥.

(٣) الماوردي: الأحكام السلطانية، ص٢٤٩.

(٤) الطبري: الرسل والموك، جـ٤، ص٢٠٩، الماوردي: الاحكام السلطانية، ص٢٥٠، ابن خلدون: العبر، جـ١، ص٢٤٤، المقريزي: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والى ثار، جـ١، ص٩٢.

وتحديد رواتبهم، إضافة إلى اتساع الدولة الإسلامية والحاجة إلى تنظيم ولايتها وضبط إدارتها، فاستشار عمر المسلمين من حوله وانتهى الأمر بوضع الديوان الذي تضمن تسجيل أسماء المسلمين الذين يستحقون العطاء وأنسابهم على قبائلهم وتحديد أعطياتهم[1].

وعندما أراد عمر تسجيل الناس وتحديد أعياتهم استشار من حوله من المسلمين، فقال لهم: بمن أبدأ؟ فقال له عبد الرحمن بن عوف، ابدأ بنفسك، فقال عمر: أذكر أني حضَرتُ مع رسول الله ﷺ وهو يبدأ ببني هاشم وبني عبد المطلب، فبدأ بهم عمر ثم بمن يليهم من قبائل قريش بطناً بعد بطن حتى استوفى قريش ثم انتهى إلى الأنصار وبدأ برهط سعد بن معاذ ثم الاقرب فالأقرب لسعد، ثم فضّل بينهم في العطاء على قدر السابقة في الإسلام والقربى من الرسول ﷺ.

وفرض لكل من شهد بدراً من المهاجرين الأوّلين خمسة آلاف درهم في كل سنة ومنهم: علي وعثمان والزبير وطلحة وعبد الرحمن بن عوف وعمر بن الخطاب وألحق بهم العباس بن عبد المطلب والحسن والحسين ابنا علي بن أبي طالب لماكتنهم من الرسول ﷺ، وقيل بل فضل العباس وفرض له سبعة آلاف درهم، وفرض لكل من شهد بدراً من الأنصار أربعة آلاف درهم، ولم يفضل على أهل بدر إلاّ لأزواج رسول الله ﷺ حيث فرض لكل واحدة منهن عشرة آلاف درهم إلاّ عائشة فإنه فرض لها اثنى عشر ألف درهم، وألحق بهن جورية بنت الحارث وصفيّة بنت حيي، وقيل فرض لكل واحدة منهن ستة آلاف درهم، وفرض لكل من هاجر قبل الفتح ثلاثة آلاف درهم، ولمن أسلم بعد الفتح ألفي درهم لكل رجل، وفرض لغلمان أحداث من أبناء المهاجرين والأنصار كفرائض مسلمي الفتح[2]، وشمل

---

(١) البلاذري: فتوح البلدان، ص٤٣٦-٤٣٩، الطبري: الرسل والملوك: جـ٤، ص٢١٠، المارودي: الأحكام السلطانية، ص٢٥٠-٢٥١، حسين الكساسبة: المؤسسات الإدارية، ص٣٨.

(٢) انظر حول هذا التفاصيل الموجودة في البلاذري: فتوح البلدان، ص٤٣٦-٤٣٨ الماوردي: الأحكام السلطانية: ص٢٥١-٢٥٢ المقريزي: الخطط، جـ١، ص٩٢-٩٤.

العطاء جميع المسلمين حتى النساء والأطفال، وبهذا فإنّ الأُسس التي اعتمدها عمر رضي الله عنه في تسجيل أسماء النّاس في الديوان وتحديد أُعطياتهم تشمل[1]:

١- درجة النسب المتّصل بالرسول ﷺ.

٢- السابقة إلى الإسلام.

٣- حضور المواقع مع الرسول ﷺ، لذلك تصّدر أهل بدر قائمة العطاء، يليهم من شهد المواقع إلى الحديبية، ثم من الحديبية إلى القضاء على المرتدّين.

٤- أهل الحرب على قدر براعتهم في القتال.

وكانت الدواوين على نوعين منها دواوين مركزيّة أنشأها العرب أنفسهم، فكان كل ما فيها عربياً خالصاً، ومنها الدواوين المحليّة الإقليمية التي وجدها العرب فى البلدان المفتوحة، فرأوا من الحكمة أن يقرّوا أهلها عليها، فكان ديوان الشّام بالروميّة، وديوان العراق بالفارسيّة[2]، وديوان مصر بالقبطيّة.

وبقيت هذه الدواوين تكتب بلغات غير عربيّة حتى خلافة عبد الملك بن مروان الذي تمكّن من تثبيت أركان الدولة العربية الإسلامية، وأمر بنقل ديوان الشّام إلى العربيّة، وكان سبب ذلك أنّ أحد كتّاب الروم في الديوان احتاج إلى ماء لدواته فبال فيها بدلاً من الماء، وتناهى الأمر إلى عبد الملك فأدّبه وأمر سليمان بن سعد وكان مسؤولاً عن ديوان الشّام أن ينقله إلى العربية، وأمدّه بخراج الأردن لسنة كاملة وكان يزيد على (١٨٠.٠٠٠) دينار، فأتمّ تعريبه تعريبه في سنة واحدة[3] وذلك سنة ٨١هـ/ ٧٠١م، وكلّف الحجّاج كاتبه صالح بن عبد الرحمن بنقل ديوان العراق من الفارسية إلى العربية ففعل، أمّا ديوان مصر، فكلّف عبد العزيز بن مروان والي مصر بنقل الديوان إلى العربية، وعيّن ابن يربوع الفزاري من حمص رئيساً له وكلّفه بهذه

(١) الماوردي: الأحكام السلطانيّة، ص٢٥٢.
(٢) الماوردي: الأحكام السلطانية، ص٢٥٣ ابن خلدون: العبر، جـ١، ص٢٤٤.
(٣) الماوردي: الأحكام السلطانية، ص٢٥٣ ابن خلدون: العبر، جـ١، ص٢٤٤.

المهمة[1]، وكذلك قام إسحاق بن طليق سنة ١٢٤هـ/٧٤٣م أيّام الخليفة هشام بن عبد الملك بنقل الديوان في خراسان من الفارسيّة إلى العربية، ونتج عن حركة التعريب انتشار اللغة العربية والخطّ العربي، ونشطت حركة الترجمة من اللغات اليونانية والفارسية والهندية، وأصبحت اللغة العربيّة اللسان الحضري في جميع الأمصار الإسلاميّة، وتقلّص نفوذ أهل الذمّة بعد أن سيطروا على وظائف الدواوين.

(١) المقريزي: المواعظ والاعتبار، بذكر الخطط والآثار، جـ١، ص٩٨.

الدواوين الإسلاميّة

١- ديوان الجند:

وهو الديوان الذي بدأ وضعه في خلافة عمر بن الخطاب لحفظ أسماء الجنود وتحديد أُعطياتهم ومرتّباتهم، وكان اسمه أوّل الأمر الديوان، ثمّ اشتهر باسم ديوان الجند بعد أن أُنشئت الدواوين المتخصّصة، وأُعيد تنظيم هذا الديوان عدّة مرّات في العصر الأموي وحسب احتياجات الدولة الإسلامية، وأُلحقت قيس بالديوان في خلافة هشام بن عبد الملك[1]، وكان هذا الديوان مسؤولاً عن اختيار الأشخاص الصالحين لدخول الجنديّة حسب الشروط الموضوعة لذلك، وهي الإسلام والبلوغ وسلامة الجسم من الأمراض والإقدام على الحروب ومعرفة القتال[2]، وكان لديوان الجيش عدّة مجالس هي:

١- مجلس التقدير: وهو ينظر في تقدير رواتب الجند وأوقات صرفها.

٢- مجلس المقابلة: ويشرف على سجلات الجنود وشروط قبولهم بأسمائهم وأوصافهم.

٣- مجلس الاعطاء: ويشرف على عملية توزيع الأرزاق.

٤- مجلس الأسكدار: لتنظيم الكتب الصادرة أو الواردة إلى الديوان.

٢- ديوان الخراج:

الخراج هو الضريبة التي كان يفرضها المسلمون على الأرض التي يستولون عليها وتبقى في يد أهلها[3]، لأنّ الأرض المفتوحة تصبح ملكاً للأمّة، فمن يعمل بها بعد ذلك يصبح أجيراً يدفع أجرتها خراجاً للدولة الإسلاميّة.

---

(١) المقريزي: الخطط، جـ١، ص٩٤.
(٢) الماوردي: الأحكام السلطانيّة، ص٢٥٤.
(٣) الماوردي: الأحكام السلطانية، ص٢٨٥ علي إبراهيم حسن: التاريخ الإسلامي العام، ص٥٤٠ جهادية القره غولي: الأحكام السلطانية، ص٢٥٨-٢٥٩.

وديوان الخراج هو المسؤول عن حفظ تقارير الضرائب وسجلاّت النفقة، ووظيفته جمع الضرائب وموارد الولاية، والإنفاق على حاجاتها، وإرسال ما يزيد على ذلك إلى الخزينة المركزية للدولة، وكان الخراج يُفرض إمّا مقاسمة على حصّة من الناتج كالنصف أو الثلث أو الربع أو الخمس، أو على نظام المحاسبة بأن تؤخذ الضريبة على مساحة الأرض نقداً أو عيناً، أو عن طريق الالتزام[١].

وكان الخلفاء يشرفون بأنفسهم على جباية الخراج ويحاسبون الولاة والعمّال حساباً عسيراً إذا ارتكبوا المخالفات، فسنّ عمر بن الخطاب نظاماً يقضي بإحصاء دقيق لثروة الولاة قبل توليتهم، فإذا ثبت أنّ رواتبهم لا تسمح بإدّخار الأموال الموجودة لديهم تمّ مصادرة نصف هذه الأموال.

٣- ديوان الصّدقات:

دائرة رسميّة مهمّتها النّظر في موارد الزكاة من الزروع والثمار والمواشي والذهب والفضة وعروض التجارة، وكيفية إنفاقها في الوجوه المشروعة التي حدّدها القرآن الكريم ﴿ ۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾[٢]، وكان عمّال الخراج يجمعون الصّدقات حتى خلافة هشام بن عبد الملك الذي أنشأ هذا الديوان[٣]، وقلّد ولايته لإسحاق بن قبيصة بن ذؤيب، وفي عهد العباسيين أصبح ديوان الصدقة ينظر في زكاة المواشي بصورة خاصة[٤]، وكان عمّال الصدقات يتقاضون رواتبهم من مال الصدقات، وهؤلاء العمّال على نوعين: عمّال تفويض يترك لهم الخليفة سلطة التصرّف وتحديد ممتلكات الأفراد وتقدير صدقاتهم، وعمّال تنفيذ يخضعون لأوامر الخليفة ويجمعون أموال الصدقة فقط،

---

(١) الماوردي: الأحكام السطانيّة، ص٢٥٨-٢٥٩.

(٢) سورة التوبة: الآية ٦٠.

(٣) محمد ضياء الدين الريّس: الخراج والنظم المالية، ص٣٦١.

(٤) أبو يوسف: الخراج، ص٤٣-٤٥ الدوري: النظم الإسلاميّة، ص١٩٦-١٩٩.

ويشترط في عامل الصدقة أن يكون أميناً، ثقة، مسلماً، عالماً بأحكام الزكاة منزّهاً عن قبول الرشوة.

٤- ديوان النفقات:

وهو دائرة تتولّى الإشراف على احتياجات دار الخلافة، وما تصرفه الدولة الإسلاميّة وتنفقه في الوجوه المختلفة، كالإنفاق على تسليح الجيوش ورواتب الجند وألبستهم[1]، وأُنشيء هذا الديوان في خلافة سليمان بن عبد الملك. وكان ديوان النفقات من الدواوين ذات الأهميّة الخاصة في عهد الخليفة هارون الرشيد، حيث أسند إدارته إلى الفضل بن الربيع.

٥- ديوان الصوافي:

أُنشيء في عهد الخليفة هارون الرشيد للإشراف على الأراضي التي تملكها خزينة الدولة، وأراضي الصوافي، هي الأراضي التي كانت لكسرى والبيت الساساني، وبيوت النيران والآجام، وأوقاف البريد، وأراضي قتلى الحرب عند الفتح الإسلامي، وأراضي البطائح ومن هرب أهلها من البلاد، حيث تقرّر حبسها على مصالح المسلمين ولا يجوز قسمتها أو بيعها لأنّ ملكيتها تعود لبيت المال[2]، وكان بعض الخلفاء في العصر العباسي يمنحون بعض هذه الأراضي لأشخاص ينتفعون بها، ويدفعون عنها ضرائب مخفّفة.

٦- ديوان الضياع:

وينظر في إدارة ضياع الخلافة، ويشتمل على سجلّ لإحصاء الأراضي ومساحتها ومقدار جبايتها، وكانت تسمّى (الضياع السلطانيّة)، وهي عبارة عن ضياع واسعة في

---

(١) انظر الجهشياري: الوزراء والكتّاب، ص٣٥ توفيق اليوزبكي: دراسات في النظم، ص١١٩.
(٢) أبو يوسف: الخراج، ص١٥٧-١٥٨ أبو عبيد: الأموال، ص٢٩٥-٢٩٦.

العراق والشام ومصر وطبرستان واليمامة وخراسان وفارس، وقد اقتطع منها معاوية ابن أبي سفيان لنفسه وأهل بيته[١].

والضياع في العصر العباسي هي التي صادرها العباسيون عند مجيئهم للحكم من بني أميّة[٢]، غير أنّهم لم يستطيعوا الاحتفاظ بها في عهد نفوذ الأتراك بسبب طمع بعض الوزراء فيها، أو بيعها لسدّ العجز المالي الذي تعرّضت له خزينة الدولة، فباع ابن مقلة الضياع والأملاك السلطانيّة لصرف أموالها على البيعة للقاهر، كما استولى أمير الأمراء ناصر الدولة على ضياع الخليفة المتّقي وضياع والدته.

٧- ديوان المستغلاّت:

هو دائرة تنظر في إدارة أموال الدولة غير المنقولة، كالأراضي والأبنية الحكوميّة والأسواق[٣]، وكان يسمّى ديوان (الإيرادات)، ويرجّح أنّه أُنشيء في خلافة الوليد ابن عبد الملك.

٨- ديوان الطراز:

الطراز هو ما ينسج من الثياب، وما يرسم عليها من علامات وأشكال هندسية أو نباتية، وقد يتضمّن أسماء الخلفاء والأمراء، وديوان الطراز هو مؤسسة حكوميّة تشرف على صناعة المنسوجات، وإنتاج الأزياء والملابس الرسميّة الخاصة بالخليفة والقصر، وملابس الجند والأعلام والرّايات والشعارات الخاصة بالدّولة[٤].

كان ديوان الطراز في الشّام بالروميّة، فأبدله عبد الملك بن مروان بالطراز العربي الإسلامي، وكتب عليه عبارة (لا إله إلاّ الله محمّد رسول الله)، وكان المسؤول عن

---

(١) انظر اليعقوبي: التاريخ، جـ٢، ص٢٣٤.

(٢) انظر البلاذري: فتوح البلدان، ص٢٨٨-٢٩٢ الجهشياري: الوزراء والكتّاب، ص٩٠.

(٣) الجهشياري: الوزراء والكتّاب، ص٤٧ جهادية القره غولي: العقليّة العربيّة، ص١١٤.

(٤) ابن خلدون: العبر، جـ١، ص٢٦٦-٢٦٧ وانظر حسين الكساسبة: المؤسسات الإدارية، ص٨١-٨٢.

دور الطراز يسمّى (صاحب الطراز)، ويتولّى مهام هذه الدائرة من كان من خواصّ السلطان وثقافته[1].

٩- ديوان الاستخراج:

هو دائرة رسميّة ظهرت في العصر العباسي الثاني، وكانت وظيفتها تتبّع أخبار الوزراء والكتّاب والحجّاب والعمّال والولاة المتّهمين بالمحسوبيّة والرشوة، ومصادرة أموالهم التي جمعت بالحرام[2]، وسبق هذا الديوان ظهور دائرة شبيهة به عرفت (بديوان المصادرات) في خلافة المنصور، وظيفتها حفظ أسماء من صُودرت أموالهم.

١٠- دواوين الأزمّة:

هي دوائر صغيرة وظيفتها الإشراف على أعمال الدواوين المختلفة فيما يتعلّق بالشؤون الماليّة والحسابات، واستحدث في خلافة المهدي سنة ١٦٢هـ/ ٧٧٩م، ثمّ أُنشيء زمام الأزمّة ليقوم بالإشراف على جميع دواوين الأزمّة[3].

١١- ديوان الخاصّة:

وينظر في أموال الخليفة وأملاكه وعقاراته المكتوبة باسمه والراجعة إلى ورثته.

١٢- ديوان الجهبذة:

هو دائرة أُنشئت أيّام العباسيين لتدقيق حسابات بيت المال، واستلام الصكوك المرفوعة من قِبَل أهل الولايات في موسم افتتاح الخراج، وتدقيقها.

---

(١) ابن خلدون: العبر، جـ١، ص٢٦٧.
(٢) صبحي الصالح: النظم الإسلاميّة، ص٣١٧-٣١٨.
(٣) الطبري: الرسل والملوك، جـ٨، ص١٤٢.

١٣- ديوان الرسائل:

أُنشيء في خلافة معاوية بن أبي سفيان، ومهمّته الإشراف على تحرير رسائل الخليفة ومكاتباته ومواثيقه وعهوده وأوامره إلى الولايات الإسلامية والبلدان الخارجية، والرسائل القادمة إلى عاصمة الخلافة[١].

واهتمّ الخلفاء باختيار موظّفي هذا الديوان ممّن كانوا أكثر النّاس أمانة وإخلاصاً لهم، لأنّهم يطّلعون على آراء خفيّة تتعلّق بالدولة سواءً في شؤونها الداخليّة مع الأمصار، أو في علاقاتها الخارجيّة مع ملوك وحكّام الدّول الأخرى[٢]، وإضافة إلى ذلك كان يشترط فيمن يتولّى هذا الديوان أن يكون سليم العقل عالماً بفنون الكتابة، حافظاً للأشعار، بليغاً فصيحاً، حافظاً للقرآن الكريم والسيرة النبوية وأخبار العرب[٣].

وعندما تولّى الفاطميّون الخلافة في مصر صرفوا مزيداً من الاهتمام والعناية لديوان الرسائل، الذي كان من أهم دواوينهم، فلقّب متولّيه بلقب (كاتب الدست الشريف)، وكان يخاطب بـ (الشيخ الأجلّ)[٤]، وكانت لصاحبه مكانة رفيعة عندهم، وكثيراً ما تولّى صاحب ديوان الإنشاء منصب الوزارة للفاطميين، أو جمع بينهما، وقد يتولّى ديوان الإنشاء بعد أن يشغل منصب الوزارة ولا يرى في ذلك انتقاصاً لمركزه[٥]، وكان يعمل بمعيّته موظّفون من أصحاب الرّتب العالية هما (صاحب القلم الدقيق)، و(صاحب القلم الجليل).

---

(١) انظر قدامة بن جعفر: الخراج، ص٣٧- ٣٨ القلقشندي: صبح الأعشى، جـ١، ص٩٠ ابن خلدون: العبر، جـ١، ص٢٤٦-٢٤٧.

(٢) ابن منجب الصيرفي: قانون ديوان الرسائل، ص٩ ٤ وما بعدها ابن خلدون: العبر، جـ١، ص٢٤٦.

(٣) ابن منجب الصيرفي: قانون ديوان الرسائل، ص٩٨-١٠٥.

(٤) ابن الطوير: نزهة المقلتين، ص٨٧ ابن الصيرفي، قانون ديوان الرسائل، ص٩٢ القلقشندي: صبح الأعشى، جـ١، ص١٠٢-١٠٣ عطية مشرفة: نظم الحكم، ص١٢٧.

(٥) ابن منجب الصيرفي: قانون ديوان الرسائل، ص٩٥-٩٦ وانظر ابن الطوير: نزهة المقلتين، ص٨٧.

١٤- ديوان الخاتم:

أُنشيء في خلافة معاوية بن أبي سفيان، وسبب إنشائه أنّ معاوية أمر لعمرو بن الزبير في معونته وقضاء دينه بمائة ألف درهم، وكتب بذلك إلى زياد بن أبيه واليه على العراق ليسلّمها له، ففتح عمرو الكتاب، وغيّر المائة إلى مائتين، فلمّا رفع زياد حسابه إلى الخليفة أنكرها عليه معاوية، وطلبها من عمرو وحبسه، فقضاها عنه أخوه عبد الله ابن الزبير[١].

لذلك كان إنشاء ديوان الخاتم لتحاشي التزوير والتلاعب بالكتب التي يصدرها الخليفة، فأصبحت تصدر من الدواوين مختومة بالشّمع وبخاتم صاحب الديوان، فيصعب على أحد معرفة ما فيها أو تغييرها[٢].

وتولّى هذا الديوان لمعاوية بن أبي سفيان (عبد الله بن محصن الحميري)، أمّا الرشيد فأسنده إلى أبي العبّاس الطوسي، ثمّ إلى وزيره الفضل بن الربيع[٣].

١٥- ديوان التوقيع:

ومهمّته دراسة المكاتبات التي تصل إلى الخايفة من شكاوي والتماسات، ويذكر ابن خلدون أنّ وظيفة صاحبه هو الجلوس بين يديّ السلطان والتوقيع على القصص والمظالم المرفوعة إليه أحكامها والفصل فيها بإيجاز وبلاغة[٤].

وكان الخليفة هو الذي يتولّى الفصل في المظالم المرفوعة إليه[٥]، إلاّ أنّ كثرة الكتب المرفوعة وإنشغاله بأُمور كثيرة، جعله يتركها إلى صاحب ديوان التوقيع[٦].

---

(١) الطبري: الرسل والملوك، جـ٥، ص٣٣٠ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، جـ٣، ص٢٦٢ ابن الطقطقي: الفخري في الآداب السلطانيّة، ص١٠٧.

(٢) ابن الطقطقي: الفخري في الآداب السلطانية، ص١٠٧.

(٣) الجهشياري: الوزراء والكتّاب، ص١٧٧.

(٤) ابن خلدون: العبر، جـ١، ص٢٤٧.

(٥) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ١، ص١١١.

(٦) الجهشياري: الوزراء والكتّاب، ص٢١٠-٢١١.

١٦- ديوان الموالي والغلمان:

واستحدثه المعتصم الذي كان عنده ولع وميل غريب لابتياع الغلمان الأتراك، وكان هذا الديوان ينظر في الإكثار من الغلمان، وانتقاء من يتم شراؤه بمواصفات معيّنة كانت تتبع ميله وهواه.

١٧- ديوان الأكره:

وهو دائرة تشرف على القنوات والجسور والترع، وجميع الشؤون المتعلّقة بالريّ، وهناك مجموعة أُخرى من الدواوين الهامة، كالبريد، والمظالم، والقضاء، والحسبة، والشرطة، سنتحدّث عنها عند الحديث عن هذه المناصب.

وكانت الدولة الفاطميّة تقوم بتصريف شؤون البلاد عن طريق مجموعة كبيرة من الدواوين يختصّ كل منها بعمل معيّن، ويتولاّها رجال من أصحاب الخبرة والمقدرة، وأهمّ هذه الدواوين ديوان المجلس وديوان الإنشاء والمكاتبات، ودواوين الإدارة المالية التي تقوم بجباية الأموال وإنفاقها، ودواوين الإدارة المحليّة التي تحكم الولايات، ودواوين الجيش والأحباس والترتيب والجهاد والمفرد وديوان الخاص وديوان الكتاميين[١].

فديوان المجلس هو أصل الدواوين ويشرف على الإنعامات والأعطية ومنح الكسوات وتسجيل ما يردّ من التحف والهدايا من الملوك والأُمراء وضبط ما تنفقه الدولة، وكان صاحب ديوان النظر يرأس دواوين الأموال عند الفاطميين، ولصاحبه العزل والولاية، وهو الذي يتولّى عرض الأوراق على الخليفة أو الوزير، ويتولاّه رجل من المسلمين. أمّا ديوان المجلس فيتولاّه رجل من النصارى[٢].

وكان صاحب ديوان الإنشاء يحتفظ في ديوانه بدفتر يحتوي على ألقاب الولاة

---

(١) لمزيد من الاطلاع انظر ابن الطوير: نزهة المقلتين، ص٧٤-١٠٠ المقريزي: الخطط، جـ١، ص٣٩٧-٤٠٣.

(٢) ابن الطوير: نزهة المقلتين، ص٧٤-٧٥ المقريزي: الخطط، جـ١، ص٣٩٧.

والموظّفين وأسمائهم، وترتيب مخاطباتهم، ومهمّته تسليم المكاتبات الواردة ثمّ عرضها على الخليفة لبحثها والردّ عليها[١].

وديوان التحقيق ويلحق صاحبه بمتولّي ديوان النّظر، وأطلق عليه ابن ميسر اسم (ديوان المملكة)[٢]، ويتولّى المقابلة على الدواوين، وجدّده الأفضل بن بدر الجمالي سنة ٥٠١هـ/ ١١٠٦م) وديوان الجهاد وكان يقال له (ديوان العمائر)، ويختصّ بأمر النظر في الأساطيل الحربية وإنشائها وتسييرها والإنفاق على رجال البحر[٣].

البريد

البريد كلمة عربيّة من برد أو أبرد، بمعنى أرسل[٤]، وقيل فارسيّة معرّبة تعني الخيل مقصوصة الذنب، وذلك لأنّ الفُرس كانوا يقصّون أذناب البغال المستخدمة لنقل الأخبار تمييزاً لها على غيرها من الدّواب الأُخرى[٥]، والبريد هو الدّابة التي يركبها العامل، ثمّ نقلت لتعني المسافة التي يقطعها بين منطقتين، وقدّرت في بلاد الشام خلال القرن الرابع الهجري بستّة أميال[٦].

وخصّصت مجموعة من الخيول السريعة لتوضع في محطّات على الطريق بين الولايات والمدن، فإذا وصل حامل الأخبار الذي عُرِف باسم صاحب البريد أحد هذه الأماكن وقد تعب فرسه، ركب فرساً غيره مستريحاً، وتابع سيره حتّى يصل بسرعة[٧].

---

(١) ابن الطوير: نزهة المقلتين، ص٨٧ القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٣، ص٥٦٣.
(٢) ابن ميسر: أخبار مصر، ص٩٠.
(٣) ابن الطوير: نزهة المقلتين، ص٩٤-٩٥ القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٣، ص٤٩٦.
(٤) ابن منظور: لسان العرب، جـ٣، ص٨٦/ مادة برد
(٥) خوارزمي: مفاتيح العلوم، ص٤٢ آدم متز: الحضارة الإسلامية، جـ٢، ص٤١١.
(٦) انظر المقدسي: أحسن التقاسيم، ص٦٦ الكتاني: التراتيب الإدارية، ص٢٩١ آدم متز: الحضارة الإسلامية، جـ٢، ص٤١١
(٧) انظر ابن الطقطقي: الفخري في الآداب السلطانيّة، ص٧٨ صبحي الصالح: النظم الإسلامية، ص٣٢١. =

وكانت وظيفة البريد هي نقل الأخبار الرسمية بين العاصمة والولايات، فينقل أخبار الخلفاء إلى ولاتهم وأخبار الولاة إلى الخلفاء[1]، ثمّ اتّسعت مهمّته وصارت تشبه وظيفة المخابرات اليوم بعد أن أُسندت إليه مهمّات التجسّس على ولاة الأقاليم وكبار الموظّفين ومراقبة شؤون الحكومة في الولايات المختلفة[2].

وأُدخل نظام البريد في الإسلام في خلافة معاوية بن أبي سفيان، ثمّ أدخل عليه عبد الملك بن مروان عدّة تحسينات، فصار أداة هامة في إدارة شؤون الدولة.

وفي العصر العبّاسي، أُنشيء ديوان للبريد في بغداد، وأولى أبو جعفر المنصور البريد عناية خاصة، فكان صاحب البريد من أكثر المقرّبين إلى الخليفة، ويظهر ذلك عندما قال يوماً (ما أحوجني إلى أن يكون على بابي أربعة نفر، لا يكون على بابي أعفّ منهم، فقيل من هم يا أمير المؤمنين؟ قال: هم أركان الملك، لا يصلح الملك إلاّ بهم كما أنّ السرير لا يصلح إلاّ بأربع قوائم، إن نقصت واحدة تداعى، أمّا أحدهم فقاضٍ لا تأخذه في الله لومة لائم، وصاحب شرطة ينصف الضعيف من القوي، وصاحب خراج يستقصي ولا يظلم الرعيّة فإن ظلمها غي، والرابع ثمّ عضّ على أُصبعه السبابة ثلاث مرات يقول في كل مرّة: آه أه، قيل: ومن هو يا أمير المؤمنين؟ قال: صاحب بريد يكتب إليّ بخبر هؤلاء على الصحّة)[3].

وكان المنصور يقف على أعمال الولاة ويتابع أخبار ولايات الدولة عن طريق عمّال البريد بشكل يوميّ، فيطّلع على ما يصدره القضاة من الأحكام، وما يرد بيت المال من الأموال، ويوافيه عمّال البريد بأسعار الحاجيّات والمأكولات خاصة الحبوب والقمح مرتين في كل يوم[4].

---

(١) ابن مماتي: مختصر قوانين الدواوين، تحقيق عدنان الصمادي، ص٧١.

(٢) انظر:

Hermer: Orient Under the Calephs, p.233. Hartmann: BaridLEI, London 1960, vol. 1, p.1046.

(٣) لطبري: الرسل والملوك، جـ٨، ص٦٧ ابن الجوزي: المصباح المضيء في خلافة المستضيء، جـ١، ص١٨٣-١٨٤.

(٤) الطبري: الرسل والملوك، جـ٨، ص٩٦.

وتعدّدت وسائل البريد، فكان منها الدّواب خاصّة الخيول والجمازات (وهي جمال بلخيّة سريعة العدو) شاع استعمالها في الدولة الغزنوية في المشرق الإسلامي، واستعار المسلمون الحمام الزاجل (حمام الرسائل)، وكان يُعرف بجناح المسلمين، وأفرد المسلمون لبريد الحمام ديواناً خاصاً، وألّفوا جرائداً ودفاتر بأنساب الحمام المستخدم، وكانوا يعلّقون بأرجله خلاخيل من الذّهب، وألواح في أعناقه لتمييزه عن غيره، وتكتب الرسائل التي يحملها الحمام بعبارات مختصرة على ورق رقيق وخفيف حتى لا تعيق طيرانه، وتشدّ تحت جناح الحمامة أو إلى ذيلها، ولزيادة الإطمئنان كان يكتب نسختان من الرسالة، وترسلا على دفعتين بينهما فترة من الزمن حتى إذا ضلّت إحداهما أو تعرّضت للخطر وصلت الأخرى.

واستخدم الحمام الزاجل على نطاق واسع في الدولة العباسيّة وعند الفاطميين، وغالباً ما كان يستخدم لنقل الأخبار الهامة جدّاً والتي تستدعي سرعة كبيرة وسرّيّة متناهية خاصة نقل أخبار الحروب والشؤون السياسية[(١)].

القضاء

القضاء لغة هو الحكم، والقاضي القاطع للأمور المحكم لها[(٢)]، والقضاء اصطلاحاً هو الفصل بين النّاس في الخصومات حسماً للتداعي، وقطعاً للتنازع، أو الإخبار عن حكم شرعي على سبيل الإلزام.

واستقرّ منصب القضاء في العصر العبّاسي على الفصل بين الخصوم واستيفاء بعض الحقوق العامة للمسلمين، كالنّظر في أموال المحجور عليهم من المجانين واليتامى والمفلسين وأهل السّفه، وفي وصايا المسلمين وأوقافهم وتزويج الأيامى عند فَقْد الأولياء، والنظر في الأوقاف[(٣)].

---

(١) انظر المقريزي: اتّعاظ الحنفا الخطط، جـ١، ص٢٧٥، ٢٧٦.

(٢) انظر ابن منظور: لسان العرب، جـ١٥، ص١٨٦-١٨٨ القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٥، ص٤٥١.

(٣) ابن خلدون: المقدمة، ص٢٢٠-٢٢١.

وزادت اختصاصات القاضي فكانت توكل إليه أحياناً المظالم والحسبة والصّلاة والخطابة في الجوامع والإشراف على الأماكن الدينية والمكاييل ودار الضّرب ودار العيار وبيت المال وولاية الحجّ، ومصاحبة الجيش في الحروب[1]، وفي هذه الحالة لا يلزم وجود من يقومون بالأعمال الأخرى، إذ القاضي ينوب عن الخطيب وعن المحتسب والإمام في وظائفهم باعتبارها وظائف دينيّة[2].

وكان يشترط فيمن يتولّى قضاء المسلمين عدّة شروط، كالإسلام والذكورة والحرية والعقل والعدالة والعلم بالإحكام الشرعيّة وسلامة الحواس والأعضاء[3].

تولّى رسول الله ﷺ القضاء والفصل في الخصومات بين المسلمين، ثمّ سمح لبعض الصحابة بالقضاء بين النّاس، وكان يُرسل قضاة إلى المناطق التي تخضع لحكم المسلمين فقلّد علي بن أبي طالب قضاء اليمن ولم يختبره لعلمه به لكن نبهّه إلى أدب القضاء، فقال: (إذا حضر خصمان بين يديك فلا تقضِ لأحدهما حتى تسمع كلام الآخـر)[4]، وبعث معاذ إلى ناحية من اليمن واختبره[5] ليتأكّد من سيادة العدل بين أهل اليمن، وسأله بِمَ تحكم؟ قال: بكتاب الله، فقال عليه الصّلاة والسّلام: فإن لم تجد؟ قال: بسنّة رسول الله ﷺ، قال: فإن لم تجد؟ قال: أجتهد رأيي، فقال عليه الصّلاة والسّلام: الحمد لله الذي وفّق رسول رسول الله لما يرضي الله ورسوله.

ولما تولّى أبو بكر رضي الله عنه أسند القضاء إلى عمر بن الخطاب، فبقي ستتان لا يأتيه متخاصمان لِمَا عُرِف عنه من الشدّة والحزم. أمّا في خلافة عمر فاتّسعت الدولة الإسلاميّة، ودعت الحالة الجديدة إلى إدخال نظام تشريعي لفضّ المشاكل

---

(١) ابن حجر: رفع الأصر عن قضاة مصر، جـ٢، ص٣١٠ القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٣، ص٥٥٧ المقريزي: المقفى الكبير، جـ٧، ص٣٤٧.

(٢) انظر: Bazmee Ansari: Hisba / EL, London, 1979, vol. 3, p.488.

(٣) انظر الماوردي: الأحكام السلطانيّة، ص٦٥-٦٦ أبو يعلى: الأحكام السلطانيّة، ص٦٠-٦١.

(٤) الماوردي: الأحكام السلطانيّة، ص٨٦ أبو يعلي: الأحكام السلطانيّة، ص٤٦.

(٥) الماوردي: الأحكام السلطانيّة، ص٨٦ فتحيّة النبراوي: تاريخ النظم، ص١١٠.

التي تنشأ بين الأفراد من العرب وغيرهم، واقتضى الأمر تعيين قضاة ينوبون عن الخليفة في فضّ المشاكل طبقاً لأحكام القرآن الكريم والسنّة الشريفة، فكان عمر أول من دفع القضاء إلى غيره وفوّضهم فيه، فولّى أبا الدرداء معه بالمدينة، وولّى شريحاً بالكوفة، وولّى أبا موسى الأشعري بالبصرة، وسنّ لهؤلاء القضاة دستوراً يسيرون على هديه في الأحكام، أصبح فيما بعد أساس المرافعات في القضاء، وظهر ذلك في رسالته إلى أبي موسى الأشعري وإلى غيره من القضاة حيث يقول فيها(١) :

(أمّا بعد، فإنّ القضاء فريضة محكّمة وسنّة متّبعة، فافهم إذا أُدلي إليك، فإنّه لا ينفع تكلّم بحقّ لا نفاذ له، وآس بين النّاس في وجهك وعدلك ومجلسك حتى لا يطمع شريف في حيفك ولا ييأس ضعيف من عدلك البيّنة على من إدّعى، واليمين على من أنكر، والصلح جائز بين المسلمين إلاّ صلحاً أحلّ حراماً أو حرّم حلالاً، ولا يمنعك قضاء قضيته أمس فراجعت اليوم فيه عقلك وهديت فيه لرشدك أن ترجع إلى الحقّ، فإنّ الحقّ قديم، ومراجعة الحقّ خير من التمادي في الباطل الفهم الفهم فيما تلجلج في صدرك ممّا ليس في كتاب الله تعالى ولا سنّة نبيّه، ثم اعرف الأمثال والأشباه، وقس الأُمور بنظائرها، واجعل لمن إدّعى حقاً غائباً أو بيّنة أمداً ينتهي إليه، فمن أحضر بيّنة أخذت له بحقّه، وإلاّ استحللت القضيّة عليه، فإنّ ذلك أنقى للشّك وأجلى للعمى وأبلغ للحذر، والمسلمون عدول بعضهم على بعض، إلاّ مجلوداً في حدّ أو مجرّباً في شهادة زور أو ظنيناً في ولاءٍ أو نسبٍ فإنّ الله تولّى منكم السرائر ودرأ عنكم البيّنات، وإيّاك والقلق والضجر والتنكّر للخصوم في مواطن الحقّ التي يوجب الله بها الأجر أو يحسن بها الذخر، فإنّه من يصلح نيّته فيما بينه وبين الله ولو على نفسه يكفهِ الله ما بينه وبين النّاس، ومن تزيّن للنّاس بما يعلم الله منه غير ذلك شانه الله).

وشهد العصر الأموي اهتمام خلفاء بني أميّة بالقضاء خاصة عمر بن عبد العزيز،

---

(١) الجاحظ: البيان والتبيين، جـ٢، ص٢٣-٢٤ ابن عبد ربه: العقد الفريد، جـ١، ص٧٩-٨٠ الماوردي: الأحكام السلطانية، ص٩١ ابن الجوزي: تاريخ عمر بن الخطاب، ص١٥٤-١٥٥. =

وامتنعوا عن مباشرة القضاء بأنفسهم وعيّنوا قضاة بدلاً منهم، فقد آثروا القيام بالسياسة العامة وما تتضمّنه من مسؤوليات الجهاد والفتوح وسدّالثغور[1]، وشهد أيضاً ظهور أهل الرأي الذين قالوا بقيمة الرأي وأهميته في الأحكام إلى جانب الكتاب والسنّة وهم أهل العراق، وأهل الحديث الذين عارضوا هذا الاتجاه، وقالوا بضرورة الاعتماد على الكتاب والسنّة وهم أهل الحجاز[2].

أمّا العصر العباسي، فقد شهد نشأة المذاهب الأربعة، وأصبح على القاضي أن يصدر أحكامه وفقاً لأحد هذه المذاهب، وتأثر القضاء بالسياسة حيث كان بعض الخلفاء يتدخّلون في أعمال القضاة، لذلك اعتذر بعض الفقهاء عن قبول هذا المنصب ومنهم الإمام أبو حنيفة الذي امتنع عن قبول منصب القضاء في عهد المنصور[3].

ولم يكن للقاضي في بداية الأمر كتاب أو سجل تدون فيه الأحكام، لأنها كانت تنفذ على أثر صدورها مباشرة، وكان القاضي يجلس في المسجد لأداء عمله، ثم وجدوا أن هذا لا يتفق وحرمة بيوت الله لئلا ترتفع الأصوات أو تحدث الخصومة، فصار يجلس في بيته[4]، ثم عادت مرّة أخرى لتعقد جلسات القضاء في المساجد، وفيما بعد خصصت دار لعقد الجلسات وإقامة الموظفين خلال أداء أعمالهم وحفظ السجلات المتعلقة بالقضاء.

وصارت الأحكام تسجل منذ العهد الأموي، وأصبح للقاضي أعوان يساعدونه في إتمام مهامه ليتمكن من تأدية عمله وهم:

١- الكاتب: لتحرير ما يدور في جلسة القضاء.

٢- الحاجب: لتنظيم دخول المتخاصمين إلى مجلس القضاء.

---

(١) انظر ابن خلدون: العبر، جـ١، ص٢٢١.

(٢) انظر ابن خلدون: العبر، جـ١، ص٤٤٦ محمد الزعبي: القضاء، ص٢٠١.

(٣) ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ٥، ص٤٠٦ توفيق اليوزبكي: دراسات في النظم، ص١٨١.

(٤) الماوردي: الأحكام السلطانية، ص٩٣ آدم متز: الحضارة الإسلامية، جـ١، ص٤١٣-٤١٥.

٣- الشرطة: لجلب المتهمين وتنفيذ الأحكام.

٤- الخازن: لحفظ الدعاوي والسجلات.

٥- الترجمان: للترجمة عندما يتقاضى الأعاجم ومن لا يعرفون العربية.

اتخذ العباسيون نظاماً جديداً في القضاء، حيث ظهر (قاضي القضاة) في عهد الرشيد وكان أبو يوسف صاحب كتاب الخراج هو أول قاضي للقضاة[١]، وكان مركزه مدينة بغداد وله تعيين القضاة في الولايات والأقاليم الإسلامية التابعة لدولة الخلافة.

وكان على القاضي أن يلتزم آداباً خاصة تتضمن ألاّ يقضي وهو غضبان، أو جائع أو عطشان، ولا يقضي إذا غلبه النعاس أو أقلقه المرض لأنه يحتاج إلى الفكر وهذه الأعراض تمنع صحة الفكر فتخل بالقضاء.

وكان الفاطميون يحملون مسؤولية القضاء في جميع أنحاء الدولة لقاضي القضاة الذي كان مركزه في القاهرة، ويعين نواباً في الولايات[٢]، ولهم طريقة في تعيين القضاة حيث يقدم الخليفة للقاضي بغلة شهباء يركبها تمييزاً له عن باقي الموظفين، كما تقدم له الخلع والهدايا في الأعياد والمناسبات، ويقلد سيفاً محلى الذهب، ويقرأ سجله في المسجد الجامع[٣].

وفي الأندلس كان قاضي القضاة يعين من قبل الأمير أو الخليفة، ويقيم في قرطبة، ويطلق عليه اسم (قاضي الجماعة)، وقد توكل إليه قيادة الجيوش في بعض الأحيان[٤]، وكان للقضاة زي خاص بهم، فكانوا يلبسون القلانس والطيلسان، وقلنسوة القاضي كانت من اللون الأسود إن كان من السنّة، ومن اللون الأخضر إن كان من الشيعة.

---

(١) الطبري: الرسل والملوك، جـ٨، ص١٦٢ ابن النديم: الفهرست، ص٢٨٦.

(٢) القلقشندي: صبح الاعشى، جـ٣، ص٥٥٧ المقريزي: الخطط، جـ١، ص٤٦٣.

(٣) انظر المقريزي: اتعاظ الحنفا، جـ٢، ص٥٠ محمد محاسنة: تاريخ مدينة دمشق، ص١٦٦.

(٤) انظر ابن خلدون: العبر، جـ١، ص٢٢٢.

واختلفت رواتب القضاة من عصر إلى آخر، فعمر بن الخطاب فرض لقاضي الكوفة شريح مائة درهم في الشهر إضافة إلى مؤونته من الحنطة، وزاد راتب القاضي في العهد الاموي، حيث كان يخصص له مائتي دينار على القضاء ويزداد بإضافة مهمات أخرى إليه، بالإضافة إلى أن له مائتي دينار عطاءً ومائتي دينار جائزة كل سنة، لكن هذا تغير في خلافة عمر بن عبد العزيز الذي رأى أنه لا يجوز للقاضي أن يأخذ راتباً عن خدماته الدينية، وخصص مروان الثاني عشرة دنانير في الشهر مرتباً للقضاة، وفي عهد بني العباس أجرى في خلافة المأمون للقاضي عيسى بن المكندر أربعة آلاف درهم في الشهر وأجازه بألف دينار، وأجرى المتوكل على القاضي بكار بن قتيبة ١٦٨ ديناراً في الشهر، وأجازه أحمد بن طولون بألف دينار.

المظالم

النظر في المظالم صورة من صور القضاء، لكنها تحتاج إلى سلطة أعلى من سلطة القاضي وينظر صاحبها فيما يعجز عنه القضاة، وديوان المظالم هيئة قضائية عالية، قال ابن خلدون في حديثه عن ولاية المظالم: (وهي ولاية ممتزجة من سطوة السلطة ونَصَفَةِ القضاء، وتحتاج إلى علو يد وعظيم رهبة، تقمع الظالم من الخصمين وتزجر المعتدين، وإليها النظر في البيّنات والتقرير واعتماد الامارات والقرائن وتأخير الحكم إلى استجلاء الحق، وحمل الخصم على الصلح، واستحلاف الشهود، وذلك أوسع من سلطة القاضي)[1].

وأول من نظر في المظالم هو علي بن أبي طالب، أما عبد الملك بن مروان فهو أول من أفرد يوماً للنظر في المظالم[2]، إلاّ أنه لم يجلس بنفسه لذلك وإنما كان يتولى الحكم فيها قاضيه إدريس الاودي، وكان عمر بن عبد العزيز أوّل من جلس للنظر في المظالم بنفسه من خلفاء بني أميّة، ثم جلس للمظالم عدد من خلفاء بني العباس منهم المهدي والهادي والرشيد والمأمون والمهتدي[3].

وفي العصر العباسي أُنشيء ديوان المظالم في خلافة المهدي فكان عبارة عن هيئة تحكيم عليا تشبه محكمة الإستئناف يستطيع المتخاصمين اللجوء إليها إذا أرادوا الطعن في حكم أصدره القاضي، ولم يحقق العدالة، أو لم يتمكن القاضي من تنفيذه، وفي أيّة أمور قضائية عليا، لذلك وضع الفقهاء شروطاً يجب توفرها فيمن يتولى النظر في المظالم منها: أن يكون جليل القدر، نافذ الأمر، عظيم الهيبة ظاهر العفة، قليل الطمع، كثير الورع[4].

---

(١) ابن خلدون: العبر، ص٢٢٢.

(٢) الماوردي: الأحكام السلطانية، ص٩٨ المقريزي: الخطط، جـ٢، ص٢٠٧.

(٣) الماوردي: الأحكام السلطانية، ص٩٨ فتحية النبراوي: تاريخ النظم، ص١١٦.

(٤) الماوردي: الأحكام السلطانية، ص٩٧ أبو يعلى: الأحكام السلطانية، ص٨٥، صفاء عبد الفتاح: نظم الحكم، ص٢٢٩.
=

وكانت محكمة المظالم تعقد برئاسة الخليفة أو قاضي المظالم أو من ينوب عن أحدهما، ويحدد يوم أو يومان يتفرغ فيهما صاحب الأمر للنظر في المظالم، حيث كانت تعقد المحكمة جلساتها في المسجد قبل إنشاء دور القضاء، ولا تتم جلسة قضاء المظالم إلاّ بحضور خمس جماعات هي[1]:

١- الحماة والأعوان، للقبض على من يحاول الفرار أو اللجوء إلى العنف.

٢- القضاة والحكام، للإحاطة بما يصدر من الأحكام ورد الحقوق لأصحابها.

٣- الفقهاء، للرجوع إليهم فيما يستعصي من المسائل الشرعية.

٤- الشهود، لإثبات ما عرفوا عن الخصوم، والشهادة بأن ما أصدره القاضي لا يتناقض مع الحق والعدل.

٥- الكتاب، لتسجيل المرافعات وما جرى بين الخصوم لإثبات ما لهم وما عليهم من حقوق.

أما الإختصاصات التي كان ينظر فيها قاضي المظالم فهي كثيرة منها:

١- النظر في الشكاوي التي يرفعها أفراد الرعية ضد الولاة والحكام إذا انحرفوا عن طريق الحق والعدل.

٢- النظر في تظلم الجند المرتزقة إذا نقصت رواتبهم أو تأخر دفعها.

٣- تنفيذ ما وقف من أحكام القضاة والمحتسبين، وما يعجز القضاة عن تنفيذه.

٤- الإشراف على الأوقاف العامة والخاصة.

٥- ردّ ما اغتصبه الظلمة إلى المظلومين أصحاب الحقوق.

---

(١) الماوردي: الأحكام السلطانية، ص١٠٠ صبحي الصالح: النظم الإسلامية، ص٣٢٧.

الحسبة

الحَسَبْ الكرم والشّرف الثابت في الآباء، والحَسَبُ الدين، والحَسْبُ: قَدْرُ الشيء، وحسبك كفاك، وحَسَبَ الشيء عدّه، والاحتساب والحسبة: حسن التدبير والمسارعة إلى طلب الأجر(١)، واصطلاحاً هي الأمر بالمعروف إذا ظهر تركه، والنهي عن المنكر إذا ظهر فعله(٢)، وهي وظيفة دينية ظهرت في العصر الإسلامي، تضمّنت قيام صاحبها بمراقبة الأسواق وكل ما يجري فيها بما في ذلك سلوك النّاس ومعاملتهم(٣)، ويذكر الماوردي أنّ الحسبة واسطة بين أحكام القضاء وأحكام المظالم.

كان نظام الحسبة معروفاً من أيّام الإغريق، وكان المحتسب آنذاك يقوم بمراقبة السّوق(٤) ، وهي بذلك تشبه الوظيفة التي تطوّر إليها نظام الحسبة في الإسلام.

ورغم أنّ الحسبة بدأت في الإسلام وظيفة دينية، إلاّ أنّها تطوّرت بمرور الوقت، وصارت تتضمّن بالإضافة إلى وظيفتها الأساسيّة صلاحيّات اجتماعيّة واقتصادية وإدارية، واشتملت وظائف المحتسب في الإسلام على ضبط الأسعار في الأسواق لتوفير الحاجيات الضروريّة للنّاس والمحافظة على الاستقرار(٥)، ويمكن بيان مهام المحتسب في الأمور التالية(٦):

١- فحص المقاييس والموازين الموجودة في الأسواق وإصلاح أي خلل فيها ومعاقبة المخالفين.

---

(١) ابن منظور: لسان العرب، جـ١، ص٣١٠-٣١٤/ مادة حسب.

(٢) الماوردي: الأحككام السلطانية، ص٢٩٩ الشيزري: نهاية التربة في طلب الحسبة، ص٦.

(٣) ابن الأخوة: معالم القربة في أحكام الحسبة، ص٧ محمد محاسنة: تاريخ مدينة دمشق، ص١٨٤.

(٤) Bazmee Ansari: Hisba / EL, London, 1979, vol. 3, p.488.

(٥) الشيزري: نهاية الرتبة، ص٧-٩.

(٦) الماوردي: الأحكام السلطانية، ص٣٠٤-٣١٩ الشيزري: نهاية الرتبة، ص٧-٩ ابن تيمية: الحسبة، ص١٤-١٥ ابن خلدون: العبر، جـ١، ص٢٢٥ المقريزي: الخطط، جـ١، ص٤٦٣-٤٦٤.

٢- مراقبة أسعار الحاجيات وضبطها لتوفير المواد الضرورية والحافظ على الاستقرار.

٣- مراقبة عمليات الغشّ والتزوير التي تحدث في الأسواق ومعاقبة أصحابها.

٤- مراقبة إصلاح البيوت وبنائها لإزالة المتداعي منها، ومنع الاعتداء على الطرقات.

٥- مراقبة الأطباء والمدارس، ومنع المعلمين من ضرب الصبيان ضرباً مبرحاً.

٦- تنظيف الشوارع وتوزيع المياه، ومنع الأحمال الزائدة رأفة بالحيوان.

٧- مراعاة إقامة الشعائر والعبادات كالصلاة والصيام.

٨- وظيفة أخلاقية تتضمن إبعاد الناس عن مواقف الريب ومظنّات التهم.

٩- منع الناس من ارتكاب المنكر كتعاطي المسكرات والتجسّس، ومحاسبة أصحاب السحر والشعوذة.

١٠- النظر في مساعدة الفقراء، وإنشاء الملاجيء للضعفاء والمحتاجين.

١١- الإشراف على أصحاب الحرف من الحاكة والخياطين والبزارين والصبّاغين والصّاغة والصيارفة.

ويبدو أن الرسول ﷺ مارس نشاطاً من الأمور التي أصبحت ضمن وظائف المحتسب، فكان يمرّ في السوق يتفقّده، ويدعو الناس إلى عدم الغش في أقوات الناس، أمّا الحسبة كوظيفة، فنشأت في خلافة عمر بن الخطاب الذي وضع أُسسها واختصاصاتها وقام بها بنفسه وأوكلها أحياناً إلى رجل أطلق عليه اسم المحتسب، فاستعمل عبد الله بن عتبة على سوق المدينة وبرزت كوظيفة ذات أهميّة كبيرة في عهد بني العبّاس منذ عهد الخليفة المهدي، ثمّ تطوّرت واتّسعت اختصاصاتها، ووضع الفقهاء شروطاً لمن يتمّ اختياره للقيام بمهام المحتسب، فكان يشترط فيمن يتولاّها أن يكون مسلماً حرّاً عدلاً بالغاً عاقلاً ذا رأي وصرامة وخشونة في الدين وعلم بالمنكرات الظاهرة وأن يكون عالماً من أهل الاجتهاد، عفيفاً منزّهاً عن قبول

الرشوة[1].

وكان المحتسب يمارس عمله في جميع نواحي المدينة التي يكلّف بالإشراف عليها، ويستعين بمجموعة من الأعوان[2] يعملون معه في ديوان الاحتساب ممّن اتّصفوا بالنزاهة والعفّة، وله حقّ صرفهم إذا شكّ بأحدهم أو ثبت عليه ارتكاب مخالفة لا تتّفق وعمله، وكان يمنح صلاحيّات واسعة تمكّنه من ممارسة عمله على أكمل وجه، فكان له حقّ إتلاف البضائع الفاسدة، وإراقة الخمور وحبس المخالفين، وإيقاع عقوبة التشهير (التجريس) على من يستحقّها من المخالفين، والتجريس هي عقوبة تكون بأن يركب المذنب على جمل أو حمار من الخلف ويطاف به في الأسواق ويجلّل بلباس خاص وبالأجراس وأذناب الثعالب، ويتبعه الصبيان يصيحون خلفه.

كما كان من حقّه أن يطلب جميع الباعة وأصحاب الأعمال في السوق لإحضار موازينهم ومكاييلهم ومقاييسهم وسنجهم إلى دار الحسبة للتأكّد من سلامتها، فإذا وجد فيها خللاً أتلفها وألزم صاحبها بشراء غيرها أو إصلاحها[3]، وكان يقيم في دار تسمّى دار العيار أو دار المحتسب، وسمّيت الدّكة في بعض الأحيان.

كان تعيين المحتسب في الإسلام يتمّ بسجلّ من الخليفة ويقرأ سجلّه في المسجد الجامع ويقدّم له الخليفة الهدايا والخلع، وقد تضاف وظيفته إلى وظيفة القضاء وصاحب الشرطة[4]، وتسند إلى رجال من وجوه المسلمين أو إلى أعيان التجّار الذين لهم خبرة بالأسواق[5].

---

(١) الماوردي: الأحكام السلطانية، ص٣٠٠ صفاء عبد الفتاح: نظام الحكم، ص٢٣٧.

(٢) ابن خلدون: العبر، جـ١، ص٢٢٥.

(٣) الشيزري: نهاية الرتبة، ص١٩ المقريزي: الخطط، جـ١، ص٤٦٤.

(٤) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٣، ص٥٥٨-٥٥٩ المقريزي: الخطط، جـ١، ص٤٦٣-٤٦٤ محمد محاسنة: تاريخ مدينة دمشق، ص١٨٤.

(٥) المقريزي: الخطط، جـ١، ص٤٦٣.

الفصل السابع

النُّظم العسكريَة

- نظام التجنيد.
- العناصر التي اعتمدها المسلمون في الجيش.
- أصناف الجيش الإسلامي (الفرق العسكرية).
- القيادة والرُّتب العسكرية.
- فنون القتال.
- الأسلحة العسكرية.
- دار الحرب ودار السّلام.
- آداب الحرب عند المسلمين.
- الأسطول الإسلامي.
- السفن الإسلاميّة.
- الشرطة.

نظام التجنيد

استفادت بعض الدول العربية قبل الإسلام من احتكاكها بالأمم المجاورة، ونقلت عنها بعض الأنظمة العسكرية، فكوّن الغساسنة فرقاً عسكرية منظمة هي الملحاء والشهباء[1]، وكانت عند المناذرة فرقٌ عسكرية منظمة أيضاً مؤلفة من خمس كتائب هي[2]:

١- الرهائن.

٢- الصنائع.

٣- الوضائع.

٤- الأشاهب.

٥- الدوسر.

وعندما جاء الإسلام تعرّض المسلمون لأذى قريش، وتزايد خطر الأعداء على المسلمين بعد هجرتهم إلى يثرب، فأذن الله سبحانه وتعالى للمسلمين بالجهاد، قال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾[3].

والجهاد من جاهد العدو جهاداً: قاتله، فالجهاد قتال الأعداء، وهو ركن من أركان الدين الإسلامي فرضه الله على المسلمين لوقف خطر العدو وإخراجه من أرض المسلمين إذا اعتدى عليهم.

جاء فرض الجهاد في السنة الثانية للهجرة، فأخذ النبي ﷺ يقود المسلمين بنفسه، فيرتب رجاله ويضع الكمين، ويأمر بعض الأفراد بالتريث في الهجوم لمفاجأة الأعداء، فكان المسلمون يشتركون في خوض المعارك ووضع الخطط الحربية وابتكار الفنون العسكرية وقسمة الجند إلى فئات ليتمكنوا من تحقيق أهدافهم

---

(١) محمد حسين محاسنة: بناء الدولة العربية، مطبعة البهجة، ١٩٩٩م، ص١٩٠.

(٢) ياسين سويد: الفن العسكري، ص٢٢.

(٣) سورة الحج: الآية ٣٩.

التي كانوا يحاربون لأجلها، وبرزت الأهداف التي من أجلها صار المسلمون يخوضون معاركهم ويقاتلون الأعداء وتشتمل هذه الأهداف على[1]:

١- الدفاع عن النفس وعن العقيدة الإسلامية: قال تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾[2].

٢- نشر الإسلام وحماية الدعوة الإسلامية، قال تعالى: ﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴾[3].

٣- ردّ الأمن إلى نصابه في حالة قيام الفتن والاضطرابات.

٤- محاربة من ينقض العهد.

٥- توسيع رقعة الدولة الإسلامية.

وكان الجيش الإسلامي في عهد الرسول ﷺ لا يتحدّد بفئة معيّنة وإنّما يشمل المؤمنين بالله تعالى، وقد يشترك فيه الشيوخ والنّساء والشّباب ولم يلزم عليه الصّلاة والسّلام أحداً من أصحابه بالتجنيد وإنّما يكتفي بحضّ المؤمنين على القتال، وكان يؤلمه تخلّف القادرين على القتال، ولكنّه يؤثر أن يصحبه إلى المعركة من أقبل على القتال عن رضىً وطواعية، لهذا كان يقول قبل الخروج للحرب (لا يخرجنّ معنا إلاّ راغب في الجهاد)[4].

وكان النبي يختار لجيشه القادة والأُمراء الأكثر قدرة على خوض الحروب والمعارك، فكان يختار الرجل على القوم وفيهم من هو خير منه، لأنّه أيقظ عيناً وأبصر بالحرب، فكان يختار حمزة بن عبد المطلب وسعد بن أبي وقّاص وخالد بن

---

(١) يجعل ابن خلدون دوافع الحرب إمّا غيرة ومنافسة وإما غضب لله ودينه، أو غضب للملك وسعي في تمهيده، انظر ابن خلدون: العبر، جـ١، ص٢٧١.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٩٠.

(٣) سورة التوبة: الآية ٢٩.

(٤) محمد بن سعد: الطبقات الكبرى، جـ٢، ص٢٧.

الوليد وأمثالهم لقيادة السّرايا.

واقتدى أبو بكر برسول الله ﷺ في ندب النّاس إلى القتال عند الحاجة إلى ذلك، وظلّ يستنفر الراغبين ولا يُكره المتخلّفين، ويعتمد الجند على نصيبهم من الغنائم في الأرزاق، فإذا انتهت الحرب عادوا إلى بلادهم لمباشرة أعمالهم.

وتغيّر الحال في عهد الخليفة عمر بن الخطاب حيث تشاغل النّاس بكسب المال، وفكّر عمر بالتجنيد الإلزامي الموقوف على الجهاد وحدّد للجنود النظاميين عطاياهم ورواتبهم من بيت مال المسلمين[١].

وعندما أذن عثمان بن عفّان لمعاوية بن أبي سفيان بالغزو بحراً أمره أن يخيّر النّاس ولا يكرههم[٢]. أمّا التجنيد برّاً لإتمام حركة الفتوح الإسلاميّة، فقد ظلّ في عهده إلزاماً على الجنود النظاميين.

وأكمل بنو أميّة ما بدأه عمر بن الخطاب في التنظيم العسكري، ففي بداية عهد بني أميّة تقاعس بعض المسلمين عن الحرب وانصرفوا عن القتال، فأرغمهم بنو أميّة على العدول عن ذلك، واختار معاوية بن أبي سفيان قادة الجيش والولاة الأكفياء لإدارة الأمصار الإسلاميّة، وقرّب رؤساء القبائل العربيّة من قيسية ويمانيّة وأغراهم بالمال وزاد في أعطياتهم، لأنّهم يشكّلون العمود الفقري للجيش الإسلامي، وجنّد أعداداً كبيرة للمشاركة في الحملات البريّة والبحرية، وبلغ التنظيم العسكري قمّة تطوّره في عهد عبد الملك بن مروان، الذي شهد عصره تطوّراً كبيراً في مؤسسات الدولة خاصة المؤسسة العسكرية[٣].

---

(١) الطبري: الرسل والملوك، جـ٤، ص٧١.

(٢) الطبري: الرسل والملوك، جـ٤، ص٢٦٠ ابن الأثير: الكامل، جـ٣، ص٤٨.

(٣) محمد محاسنة: تاريخ الحضارة والنظم الإسلاميّة، ص١٢٤.

العناصر التي اعتمد عليها المسلمون في الجيش

١- في عهد الرسول ﷺ كان أكثر المسلمين من العرب، فكان الجيش يتكوّن من العنصر العربي بدرجة أساسيّة.

٢- في عهد بني أميّة تمّ الاعتماد على العنصر العربي لأنّهم كانوا لا يزالون مادة الإسلام وبخاصة عرب الشّام ورغم دخول بعض العناصر الجديدة إلى الجيش إلاّ أنّ القيادة بقيت بصورة أساسيّة مقتصرة على العرب[1].

٣- في العصر العباسي كان الجيش يستند إلى عنصرين هامين هما العرب والفرس، فكانت فرق الخيالة من العرب وفرق المشاة من الخراسانية، واحتفظ العرب بكثير من المناصب القيادية والإدارية حتى خلافة المعتصم، حيث بدأ تطعيم الجيش بعناصر من الأتراك من فرغانة والشاش وما وراء النهر[2].

٤- خرج المعتصم على سياسة العباسيين التقليدية في حفظ التوازن بين العرب والأتراك في الجيش، وبدأ يعتمد على الأتراك، حيث عزلهم عن سائر النّاس وبنى لهم مدينة سامراء وجعل لهم امتيازات خاصة وأجرى عليهم الأرزاق.

٥- في الأندلس كان الجيش الإسلامي يتكوّن من العرب والبربر ثم اشترك به جماعة من الصقالبة.

٦- شكّل البربر العنصر الأساسي في الجيش الفاطمي من قبائل كتامة وصنهاجة، واشترك العرب في جيشهم بعد انتقال الخلافة إلى مصر وجماعات من الصقالبة والروم، ثم أدخل الأتراك في خلافة الظاهر لإعزاز دين الله.

٧- اعتمد الأيوبيّون منذ عهد السلطان الصالح نجم الدين أيّوب على المماليك الذين كان يتم شراؤهم من بلاد ما وراء النهر وحلّ المماليك محل بني أيّوب، وتحمّلوا مواجهة أخطار المغول والصليبيين.

---

(١) ن.م: ص١٢٤.

(٢) انظر ابن الجوزي: المصباح المضيء في خلافة المستضيء، تحقيق ناجية عبد الله، مطبعة الشعب، بغداد، ١٩٧٧، جـ١، ص٥٠٨ ابن الأثير: الكامل، جـ٥، ص٢٣٦

أصناف الجيش الإسلامي (الفرق العسكرية)

كان الجيش الإسلامي في بداية أمره يتكوّن من فرقتين أساسيتين هما: الفرسان والمشاه[(١)]، وسلاحهم السّيوف والأقواس والرّماح، ولباسهم الدروع والخوذ، وبمرور الوقت تنوّعت الأسلحة وأساليب القتال، فتنوّعت الفرق العسكرية حسب تنوّع الأسلحة أو الوظائف والمهام التي تقوم بها، لذلك عرف المسلمون الفرق العسكرية التالية[(٢)]:

١- الفرسان: وهم الجنود الذين يمتلكون الخيول، ولهم الكرّ والفرّ، ويتسلّحون بالسّيوف والحراب والرّماح الطويلة، ويلبسون الدروع والزرد ويضعون المغافر على رؤوسهم، والسّروج والتجاويف على خيولهم لحمايتها.

٢- المشاة (الرجّالة): وهم عماد الجيش، وأسلحتهم ممّا يستطيعون حمله من السيوف والحراب والرماح والخناجر، ويلبسون الدروع، وفي بعض الأحيان كان قائد المشاة واحدٌ من الفرسان[(٣)].

٣- الطليعة: وهي سرية من الفرسان تتقدّم الجيش لاستكشاف الطريق وأماكن وجود الأعداء، ويحملون عدّة الفرسان، وكانت تُعرف أيضاً بوحدة الكشافة.

٤- النفاطون (الزرّاقون): وهي فرقة وظيفتها إلقاء المواد المشتعلة والمواد القابلة للانفجار على جيوش الأعداء وحصونه ومعسكراته، وغالباً كانوا يستخدمون النفط أو النار الإغريقية كقذائف لإلقائها على الأعداء بواسطة آلات سُمّيت (النفاطات)[(٤)].

---

(١) سمّاهم أبو الحسن الماوردي ركباناً ومشاة (انظر الماردي: الأحكام السلطانيّة والولايات الدينية، مكتبة مصطفى بابي الحلبي، القاهرة، ١٩٦٠، ص٤٤).

(٢) انظر فاروق عمر فوزي: النظم الإسلاميّة، دار الخليج، العين، ١٩٨٣، ص١٨٦ جهادية القرة غولي: العقلية العربية في التنظيمات الإدارية والعسكرية، ص١٦١ وما بعدها.

(٣) إحسان هندي: الحياة العسكرية، ص١٦٣ صفاء عبد الفتاح، نظم الحكم، ص١٩٠.

(٤) الطبري: الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ج٩، ص٤٢.

٥- المنجنيقيون: وهم رماة المنجنيق والحجارة الكبيرة على الحصون والأسوار لهدمها[١]، وإيجاد منافذ لدخول المحاصرين إليها، وأطلق عليهم أيضاً اسم (العيّارين)، وعُرف قائدهم بأمير المنجنيقيين.

٦- الشّاكرية: وهم المرتزقة، وكانوا يستخدمون لأعمال الحراسة والخدمات.

٧- المهندسون: ووظيفتهم حفر الخنادق وعقد الجسور على الأنهار، وبناء المعسكرات، ويطلق عليهم اسم الفعلة أو (الكلغريّة)[٢] (٣٨٥).

٨- النشابة: وهم رماة السّهام، وكانت تسند إليهم مهمة التمهيد للحرب، وحماية الجند عند المسير، والدفاع عن الممرّات الضيّقة والأماكن الهامة[٣].

٩- الفدائيون: وهم جنود يقومون بأعمال جريئة داخل صفوف الأعداء ويبايعون أنفسهم على الموت في سبيل الله قبل أن تبدأ مهمّاتهم، وتقوم فرق منهم بدخول أرض الأعداء لاستطلاع أخباره وإمكاناته وتحرّكاته.

---

(١) أشار المسعودي أنّ المنجنيقات نصبت على بغداد عندما حاصرها جيش المأمون (انظر المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، دار الأندلس، بيروت، ١٩٦٥م، جـ٣، ص٤٣٩-٤٤٠).

(٢) الكبري: الرسل والملوك، ج ٩، ص٣٢، جهادية غولي: العقلية العربية، ص١٧٥.

(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، جـ٦، ص٤٦٩ إحسان هندي: الحياة العسكرية عند العرب، ص١٦٧.

القيادة والرّتب العسكرية

بدأت مقدّمات التنظيم العسكري في عهد النبي محمد ﷺ، فكان يكّلف أصحابه الأكفياء لقيادة العمليات العسكرية، وكان يرتّب لهم قيادات ويؤمّر عليهم أمراء، فكان يعيّن أمير الجيش من أهل السابقة في الإسلام والتجربة في الحرب[1].

وجاء أهم تطوّر للنظم العسكرية في عهد الخليفة عمر بن الخطاب الذي اتّبع نظام التعشير، فكتب إلى سعد بن أبي وقاص في القادسيّة: (إذا جاءك كتابي هذا فعشّر النّاس وعرّف عليهم وأقرّ عليهم خيارهم وعبّهم ومُرْ رؤساء القوم فليشهدوا، واجعل على الرّايات رجالاً من أهل السابقة)[2].

ثمّ أجرى عمر بن الخطّاب تعديلاً على التنظيم العسكري للعرفاء، فبعد أن كان العريف ينوب عن عشرة جنود أصبح ينوب عن قبيلته من المدنيين أو عن عشرة من الأجناد، ثمّ جمع عمر عدداً من العرافات في سبع وجعل عليه أمير الأسباع[3] الذي يأخذ العطايا ويدفعها إلى العرفاء والنقباء لتوزيعها على أصحاب الحقوق، واستحدث عمر رتباً أُخرى منها:

١- الخليفة: وكان مسؤولاً عن (٥٠) جندياً.

٢- القائد: وكان مسؤولاً عن (١٠٠) جندي.

٣- أمير الكردوس: وكان مسؤولاً عن (١٠٠٠) جندي.

٤- أمير الجيش: وكان مسؤولاً عن (١٠٠٠٠.١٠) جندي[4].

وعاد نظام العشير في العصر العباسي وهو كما يلي:

١- العريف: وهو مسؤول عن عشرة جنود.

---

(١) محمد محاسنة: تاريخ الحضارة الإسلامية، ص١٢٩ ياسين سويد: الفن العسكري، ص٣٤.

(٢) الطبري: الرسل والملوك، جـ٣، ص٤٨٨ صبحي الصالح: النظم الإسلامية، ص٤٩٢.

(٣) ابن الأثير: الكامل، جـ٣، ص٢٠٠.

(٤) صبحي الصالح: النظم الإسلاميّة، ص٤٩٣. =

٢- النقيب: وهو مسؤول عن عشر عرافات، أي مائة جندي.

٣- القائد: على عشرة نقباء، أي (١٠٠٠) جندي.

٤- الأمير: على عشرة قادة، أي (١٠.٠٠٠) جندي.

٥- الخليفة: وهو أمير الجيوش.

٦- أصبح قائد الجيش يُعرف بأمير الأمراء[١] في خلافة الراضي العباسي، ثمّ حمل لقب اسفهسلار[٢]، ثمّ أمير الجهاد.

ومن الرّتب التي عرفت عند المسلمين أيضاً:

١- ناظر الجيش أو أتابك العسكر: وهي رتبة عرفها المماليك وصاحبها يكون قائداً أعلى للجيش[٣].

٢- الدوادار الكبير: وهي وظيفة تشبه وظيفة مدير شؤون الضباط، ووظيفته المكاتبات السلطانية.

٣- أمير المجلس: وهو المسؤول عن الشؤون الصحيّة، ويشبه اليوم مدير الخدمات الطبية.

٤- أمير السلاح: وهو المسؤول عن أسلحة السلطان أثناء الحروب، ويشرف على دار السلاح.

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية، جـ١١، ص١٩٦.

(٢) يذكر ابن الطوير أنّ الاسفهسلار وظيفة كانت موجودة أيام الفاطميين ولصاحبها أمر الأجناد على اختلاف طبقاتهم (انظر ابن الطوير: نزهة المقلتين، ص١٢٣).

(٣) محمود نديم: الفن الحربي للجيش المصري، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص٦٩، ٧٥. =

فنون القتال

عرفت عند المسلمين مجموعة من الفنون القتالية أهمّها:

١- **نظام الصفوف:** وهو أوّل الفنون العسكرية التي عمل بها المسلمون، فكانوا في عهد الرسول ﷺ يدخلون معاركهم على شكل صفوف كما يفعلون في الصّلاة لا يتقدّم أحد منهم عن الصف ولا يتأخّر، وقد ذكر الله سبحانه وتعالى هذا الفنّ القتالي في كتابه العزيز، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ﴾(١)، وهو ثلاثة أقسام: الصف المستوي، والصف الهلالي، والصف المعطوف المقوّى بالكراديس(٢).

٢- **التعبئة الخماسيّة:** وهي الفنّ القائم على قسمة الجيش إلى خمسة أقسام على كلّ منها قائد، وعرفت أيضاً باسم الخميس، وفيها يتولّى القائد العام للجيش الإشراف على قلب الجيش ويكون عن اليمين فرقة تسمّى الميمنة، وعن اليسار أخرى تسمى الميسرة، وفي الأمام كتيبة تسمّى المقدّمة، وفي الخلف كتيبة تسمى الساقة أو المؤخّرة، وحلّت هذه التعبئة محل نظام الصفوف، واستخدمها خالد بن الوليد في موقعة مؤتة سنة ٨هـ/ ٦٣٠م، ثمّ استخدمت على نطاق واسع في العصر الأموي.

٣- **الكراديس:** واستعمله عمر بن الخطاب بعد أن ازداد عدد الجنود وتعدّدت أسلحتهم وحاربوا الفرس والروم، فاستعملوا أساليبهم في الحرب، ويكون فنّ الكراديس بأن يقسّم الجيش إلى عدّة كتل تسمى كل واحدة منها كردوساً عليه قائد وراية، وبين الكردوس والآخر مساحة مناسبة، واستخدمه خالد بن الوليد في معركة اليرموك سنة ١٣هـ/ ٦٣٥م، وكان معه ما بين ٣٦-٤٠ كردوساً(٣).

---

(١) سورة الصف: الآية ٤.

(٢) انظر جهادية الغولي: العقلية العربية، ص١٦٧.

(٣) الطبري: الرسل والملوك، جـ٣، ص٣٩٦-٣٩٧.

٤- الكرّ والفرّ: وهو من الفنون القديمة، استخدمه العرب قبل الإسلام، فكان الجيش يحمل بكل قوته على العدو من النشابة ومن يضربون بالسيوف ويطعنون بالرّماح، فإذا صمد العدو تراجعوا وأعادوا تنظيم صفوفهم وكرّوا عليه، وهذا الفن هو قتال العرب والبربر في المغرب[١].

٥- الرابطة: وهو فنّ عسكري جديد ابتكره المسلمون في خلافة هشام بن عبد الملك لتأمين الثغور الشرقيّة، والرابطة هي وحدة متحرّكة من الفرسان تتميّز بالانتقال السريع من نقطة عسكرية إلى أخرى، فقام المسلمون بتعزيز المراكز العسكرية في خراسان بهذه الروابط.

وكذلك وضع المسلمون وحدات عسكرية في المدن المفتوحة القريبة من الثغور أطلقوا عليها اسم (المسالح)، وظيفتها حفظ الطرق المهمّة ومداخل المدن في الليل والنهار في المناطق البعيدة عن مقرّات الجيش، واستخدمت المسالح في خلافة المعتصم في أذربيجان وأردبيل[٢].

٦- الصوائف والشواتي: واستخدمها المسلمون تطبيقاً لمبدأ الهجوم التعرّضي، وتعني إرسال قوات عسكرية يتألّف عدد أفرادها ما بين (١٥٠٠-٢٠٠٠) جندي[٣]، وواجبها الأساسي هو الإغارة على مناطق العدو الحدودية والإستراتيجية، وتوجيه ضربات خاطفة سريعة لمناطق الأعداء، ثمّ الانسحاب والعودة، وتكون مدّة الشواتي أقصر من الصوائف نتيجة البرودة وصعوبة العمليات العسكرية في الشتاء، فمتوسط مدّة الشواتي عشرون يوماً، وتستغرق الصوائف ستون يوماً[٤].

واستخدم المسلمون النّار الإغريقية المحرقة في هدم الأسوار وتخريبها، كما قاموا بحفر الخنادق حول المدن، وإنشاء أسوار متعرّجة تكثر فيها الزوايا المتداخلة والخارجة، واستخدم المسلمون هذا الفن في المغرب والأندلس.

---

(١) انظر ابن خلدون: العبر، جـ١، ص٢٧١-٢٧٣.

(٢) الطبري: الرسل والملوك، جـ٩، ص١١.

(٣) البلاذري: فتوح البلدان، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ١٩٧٨م، ص١٦٩.

(٤) قدامة بن جعفر: الخراج وصناعة الكتابة، ص١٩٢-١٩٣. =

الأسلحة العسكريّة

استخدم المسلمون نوعين من الأسلحة في حروبهم هما: الأسلحة الدفاعيّة، والأسلحة الهجوميّة (القتاليّة)[١].

أ- الأسلحة الدفاعية: وتشتمل على:

١- **الدرع**: وهو ثوب يُنسج من حلقات حديديّة متداخلة بعضها إلى بعض تستعمل لتغطية البَدَن، وقد تكون له أكمام طويلة ويغطّي الجسم كلّه ويسمّى (سابغة)، وقد تكون له أكمام قصيرة إلى منتصف الذِراع ويسمّى (البتراء)، وقد يشتمل على درع يغطّي الوجه يسمّى المغفر)، وآخر لتغطية الرأس يسمّى (البيضة).

٢- **التُّرس**: وهو صفحة من الفولاذ تحمل باليد للوقاية من ضربات الأسلحة[٢]، وقد يصنع من الخشب ويغطى بطبقة من الجلد ثمّ يرصّع بالمسامير، وكانت له أسماء عديدة منها المجنّ والدرقة.

٣- **الجوشن**: وهو درع يتكوّن من حلقات حديدية متداخلة، وفيها صفائح معدنيّة لتغطية الظهر.

٤- **الحسك الشائك**: وكان المسلمون يصنعونه من حسك السعدان، وهو شوك صلب له ثلاث شعب تثبّت اثنتان منها في الأرض وتبقى الثالثة بارزة لتعطب بها حوافر الخيل وأقدام المقاتلين عند الإغارة على المسلمين، ثمّ صنعوه من أصابع حديدية مدبّبة ذات ثلاث شعب، وكان يوضع في الطرقات التي يمرّ بها الأعداء، أو حول الخنادق ليمنع تقدّم الخيول والرّجال[٣].

---

(١) ابن قتيبة: عيون الأخبار، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ص٢١١-٢١٨ جهادية الغولي: العقلية العربية، ص١٨٤-١٩٢.

(٢) انظر الطبري: الرسل والملوك، جـ٩، ص٤١.

(٣) ابن سعد: الطبقات الكبرى، جـ٢، ص١١٤ صبحي الصالح: النظم الإسلاميّة، ص٥٠٢.

٥- **حفر الخنادق**: وكان أوّل استخدام لها عند المسلمين في غزوة الأحزاب عندما أشار سلمان الفارسي على النبي ﷺ بحفر خندق حول المدينة لردّ خطر قريش والأحزاب عن المدينة فأُخذ برأيه، ثمّ صار المسلمون يحفرون الخنادق حول المدن ويملأونها بالماء لحماية المدن من الأخطار، كما فعل الحجّاج بعد بناء مدينة واسط، وكذلك عند بناء مدينة بغداد أيّام أبي جعفر المنصور.

٦- **بناء الحصون والأسوار**: وقد تعلّم العرب بناء الحصون والآطام من اليهود الذين استخدموها في المدينة المنوّرة أمام المسلمين، إلاّ أنّ استخدامها ظلّ محدّداً حتى العصر العباسي، ثمّ زاد الاهتمام ببناء الحصون والأسوار كأساليب دفاعيّة خاصة في مناطق الثغور، وكانوا يجعلون في هذه الأسوار أبراجاً تزيد قوّتها وتحصينها، فلمّا بنى أبو جعفر المنصور بغداد جعل حولها سورين[1]، وعندما بنى جوهر الصقلي مدينة القاهرة حصّنها بالأسوار[2] والأبراج.

٧- **الأسلحة الهجوميّة (القتاليّة)**: وتشتمل على:

١- **السيف**: وهو أكثر أنواع الأسلحة استعمالاً، وقد اختلفت أنواع السيوف تبعاً لجودتها وأماكن صناعتها، وكان منها السيوف اليمانية نسبة إلى اليمن وهو مكان صناعتها، والشّامية نسبة إلى الشام، والمشرفيّة نسبة إلى مشارف الشّام، والهندية والخراسانية والدمشقية وغيرها.

وكانت السيوف أنواع منها الطويل ومنها القصير، فالسيوف الطويلة سيوف الفرسان، والقصيرة سيوف المشاة[3]، وكانت السيوف تصنع من الحديد أو الفولاذ، وكانت تطلى حتى لا تصدأ، ففي دمشق كانت السيوف تصنع وفق أُسلوب خاص أُطلق عليه اسم الدمشقة، وتنقش بماء الذهب وتزيّن بكتابة الأشعار.

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، جـ٥، ص١٤-١٥.

(٢) المقريزي: اتّعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، ١٩٩٦م، جـ١، ص١١١.

(٣) الجاحظ: البيان والتبيين، دار مكتبة الهلال، بيروت، ١٩٨٨م، جـ٣، ص٧.

٢- **الرمح**: ويسمّى القناة، وهو عبارة عن عود طويل في رأسه حربة، ويستعمل في الطعن عند القتال، وهو نوعان: الأول قصير يستعمله المشاة، والآخر طويل ويستعمله الفرسان، وأقصر أنواع الرماح هو (النيزك). واستعمل المسلمون نوع من الرماح عُرف باسم (المزاريق) وهي رماح مغموسة بالكبريت والنّار والزيت النفطي.

٣- **القوس والسهم**: ويصنع القوس من الخشب على شكل مقوّس ويُشدّ في طرفيه الوتر، وتقذف به السهام، وهي أنواع عديدة منها الأقواس العربية وتعرف (بالحسيان) وترمي عدداً من السهام في وقت واحد، أمّا السهم فهو عود رفيع من شجر صلب يوضع في قمّته نصل من الحديد المدبّب ويرمى به من القوس، وله أسماء عديدة منها النبل والنشّاب، وكان المسلمون يجعلون سهامهم في جعبة تسمّى الجفر أو (الكنانة)[١].

٤- **المنجنيق**: وهو عبارة عن عمود خشبي طويل وقويّ يوضع على عربة أو على قاعدة خشبيّة ويركّب في أعلى هذا العمود ذراع المنجنيق بحيث يكون قابلاً للحركة كذراع الشادوف[٢]، ويكون ربعه نحو الأسفل وثلاثة أرباعه نحو الأعلى. ويتدلّى من الجهة السفلى للذراع صندوق خشبي مملوء بالرصاص والحجارة والمواد الثقيلة جداً، ويختلف حجمه باختلاف المنجنيق، ومن رأس الذراع العلوي تتدلّى شبكة أو كفّة يوضع فيها الحجر المراد قذفه، وعند إلقاء قنبلة المجانيق يجذب أعلى الذراع إلى الأرض بقوة الرجال عن طريق حبل يربط بنهايته من الأعلى فيرتفع الثقل المقابل من الحجارة والرصاص والحديد الذي بالصندوق، ثمّ يترك الذراع فجأة فيهوي الثقل ويرتفع أعلى الذراع ليقذف القنبلة إلى الهدف المراد ضربه.

واستخدم المسلمون المجانيق لإلقاء قذائف النفط والمواد المحرقة على مراكز

(١) النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، المطبعة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٥، جـ٦، ص٢٢٢-٢٢٦.

(٢) الشادوف: آلة من الآلات التي استخدمها المسلمون في ريّ المزروعات.

العدو، واستخدموا المجانيق للهجوم والحصار، وتكون هناك مجموعة من الجنود مخصّصة للعمل مع المجانيق أو نقله من مكان إلى آخر.

والمجانيق أنواع، فمنه الصغير لإلقاء القذائف الصغيرة أو لإلقاء النار الإغريقية، وهو المعروف (بالعرّادة)[١]، وكانت العرّادات تحمل بالسفن لاستخدامها في الحروب البحرية، وعرف المسلمون استخدام المنجنيقات منذ عهد الرسول ص، فقد أرسل عروة بن مسعود وغيلان بن سلمة إلى جُرش ليتعلّموا صناعة الدبّابات والمنجنيق والضبّور[٢]، ثمّ استخدمت على نطاق واسع في العصور التالية.

٥- **الدبّابة والضبّور**: الدبّابة آلة من الخشب تغلّف بالجلود المنقوعة بالخلّ حتى لا تتأثّر بالنّار، ويقوم الرجال بدفع هذه الدبابة أو يتم تركيبها على عجلات مستديرة ويتم تحريكها فوق العجلات، وتكون على شكل برج من عدّة أدوار وفي كل دور عدد من الجنود، ويكون سلاح الدور السفلي من الرماح والأسنة، وسلاح الدور العلوي من الأقواس النبال.

وكانت تستخدم الدبّابات في الحصار وهدم الأسوار خاصة عندما يتعذّر قيام المجانيق بذلك[٣]، وتستطيع الدبّابة السّير في الأراضي السهلة والمناطق الجبلية، وقد تعلّم المسلمون استخدام الدبابات منذ القرن الأول الهجري/السابع الميلادي، فاستعملوها في حصار الطائف[٤]، ثمّ طوّروها وأدخلوا عليها الكثير من التحسينات وصنعوا دبابات كبيرة، واستخدمت في فتح عمورية، والدبّابة هي الضبر أو الضبّور، وإنما سميت دبابة لأنّها تدبّ دبيباً حتى تصل إلى الحصون.

وكانت بعض الدبّابات تزوّد بآلة لهدم الأسوار تعرف (برأس الكبش)، وسمّيت كذلك لأنّها تشبه رأس الكبش بقرونه وجبهته، وهي عبارة عن رأس حديدي ثقيل

(١) انظر مسكويه: تجارب الأمم، شركة المدن الصناعية، القاهرة، ١٩١٥، جـ٦، ص٥٨١.
(٢) ابن كثير: البداية والنهاية، جـ٤، ص٣٤٤.
(٣) انظر البلاذري: فتوح البلدان، ص١٨٨.
(٤) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، جـ٢، ص١٨١ فيليب حتي: تاريخ سورية ولبنان، جـ٢، ص٨٨-٨٩.

يتمّ تركيبه داخل برج خشبي في أسفل الدبّابة، ثمّ يدلّى من سطح البرج محمولاً بسلاسل تربطه في مكانين مناسبين، وعندما تقترب الدبّابة من السّور يتمّ أرجحة رأس الكبش ويصدم به السور لهدمه أو نقبه(١).

٦- **الأسلحة الناريّة**: وهي قذائف النّار أو النفط، وكانت تصنع من خليط الكبريت مع النفط الأبيض ويوضع في قوارير يقذف بها العدو، وقد يوضع مع الخليط حجارة وتلف في نسيج من الكتّان على شكل كرة وتوضع في كفّة المجانيق لتلقى على الأعداء.

دار الحرب ودار السّلام

تبلور مفهوم دار الحرب ودار السّلام في الإسلام بعد قيام حركات الفتح الإسلامي، فقد ترتّب على قيام الحروب تقسيم البلاد من حيث علاقتها بالحرب إلى ثلاث دور هي:

١- **دار السّلام (الإسلام)**: وهي البلاد التي تطبّق فيها نظم الإسلام الدينيّة والسياسيّة، وكانت تشمل الجزيرة العربية وما فتحه المسلمون من البلدان، وسمّيت أيضاً دار العدل، لأنّ حكّام المسلمين كانوا يلتزمون فيها العدل بين النّاس، وتعتبر هذه الدار وطن المسلمين والذميين والمستأمنين(٢).

٢- **دار الحرب**: وهي الدار الأجنبيّة التي لا تسود فيها أحكام الإسلام أيّاً كانت نظمها القانونيّة والسياسيّة.

٣- **دار العهد**: وهي البلاد التي لم يظهر عليها المسلمون، وعقد أهلها الصّلح مع المسلمين على خراج يؤدّونه عن أرضهم وليس على جزية تؤخذ عن رؤوسهم لأنّهم في غير دار الإسلام(٣).

---

(١) صبحي الصالح: النظم الإسلاميّة، ص٥١١.
(٢) إحسان هندي: الحياة العسكرية عند العرب، ص١٦٩.
(٣) الماوردي: الأحكام السلطانية، القاهرة، ١٩٦٦م، ص١٣٣.

آداب الحرب عند المسلمين

١- عدم الاعتداء وهذا يستوجب دعوة الأعداء للإسلام قبل القتال إذا كانوا مشركين، فإن أبوا دعوهم لدفع الجزية.

٢- عدم مقاتلة الأعداء عند المسجد الحرام إلاّ إذا قاتلوا المسلمين فيه، قال تعالى: ﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[١].

٣- عدم مقاتلة الأعداء في الأشهر الحُرم، إلاّ إذا قاتلوا المسلمين فيها[٢].

٤- احترام العهود والمواثيق والوفاء بها، قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾[٣].

٥- إجارة المسلم للمشرك إذا استجار به، قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾[٤].

٦- الكفّ عن القتال إذا كفّ عنه الأعداء، أي إذا دخلوا في الإسلام، قال تعالى: ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[٥].

٧- معاملة الأسرى: وذلك بالمنّ والفداء، قال تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ﴾[٦]. فقد تعوّد المسلمون معاملة الأسرى بالحسنى، والرّفق بالأطفال والشّيوخ والنّساء[٧].

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٩١.

(٢) ياسين سويد: الفن العسكري، ص٤٩.

(٣) سورة النحل: الآية ٩١.

(٤) سورة التوبة: الآية ٦.

(٥) سورة البقرة: الآية ١٩٣.

(٦) سورة محمد: الآية ٤.

(٧) يوسف إبراهيم السلوم: بحوث ودراسات عسكرية، دار المريخ، الرياض، ١٩٧٩، ص١٣.

٨- وصيّة الحاكم للجيش وقادته قبل التوجّه للحرب،فكان الرسول ﷺ يوصي أصحابه إذا وجّههم لحربٍ أو لغزوٍ ولم يذهب معهم، كما كان الخلفاء الراشدون يفعلون ذلك، فكانوا يوصون أُمراء الجيوش ويوجّهون لهم بعض النصائح قبل تحرّكهم إلى القتال.

٩- دعى الإسلام إلى عدم التعدّي على النّساء والأطفال والشّيوخ وعدم قتل الدواب أو قطع الأشجار(١)، لما في ذلك من إضرار لا يسمح بها الإسلام، ودعاهم أيضاً إلى عدم الاعتداء على من اعتزل النّاس للعبادة.

الأسطول الإسلامي

لم تكن للمسلمين عناية بالأسطول في صدر الإسلام لبداوتهم وعدم تعوّدهم ركوب البحر(٢)، رغم أنّ العرب خبروا أُمور البحار عندما أسّسوا حضاراتهم في اليمن وكانت لهم رحلات تجارية عبر المحيط الهندي والبحر الأحمر، كما اشتهر الفنيقيون في سواحل بلاد الشام، والقرطاجيون في شمال إفريقية بالملاحة البحرية التجاريّة.

وكان أوّل من ركب البحر من المسلمين العلاء بن الحضرمي أمير البحرين في خلافة عمر بن الخطاب، فقد توجّه لغزو فارس بجيش من المسلمين من غير إذن الخليفة، وغرقت السفن التي عبروا بها فتوجّهوا إلى البصرة بعد أن هزموا الفرس وعادوا محمّلين بالغنائم عن طريق البرّ، فلما علم عمر بذلك غضب وعزل العلاء عن ولاية البحرين(٣).

---

(١) انظر وصية النبي ﷺ لجيش مؤتة عند الواقدي: المغازي، جـ٢، ص٧٥٨ ابن عساكر: تاريخ دمشق، جـ٢، ص٩ المقريزي: إمتاع الأسماع، جـ١، ص٣٤٦.

(٢) ابن خلدون: العبر، جـ١، ص٢٥٣.

(٣) الطبري: الرسل والملوك، جـ٤، ص٨٠-٨١.

وظهرت فكرة إنشاء أسطول إسلامي عند معاوية بن أبي سفيان الذي تولّى أمر الشّام بعد موت أخيه يزيد، وكان من أكثر القادة احتكاكاً بالقوى البيزنطية التي اندحرت في البرّ الشّامي، وكان يراقب الصعوبات والعراقيل التي تعرّض لها أخوه يزيد وهو يقوم بغزو مدن الساحل الشّامي لفتحها خاصة قيسارية وعسقلان وطرابلس، فكتب إلى عمر بن الخطاب يستأذنه في إنشاء أسطول بحري للقيام بغزو الروم في البحر، فكتب الخليفة عمر إلى عمرو بن العاص وقال له: صف لي البحر، فكتب إليه: (إنّ البحر خلق عظيم يركبه خلق ضعيف، دود على عود)[1]، عندها أمر عمر بمنع المسلمين من ركوب البحر ولم يأذن لمعاوية في طلبه[2].

ولمّا آلت الخلافة إلى عثمان بن عفان عاد معاوية الطلب إليه ليسمح له ببناء الأسطول، إلاّ أن عثمان رفض أول الأمر، وطلب منه أن يقوم بتحصين السواحل وشحنها بالمقاتلة، فاستجاب لطلبه، غير أنّه بقي يفكّر بإنشاء الأسطول، لأنّ السفن البيزنطيّة كانت تقلق المسلمين على طول الساحل الشّامي، فعاود الطلب من الخليفة عثمان وهوّن عليه ركوب البحر وبرّر الحاجة إلى الأسطول لمقاومة الأخطار البحرية التي تقوم بها أساطيل الدولة البيزنطية، وحاجة المسلمين لفتح الجزر المواجهة لسواحل الشّام مثل أرواد وقبرص ورودس، فسمح له الخليفة عثمان واشترط عليه ألاّ يجبر النّاس على الغزو في البحر وإنّما يكون بالتطوّع والاختيار[3].

أنشأ معاوية الأسطول الإسلامي الأوّل في سواحل مدينة عكّا، واستعان على ذلك بصنّاع من الرّوم، ومهرة البلاد من أحفاد الفنيقيين، واستفاد من الأخشاب المتوفّرة في غابات بلاد الشام لبناء السّفن.

بعد أن أتمّ معاوية بناء الأسطول قام بغزو جزيرة قبرص فخرج معه جَمْعٌ من الصحابة منهم أبي الدرداء وأبي ذر الغفاري والمقداد بن الأسود وعبادة بن الصامت

---

(١) انظر ابن خلدون: العبر، جـ١، ص٢٥٣ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، جـ٣، ص٤٨.

(٢) البلاذري: فتوح البلدان، ص١٥٧ الطبري: الرسل والملوك، جـ٤، ص٢٥٨، ٢٦٠.

(٣) الطبري: الرسل والملوك، جـ٤، ص٢٦٠ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، جـ٣، ص٤٨.

وغيرهم[1]، وذلك سنة ٢٨هـ/ ٦٥٠م، فسارع أركون الجزيرة إلى طلب الصلح، فصالحه المسلمون على جزية قدرها سبعة آلاف دينار كل سنة.

واهتمّ معاوية ببناء دور لصناعة السفن في المدن الساحلية في صور وبيروت والإسكندرية، وأخذت القوة البحرية عند المسلمين تزداد كل يوم، فلمّا أحسّ الروم بخطر المسلمين وتعاظم قوّتهم البحرية، فكّروا بالقضاء عليها حتّى يتمكّنوا من الاستمرار في السيطرة على السيادة البحرية في البحر المتوسط، فكان اللقاء الشهير بينهم وبين المسلمين في البحر المتوسط في معركة ذات السواري، سنة ٣١هـ/ ٦٥٢م[2]، حيث تولّى قيادة المسلمين فيها كل من معاوية بن أبي سفيان على أهل الشّام، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح على أهل البحر، وبات المسلمون يُصلّون ويدعون الله تعالى، فقد كانت سفن الأعداء تفوق سفن المسلمين أضعافاً كثيرة، ثمّ أصبحوا وقد أجمع قسطنطين على قتال المسلمين بقوّات الروم واقتربت السفن من بعضها، فأقدم المسلمون على ربط السفن بعضها إلى بعض، ثمّ دارت المعركة واقتتل الفريقان قتالاً شديداً، ونصر الله سبحانه وتعالى المؤمنين، فقتلوا من الروم مقتلة عظيمة وانهزم قسطنطين بمن استطاع وغنم المسلمون منهم غنائم كثيرة[3].

تطوّر الأسطول الإسلامي:

زاد اهتمام المسلمين بالأسطول في العصر الأموي، وقاموا بحملات عديدة على جزر البحر المتوسط: رودس وكريت وصقلية وفتحوها، وتطوّرت ترسانة الأسطول الإسلامي حتى بلغ تعدادها (١٧٠٠) سفينة ولها موانى على سواحل البحر المتوسط من الشام إلى مصر إلى تونس في كل من صور وبيروت ودمياط والإسكندرية ومالطة وجزر البليار وجنوة وسواحل فرنسا وإيطاليا، وأُقيمت في مصر دور لصناعة السّفن

---

(١) البلاذري: فتوح البلدان، ص١٥٨-١٥٩.

(٢) الطبري: الرسل والملوك، جـ٤، ص٢٨٨-٢٩٠.

(٣) الطبري: الرسل والملوك، جـ٤، ص٢٩٠ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، جـ٣، ص٥٨.

أهمّها دار الصناعة في جزيرة الروضة، ثمّ أقام الفاطميون داراً أُخرى عرفت بالمقس[1].

ولم يقتصر الاهتمام البحري على البحر المتوسط وإنّما تعدّاه إلى المحيط الهندي، فكان للمسلمين أسطولٌ تجاريٌ إلى جانب الأسطول الحربي[2]، وكان مجال اهتمامه في البحار الشرقيّة والجنوبيّة وهي الخليج العربي والمحيط الهندي والبحر العربي والبحر الأحمر، وأصبحت موانى اليمن وعُمان محطّات تجاريّة تنقل معظم تجارة الشرق الأقصى إلى أوروبا والعالم الإسلامي، ولعب تجّار المسلمين المتّجهون إلى الشرق دوراً كبيراً في نشر الإسلام في الهند وجزر سيلان وسومطرة وجاوا وأجزاء من الصين، بالإضافة إلى مناطق شرق إفريقية خاصة موزامبيق وزنجبار.

وازداد النشاط البحري عند المسلمين في العصر العبّاسي الأوّل خاصة في عهد الرشيد وابنيه المأمون والمعتصم، فالرشيد قام باستكمال التحصينات في منطقة الثغور وأسّس العواصم[3].

وفي خلافة المأمون أرسل والي تونس زيادة الله بن الأغلب (الأول) سنة ٢١٢هـ/ ٨٢٧م أسد بن الفرات قاضي القيروان في حملة بحرية إلى صقلية فتمكّن من فتحها[4]، واستمرّ النشاط البحري حتّى تكاملت السيطرة الإسلاميّة على البحر المتوسط في خلافة المعتصم، وتمكّن المسلمون في الأندلس من فتح الجزر المواجهة لسواحلهم الشرقيّة مثل ميورقة ومنورقة ويابسة وغيرها.

وكان المسؤول عن الأساطيل الإسلامية يُعرف باسم (أمير البحر)، ونقلت هذه التسمية إلى اللغات الأجنبية بلفظها العربي وهي Admiral وهو قائد الأسطول

---

(١) المقريزي: اتّعاظ الحنفا، جـ١، ص١٣٩.
(٢) محمود إسماعيل: تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، مكتبة الفلاح، الكويت، ١٩٩٢م، ص٩١.
(٣) جهادية غولي: العقلية العربية، ص٢٣٨.
(٤) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، جـ٥، ص١٨٦ ابن خلدون: العبر، جـ١، ص٢٥٣.

والمسؤول عن رئاسة السفن الحربية وإدارة المعركة(١).

وعرف المسلمون وظيفة رئيس الأسطول أو مقدم الأسطول، وهو رئيس الملاحين الذي يشرف على سير الأسطول في البحر ومعرفة مسالك البحر وطرقه، وعرفوا النواتية وهم البحارة الذين يتولّون العناية بالأسلحة وتوجيه العمل البحري، وكان بقية ركّاب الأسطول هم الجند الذين يتولّون القيام بالأعمال القتاليّة في البحر، وكانوا يعرفون باسم المجاهدين أو الغزاة.

السّفن الإسلاميّة

استخدم المسلمون سُفناً ومراكب تشبه ما كان موجوداً عند الأُمم الأخرى، إلاّ أنّهم حسّنوا في صناعتها وطوّروها حسب الحاجة، فظهرت عندهم أنواع متعدّدة من السّفن أهمّها:

١- **الشواني**: وهي أكبر أنواع السفن، وكانت مزوّدة بالأبراج والقلاع، وتُحمل فيها الأسلحة والآلات الحربية والأسلحة النفطية التي استخدمت في الهجوم والدفاع في البحر، وكانت تحتوي على أهراء لخزن الحبوب، وصهاريج لخزن المياه العذبة التي تستعمل للشرب(٢).

٢- **البُطس**: وهي سفن حربيّة كبيرة تشتمل على عدّة طبقات، وظيفتها حمل الزّاد والمتاع والسّلاح بالإضافة إلى حمل المقاتلين، فكانت عبارة عن ناقلات بحريّة.

٣- **الحرّاقات**: وتُعرف أيضاً بالحراريق وهي مراكب كبيرة لكنّها أقل حجماً من الشواني، ويتمّ تجهيزها بالآلات الحربية الثقيلة كالمنجنيقات والأسلحة النارية

---

(١) عبد المنعم ماجد: تاريخ الحضارة الإسلامية، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٧٢م، ص٧٧ جهادية غولي: العقلية العربية، ص٢٤٥.

(٢) المقريزي: الخطط، جـ٢، ص١٩٤-١٩٥ عبد المنعم ماجد: تاريخ الحضارة الإسلاميّة، ص٧٤.

المحرقة، لهذا سمّيت حرّاقات، وكانت تسمّى العشاريات[1].

٤- **القراقير**: وهي من السّفن الكبيرة لكن وظيفتها تقديم الخدمات والتموين، فهي تحمل الزّاد والمتاع وأنواع الأسلحة التي يمكن بها إمداد السفن الحربية عند الضرورة.

٥- **الشلنديات**: وهو نوع من المراكب المسطّحة، تحمل السّلاح والمقاتلة، كما استخدمت في نقل البضائع.

٦- **الطرّادات**: وهي سفن صغيرة الحجم سريعة السّير، وتستعمل لحمل الخيول ونقلها إلى ميادين القتال، أو لنقل الأخبار، أو مطاردة الأعداء، ولهذا سمّيت الطرّادات.

٧- **السميريّات**: وهي سفن استخدمها العباسيون لحمل آلات الحرب والسلاح واستخدمت في الأنهار لحماية مداخلها، وقليلاً ما كانت تستخدم للتجارة.

٨- البوارج: وهي سفن فارسيّة الأصل، استخدمت في الخليج العربي، وهي من السفن الضخمة، ولا تزال تطلق على بعض أنواع السفن العسكرية إلى اليوم.

٩- الزيازب[2]: وهي سفن كبيرة وسريعة الحركة، استخدمت في الأنهار كنهر النيل ونهري دجلة والفرات في العراق.

---

(١) المقريزي: الخطط، جـ١، ص٤٨٢.

(٢) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص٣٢.

الشّرطة

الشرطة من شَرَطَ، والشرط: العلامة، واشراط السّاعة أعلامها، ورجل شرطي منسوب إلى الشرطة، وسمّي الشرطة كذلك لأنّه كانت لهم علامات خاصة يتميّزون بها[1]، والشرطة هي إحدى الوظائف الهامة في الدولة الإسلاميّة، وكثيراً ما كانت تضاف إلى القضاة أو ترتبط بهم لأهميتها لهم، إذ إنّها تساعد القاضي في تنفيذ أحكام القضاء وإقامة الحدود[2].

كان عمر بن الخطاب هو الذي أدخل نظام العَسَس، وهو أوّل من عسّ بالليل[3]، والعسّ هو الطّواف بالليل لتتبّع أخبار اللصوص وطلب أهل الفساد ومن يُخشى شرّهم، وقيل إنّ وظيفة الشرطة ظهرت في خلافة عثمان بن عفان ووجدت في الأمصار الإسلاميّة حيث أوكل إلى مجموعة كبيرة من الشرطة حراسة بيت المال والسجن في البصرة منذ زمن أبي موسى الأشعري، وولّى علي بن أبي طالب شرطة الكوفة لقيس ابن سعد الأنصاري، إلاّ أنّ وظيفة الشرطة كانت عامة في العهد الراشدي، وبدأت معالمها تتحدّد في عهد خلفاء بني أميّة، وأصبحت أداة تنفيذ يقوم صاحبها بعمله بأمر من الخليفة أو الوالي، وكانت تُسند إلى رجال من عليّة القوم ومن أهل العصبية والقوّة[4].

وفي عهد هشام بن عبد الملك انفصلت الشرطة عن القضاء واستقلّ صاحبها بالنّظر في الجرائم، وأنشأ هشام نظاماً وسطاً بين شرطة الأمن وشرطة الجيش سمّاه

(١) ابن منظور: لسان العرب، جـ٧، ص٣٢٩-٣٣٠ / مادة شرط أحمد عبد السلام ناصف: الشرطة في مصر الإسلاميّة، ص١٠٠.

(٢) ابن خلدون: العبر، جـ١، ص٢٢٢ القلقشندي: صبح الأعشى، جـ١٠، ص٢٠٢، ٢١٥ أحمد عبد السلام: الشرطة، ص٩٩.

(٣) ابن الجوزي: المصباح المضيء في خلافة المستضيء، جـ١، ص٣٣٧ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، جـ٣، ص٣٠-٣١ السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص١٣٧.

(٤) انظر ابن خلدون: العبر، جـ١، ص٢٢٢-٢٢٣ علي إبراهيم حسن: التاريخ الإسلامي، ص٥٣٣.

(نظام الأحداث)، وعرف نظام السجدون في العهد الأموي[1]، بينما كان عمر بن الخطاب يمارس نظام الاحتجاز.

٢- التّرس: وهو صفحة من الفولاذ تُحمل باليد للوقاية من ضربات واهتمّ العباسيون بالشرطة اهتماماً كبيراً، فجعلوا لصاحبها النّظر في الحدود، وأوكلوا هذه الخطة إلى كبار القوّاد والموالي المخلصين لهم، وكلّفوهم بالمحافظة على الأمن خاصة في عهد الأمين والمأمون عندما شاعت الفوضى في البلاد ونشط المجرمون واللصوص، وكان رجال الشرطة يتسلّحون بالعمد والحراب والسيوف، وتدفع لهم رواتب حسنة ليقوموا بأعمالهم بأمانة وإخلاص، وكان طاهر بن الحسين من أهم قادة الشرطة، حيث تولاّها للمأمون سنة ٢٠٥هـ/ ٨٢١م[2].

وكان صاحب الشرطة في مصر ينوب عن الأمير في الفسطاط إذا غاب عنها، وكان مقرّ الشرطة في مدينة الفسطاط من أيّام عمرو بن العاص، وكان يطلق عليها اسم (الشرطة السفلى)، فلمّا أُسس صالح بن علي مدينة العسكر سنة ١٣٢هـ/ ٧٥٠م أُنشئت فيها دارٌ أخرى للشرطة سمّيت (الشرطة العليا)، فلمّا استولى الفاطميون على مصر وبنيت القاهرة نقل جوهر الصقلي مقرّ الشرطة العليا إلى القاهرة، فلما قَدِمَ المعزّ قلّد الشرطتين العليا والسفلى لأبي الفرج يعقوب بن كلس سنة ٣٦٣هـ/ ٩٧٣م[3].

وفي الأندلس كانت الشرطة على نوعين هما: الشرطة الكبرى للحكم على الخاصة من أهل المراتب والسلطان، والشرطة الصغرى للحكم على العامة، ثمّ ابتدع عبدالرحمن الناصر نوعاً ثالثاً من الشرطة أطلق عليها اسم الشرطة الوسطى، واختصّ صاحبها بالنّظر في جرائم الطبقة الوسطى من أعيان التجّار وأصحاب

(١) ابن قتيبة: عيون الأخبار، جـ١، ص٧٠ صالح أبو ديّاك: دراسات في التاريخ الإسلامي، ص١١٥-١١٦.

(٢) الطبري: الرسل والملوك، جـ٨، ص٥٧٧ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، جـ٥، ص١٩٦.

(٣) المقريزي: اتّعاظ الحنفا، جـ١، ص١٤٤ عطية مشرفة: نظم الحكم، ص١٣٩.

الصنائع والمهن الراقية كالأساتذة والأطبّاء.

وكان يطلق على صاحب الشرطة لقب (صاحب الليل)، أو (صاحب المدينة)، لأنّه يقوم بحفظ النظام، ويساعد الوالي على استتباب الأمن في المدينة ويقبض على الجناة وأصحاب الفساد والشرّ لتقديمهم للقضاء.

وتشتمل وظائف صاحب الشرطة على الأمور التالية[1]:

١- حفظ الأمن والنّظام.

٢- منع ارتكاب الجرائم والمخالفات، ومراقبة أحياء المدينة والأماكن العامة.

٣- تنفيذ أوامر السلطان والقضاة ومساعدتهم عند الحاجة.

٤- مساعدة عمّال الخراج.

٥- مساعدة المحتسب وإدارة السجون.

٦- مراقبة المدينة ومعرفة الداخلين إليها.

٧- ملاحقة الجناة والمتّهمين بالجرائم لتقديمهم للقضاء.

---

(١) انظر ابن خلدون: العبر، جـ١، ص٢٢٢ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، جـ٤، ص١٨٨ عطية مشرفة: نظم الحكم، ص١٣٨ فتحية النبراوي: تاريخ النظم والحضارة، ص١٣٥ محمد محاسنة: مدينة دمشق خلال العصر الفاطمي / رسالة دكتوراه، الجامعة الأردنية، ١٩٩٣م، ص١٧٩-١٨٠.

الفصل الثامن

النظم الاجتماعيّة

- المسؤوليّة الاجتماعيّة.
- الرقيق.
- المرأة.
- نظام الأسرة.

المسؤوليّة الاجتماعيّة

النظام الاجتماعي هو مجموعة الأحكام الشرعيّة التي تنظّم علاقة الرجل بالمرأة، وما ينشأ عن اجتماعهما من حقوق وواجبات، ويهدف النظام الاجتماعي إلى تنظيم علاقات الأسرة وضبطها من أجل استمرارها وبقائها، وذلك حفاظاً على قوّة المجتمع وتماسكه لأنّ قوة المجتمع تعتمد على تماسك الأسر وتنظيمها(1).

وكان أساس التنظيم الاجتماعي للعرب قبل الإسلام هو القبيلة، والمجتمع العربي يتألف من عرب القبائل، فكان للرابطة القبليّة أثر كبير يظهر في العصبيّة القبلية والثأر.

ويتبع القبيلة طبقة عرفت باسم الموالي، وهم من دخلوا في ولاء القبيلة بالإضافة إلى العبيد والأرقّاء وهم من غير العرب ممّن تمّ استرقاقهم عن طريق الشّراء أو الأسر.

وعندما جاء الإسلام أحلّ رابطة العقيدة محلّ رابطة الدّم وأصبحت العقيدة الإسلاميّة هي أساس المجتمع، ووضع الإسلام مبادئ أساسيّة في التنظيم الاجتماعي تتضمّن التنسيق بين قوى الحياة والأحياء وتورّث الشعور بالطمأنينة والسّلام، وخصّ الفرد بشيءٍ من العناية والاهتمام لأنّه أهم عناصر المجتمع، والمجتمع المتوازن إنّما يتكوّن من أفراد متوازنين يتمتّعون بقدرٍ من الاستقرار النفسي والروحي(2).

لقد نظّم الإسلام الأسرة من حيث العلاقة بين الزوجين، وعلاقة الآباء بالأبناء، وروابط الأقارب، وفصل في الحقوق والواجبات، وتعرّض للواجبات الأدبيّة والحقوق الماديّة، ونظّم التوارث والعلاقة بين الأفراد ومسؤوليّة كل فردٍ من أفراد الأسرة، فأوجب نفقة الفقير على الغني في الأسرة، وجعل أساس الحقوق والواجبات هي المودّة والرحمة والتواصل، ونظّم العلاقة بين الجيران واعتبر الجميع

---

(1) صالح ذياب: الثقافة الإسلاميّة، ص١٠٧.

(2) انظر صبحي الصالح: النظم الإسلاميّة، ص٤٣٤.

سواء أمام القانون لا فضل لأبيضٍ على أسود، ولا لكبيرٍ على صغيرٍ ولا لعربي على أعجمي إلاّ بالتقوى، وهيئت الفرص لكل عاملٍ في الدولة الإسلاميّة لمزاولة نشاطه حسب طاقته ومواهبه.

واستهدف الإسلام إيجاد التوازن في المجتمع بتوزيع التبعات على الجميع بالتساوي، وتحقيق التكافل بين الفرد والجماعة، وعدم محاباة الفرد على حساب الجماعة، أو الجماعة على حساب الفرد، وجعل لكلٍ منهما مسؤوليات ومهام خاصة به، قال عليه الصّلاة والسّلام: (كلّكم راعٍ وكلّكم مسؤول عن رعيّته).

وتعتبر نفقة الأقارب نوع من التكافل الاجتماعي الذي أرسى الإسلام قواعده، وشيّد أركانه[1]، وأصل وجوب هذه النفقة مقررٌ في كتاب الله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ۚ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ﴾[2].

وجعل للإنسان نصيب من الحرية، إلاّ أنّه ربطها وقيّدها بمصلحة الجماعة، وقرّر الإسلام المسؤوليّة الفردية صريحة بقوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾[3]، ومنح الإنسان وجوده المستقلّ حتى لا تنعدم شخصيته أو تضيع، لكنّه في الوقت ذاته دمج هذه المسؤوليّة بالمجتمع، أي مسؤوليّة الفرد عن المجتمع ومسؤوليّة المجتمع عن الفرد، وأساس هذه المسؤوليّة المشتركة عقيدة المسلم.

---

(١) محمد مصطفى شلبي: أحكام الأسرة في الإسلام، ص٨٤١.

(٢) سورة البقرة: الآية ٢٣٣.

(٣) سورة المدثّر: الآية ٣٨.

الرّقيق

الرّقّ هو استعباد النّاس وامتلاكهم بحيث يصبح من المتعذّر عليهم التصرّف إلاّ بإرادة أسيادهم ومشورتهم، أي حرمان الشخص من حريته الطبيعية ليصبح ملكاً لغيره، والرقيق هم العبيد، الذين يفقدون حقّهم في التملّك والانتقال والتعبير.

وكان الرّق معروفاً قبل الإسلام، وانتشر عند معظم الشعوب، فكان معروفاً عند الفرس واليونان والرومان والبيزنطيين، وعند المصريين والبابليين وعند العرب أيضاً.

وكانت الفاقة عند بعض الأمم سبباً في عبوديتهم، فكان الفقر في بعض الأحيان يدفع بصاحبه لبيع أولاده وربّما باع نفسه لغيره بسبب ذلك، وكان الرومان هم أول من استعبد الأسرى، واسترقّ الأحرار، وسار اليونان والبيزنطيون على نفس الخط[1]، وحرّم الرومان استرقاق الروماني، وأباح اليهود استرقاق غيرهم، وكان الفرس والرومان يعتبرون سكّان العراق والشّام ومصر عبيداً لهم، واتّخذوا قسماً منهم أرقّاء وقسماً آخر عبيداً في الأرض يباعون مع الأرض إذا بيعت، وكان الدّيْن سبباً للاسترقاق فمن يعجز عن سداد دينه كان يسترقّ للدائن.

وربّما كان العرب هم الأمّة الوحيدة التي سمحت باسترقاق بني جنسها، فكانت القبائل العربية قبل الإسلام تغزو بعضها بعضاً فتأسر الرجال وتسبي النساء، فيتحوّل هؤلاء إلى عبيد، ولكنّهم وضعوا أُسساً لتحرير العبيد، فيمكن أن يعطى الواحد منهم حريّته إذا قدّم جهوداً عظيمة لسيّده أو لشجاعته في القتال أو لإخلاصه.

وكان الرقيق نوعان إمّا أبيض أو أسود، فبعضهم يُشترى في الأسواق، وبعضهم يُجلب من أسرى الحروب، وكانت أغلبية الرقيق من العبيد السّود، وكان يطلق عليهم اسم (الأحابيش)، لأنّهم يجلبون من الحبشة أو السودان أو زنجبار، أمّا الرقيق البيض فكانوا يجلبون من بلاد الروم والكرج والأرمن والترك والسلاف (الصقالبة).

وكانت طبقة العبيد في المجتمع الجاهلي طبقة محرومة من الامتيازات ومثقلة

---

(١) صبحي الصالح: النظم الإسلاميّة، ص٤٦٦-٤٦٧.

بالواجبات نحو سادتها، وكانت توكل إليهم الأعمال التي يأنف العرب من القيام بها مثل الرعي والحدادة والحجامة والنجارة.

أمّا في الإسلام، فمصادر الرقيق هي ملك اليمين، أو من كان في نصيبه بعد قسمة الغنائم في الحروب المشروعة، أو ما يصل إلى يده بشراء أو هبة أو بطريق الميراث عمّن يملكه.

١- الأسر في الحروب، فإذا فتح المسلمون بلداً جاز لهم أن يسترقّوا سكّانها إذا لم يدخلوا في الإسلام، وكانت أعداد الأسرى في صدر الإسلام والدولة الأموية كثيرة جداً، ولكنّها تناقصت منذ القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي، نتيجة توقّف حركات الفتح الإسلامي(١).

٢- الشّراء: وكانت الوسيلة الرئيسة للحصول على الرقيق، وانتشرت في العصر الإسلامي في معظم المدن الكبرى، فكانوا يجلبون التجّار من الجنسين الأبيض والأسود.

٣- الولادة: فمن كان يولد من أبوين رقيقين يكون رقيقاً.

٤- الميراث: وهو ما يصل إلى شخص بطريق الميراث عمّن يملك الأرقّاء.

لقد حرّم الإسلام استرقاق الأحرار دون سبب مشروع، فقد ورد عن عمر بن الخطّاب قوله: (متى استعبدتم النّاس وقد ولدتهم أمّهاتهم أحراراً؟)(٢)، وعمل الإسلام على تنظيم شؤون الأرقّاء والأخذ بأيديهم في طريق الحريّة، وساوى بينهم وبين أسيادهم في الطعام والشّراب واللباس والتعليم، وحذّر من إساءة معاملتهم، فقد نهى الرسول ﷺ عن تحقير العبد والاستهانة به، فكان ذلك امتثالاً لأمر الله تعالى الذي جعل أساس المفاضلة بين الناس قائماً على التقوى لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾(٣).

---

(١) الدوري: تاريخ العراق، ص٧٦.
(٢) ابن الجوزي: تاريخ عمر بن الخطاب، ص١٢٠.
(٣) سورة الحجرات: الآية ١٢.

لهذا جاءت دعوة الإسلام إلى المساواة بين جميع النّاس على اختلاف ألوانهم وأشكالهم وأعراقهم، فلم يسمح بالتفريق بين الأبيض والأسود، ولا بين الغنيّ والفقير، ولا بين السيّد والمسود، فحطّ من الفوارق بين الطبقات وهدم قواعد الكبرياء، ودعى إلى التعايش والتفاهم بين أفراد المجتمع بأمان وسلام، وتعلّم المسلمون المساواة بين أشراف القوم ومواليهم، فتآخى بعد الهجرة النبويّة حمزة بن عبد المطلّب مع زيد مولى رسول الله ﷺ، وتآخى أبو بكر الصديق مع خارجة بن زيد[1].

وأجاز الإسلام استرقاق الأسير على سبيل المعاملة بالمثل لأنّ قوانين الحرب التي كانت سائدة في عصور الإسلام الأولى كانت تفرض هذا النوع من المعاملة، وترك لإمام المسلمين الحريّة بالتصرّف في أسرى الحروب وذلك بإطلاق سراحهم دون قيد أو شرط، أو بين الفداء بالمال أو الاسترقاق، وتعلّم المسلمون من الرسول ﷺ حُسن معاملة الأسرى، فكانوا يؤثرون الأسير على أنفسهم، وبلغ عطف عمر بن الخطّاب على الأسير أنّه كان يجيز تأمين العبد المسلم للرجل من الأعداء لمجرّد رغبته في إيجاد مخرج لإعادته حرّاً[2]، ومنذ خلافة عمر فقد منع استرقاق العرب، وتمّ تحرير العرب المسترقّون[3].

وانسجاماً مع دعوة الإسلام إلى المساواة بين جميع النّاس، فقد اتّجه لتحرير الرقيق ودعى القرآن الكريم لذلك دعوة صريحة، وبدأ الإسلام بتنظيم حال الأسرى تمهيداً لإعادتهم إلى أصل الحرية، ولم يترك الإسلام مجالاً أو طريقة أو فرصة يمكن بها تحرير الرقيق من عبوديتهم إلاّ ودعى لإتّباعها، لذلك وجدت وسائل متعدّدة لتحرير الرقيق في الدولة الإسلاميّة منها:

١- **المكاتبة**: وذلك بأن يشتري العبد نفسه من سيّده بمال يتّفقان على تسديده

---

(١) الطبري: الرسل والملوك، جـ٢، ص٣٨٢.

(٢) أبو يوسف: الخراج، ص١٢٦ أبو عبيد: الأموال، ص٢٠٠.

(٣) أبو عبيد: الأموال، ص١٩٦-١٩٧ اليعقوبي: التاريخ، جـ٢، ص٥٨.

على أقساط، يصبح العبد بعدها حرّاً، فإذا عجز عن تسديده في الوقت المحدّد عاد إلى العبوديّة، ووردت إشارة إلى هذه الطريقة في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبۡتَغُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ فَكَاتِبُوهُمۡ إِنۡ عَلِمۡتُمۡ فِيهِمۡ خَيۡرٗاۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ ءَاتَىٰكُمۡۚ﴾[1].

٢- التدبير: وهو أن يوصي السيّد بأن يكون عبده حرّاً بعد موته، وفي هذه الحالة فإنّ عتقه يصبح لازماً بعد وفاة سيّده.

٣- ولادة الجارية من سيّدها: فالمرأة إذا كانت من الرقيق وولدت لسيّدها ولداً ذكراً تصبح حرّة، ولا يجوز لسيّدها أن يبيعها في حياته، ويقال لها (أم ولد)[2].

٤- أحد مصارف الزكاة: فقد جعل الله سبحانه وتعالى أحد الوجوه التي تنفق فيها أموال الزكاة تحرير العبيد (عتق الرّقاب)، قال تعالى: ﴿۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾[3]، وتكون بأن يعطي الأمير أو العامل على الزكاة للرقيق المكاتب ما يستعين به على تسديد ما عليه للحصول على حريّته، أو أن يشتري الإمام بمال الصدقة العبيد ويعتقهم[4].

٥- الكفّارة: جعل الإسلام الكفّارات وسيلة لتحرير العبيد، مثل كفّارة القتل الخطأ، أو كفّارة الإفطار في نهار رمضان، أو كفّارة اليمين إذا لم يكن صادقاً، فإنّ من بين الخيارات للتكفير عن هذه الذّنوب هو تحرير رقبة مؤمنة.

٦- التطوّع: رغب الإسلام في إعتاق الرقيق تطوّعاً وابتغاء وجه الله تعالى والحصول على الأجر والثّواب، قال تعالى: ﴿فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوۡ إِطۡعَٰمٞ فِي يَوۡمٖ ذِي مَسۡغَبَةٖ ﴿١٤﴾﴾[5].

(١) سورة النور: الآية ٣٣.
(٢) انظر صبحي الصالح: النظم الإسلامية، ص٢٧١.
(٣) سورة التوبة: الآية ٦٠.
(٤) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام، جـ١، ص١٩٠.
(٥) سورة البلد: الآيات ١١-١٤.

المرأة

تمتّعت المرأة عند العرب قبل الإسلام بمركز مرموق على الأغلب، فبعض القبائل كانت تعزو النّسب إلى الأُمّهات كما تعزوه إلى الآباء، فكانت المرأة هي ربّة البيت والمسؤولة عن الإنجاب، وفوق ذلك تقوم بدور بارز في الحروب بتضميد الجرحى وتزويد المقاتلين بالماء والزّاد، واحتلّت بعض النساء مكانة هامة في التاريخ والشعر والقصص[(١)]، وساهمت في الحياة الاجتماعيّة والاقتصادية، فكان منهنّ الكاهنات والشّاعرات والعرّافات والمتنبئات، والملكات أيضاً، وأُعطيت الكثير من النّساء حرية كبيرة في اختيار الأزواج، وكانت المرأة تحرص على شرفها وتعتدّ بكرامتها.

إلاّ أنّ بعض بطون القبائل العربية مثل ربيعة وكندة وبطون واطئة من تميم وأسد تطيّروا من المرأة وعدّوها شرّاً، وكان بلاؤهم الأكبر أن تولد لهم أُنثى، وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾[(٢)]، فانتشرت عادة وأد البنات، أي دفنهنّ وهنّ على قيد الحياة عند بعض بطون هذه القبائل[(٣)]، وذلك بسبب الأعباء الثقيلة التي كان يتحمّلها الرّجل في سبيل المحافظة على شرفها من اعتداء الآخرين، وحمايتها من العار الذي قد يلحق بأهلها في حالة أسرها، وبعضهم كان يلجأ إلى ذلك بسبب الفقر الناتج عن المجاعات التي أصابت الجزيرة العربية في فترات عديدة، وهناك من يرى أنّ سبب ذلك هو احتقار العرب للمرأة.

وقد استنكر الإسلام هذه العادة وحرّمها الله سبحانه وتعالى، فورد في القرآن الكريم ﴿ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ ﴾[(٤)]، وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟

---

(١) علي إبراهيم حسن: التاريخ الإسلامي، ص٥٠٤ توفيق اليوزبكي: دراسات في النظم، ص٢٠١.

(٢) سورة النحل: الآيات ٥٨-٥٩.

(٣) ابن الأثير: أسد الغابة في تمييز الصحابة، جـ٤، ص٢٢٠.

(٤) سورة التكوير: الآيات ٨-٩.

﴿أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا﴾[١].

وكذلك انتشرت عادة سبي النساء التي درجت عليها كثير من القبائل العربية قبل الإسلام، فكانوا يسبون النساء في الحروب ويتصرّفون بهنّ بالبيع أو بالاسترقاق.

وجاء الإسلام ليقلب موازين الجاهلية، فيمنع الظّلم عن المرأة ويحرّم وأدها، ويقرّع الوائدين أشدّ تقريع، ويوصي الرسول ﷺ الآباء بالبنات خيراً، فروي عنه عليه الصّلاة والسّلام أنّه قال: (من كانت له أُنثى فلم يئِدها ولم يهنها ولم يُؤثر ولده عليها، أدخله الله تعالى الجنّة).

وأكرم الإسلام المرأة فاعترف بأهليتها في الحقوق المدنيّة والماليّة، ولم يفرّق بينها وبين الرّجل في المجالين الإنساني والاجتماعي، لقوله صلّى الله عليه وسلّم: (إنّما النّساء شقائق الرجال)، وجعل للمرأة حقّاً في الميراث، قال تعالى: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾[٢].

وحرّم الإسلام إكراه البنت على الزواج، فلا تنكح البكر حتى تُستأذن ولا الثيّب حتى تستأمر[٣]، ومنع الآباء من التدخّل في مهور بناتهم، وعدم أخذه إلاّ برضاهنّ، قال تعالى: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا﴾[٤].

وجعل الإسلام البنت قبل بلوغها الرّشد تحت وصاية أوليائها، كالأبّ أو الأخ أو من يقوم مقامهما، ليقوموا بتربيتها وتعليمها، وأوصى بتكريم الأمّ والإحسان إليها، وقرن ذلك بعبادة الله عزّ وجل، قال تعالى: ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا

---

(١) سورة الإسراء: الآية ٣١.

(٢) سورة النساء: الآية ٧.

(٣) مصطفى السباعي: المرأة بين الفقه والقانون، ص٦٥.

(٤) سورة النساء: الآية ٤.

﴿كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾[1].

ويعتبر هذا إكراماً وتقديراً لما تتحمّله من مشقّات ومصاعب في حمل الطفل وإنجابه وتربيته، والسّهر على راحته وسلامته، قال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ﴾[2]، وفي الحديث الصحيح: (جاء رجل إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، من أحقّ النّاس بحسن صحابتي؟ قال: أمّك، قال ثمّ من؟ قال أمّك، قال ثمّ من؟ قال: أمّك، قال ثمّ من؟ قال: أبوك)[3].

لقد رفع الإسلام منزلة المرأة، ومنحها الحريّة الكاملة في التصرّف بأموالها، وسمح لها أن تتعلّم، وأن تبيع وتتاجر، وتعقد الصفقات، وتؤجّر البيوت، وتعمل بالفلاحة، وأن تعمل عند الضرورة في حدود ما يليق بها من أعمال، ولم يسمح للزوج أن يأخذ شيئاً من مالها إلاّ برضاها.

وبهذا تغيّر حال المرأة حتى أصبحت مساوية للرجل، وشاركت في ميادين الحياة المختلفة، وشاركت في الجهاد وخدمة الجرحى وإحضار الطعام والماء وتحميس الجنود في المعارك، وبرزت المرأة في العلوم الدينية وعملت بالوعظ والفقه والحديث، وشاركت في الأدب والشعر والحكمة والسياسة، فتبوأت مكانة رفيعة في المجتمع الإسلامي.

واشتهرت من شهيرات النساء في الإسلام عائشة أم المؤمنين التي اشتهرت بالفقه ورواية الحديث والفتيا والأدب والتاريخ والنّسب، وأختها أسماء بنت أبي بكر، ونسيبة بنت كعب المازنية التي دافعت عن رسول الله ﷺ في غزوة أحد ورفيدة الأسلميّة وأختها كعبة، وأم البنين زوجة الخليفة الوليد بن عبد الملك التي اشتهرت بالفصاحة والبلاغة وقوة الحجّة وبُعد النظر، وسكينة بنت الحسين بن علي سيدة نساء عصرها، وكان لها مكانة بارزة في الأدب والشعر.

---

(١) سورة الإسراء: الآيات ٢٣-٢٤.

(٢) سورة لقمان: الآية ١٤

(٣) مسلم بن حجّاج: الصحيح، جـ٤، ص١٩٧٤.

نظام الأُسرة

أ- الزواج:

الزواج لفظ عربي موضوع لاقتران أحد الشيئين بالآخر وازدواجهما بعد أن كان كل منهما منفرداً عن الآخر، قال تعالى: ﴿وزوّجناكم بحور عين﴾[1]، ثمّ شاع استعمال الزواج في اقتران الرجل بالمرأة على وجه مخصوص لتكوين أُسرة[2].

والزواج في الإسلام هو عقد دائم يربط الرجل بالمرأة ارتباطاً مقدّساً مليء بالحبّ والمودّة والحنان، قال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[3].

فهو واجبٌ اجتماعيّ من وجهة المجتمع للمحافظة على النوع الإنساني وسكن نفساني من وجهة الفرد، وسبيل مودّة ورحمة بين الرجال والنساء، ومتى تمّ الزواج أصبح ميثاقاً لا يسهل الانفكاك منه.

وقد حثّ الإسلام على الزواج لأن الزواج عماد الأسرة، والأسرة عماد المجتمع، كما أن الزواج يسمو بالإنسان عن الفواحش والغريزة والبهيمية[4]، فمن يتزوج تقنع نفسه غالباً ولا تتعدى حدود الله بانتهاك الحرمات، لذلك أمر الرسول ﷺ القادر على تكاليفه المبادرة إليه، عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ (يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر، وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء).

وعلى الرجل إذا أراد خطوبة امرأة أن يرى مخطوبته قبل أن يقدم على الزواج، وأن ترى المخطوبة خاطبها حتى تأتلف القلوب وتتواد ولا تندم بعد فوات الأوان،

---

(١) سورة الطور: الآية ١٠.

(٢) محمد مصطفى شلبي: أحكام الأسرة في الإسلام، ص٤٥.

(٣) سورة الروم: الآية ٢١.

(٤) محمد أبو زهرة: تنظيم الإسلام للمجتمع، ص٦٤.

ولا حرج أن يتحادثا لكن بحضور أحد محارمها كالأب أو الأخ أو العم حتى لا يكون ذلك ذريعة إلى مفسدة، إذ لا يجوز الخلوة بها والخروج معها، أو مصاحبتها إلى دور اللهو والمتنزهات(١).

وموافقة الزوجين شرط لصحة الزواج، وأوجب الإسلام على الرجل أن يقدم مهراً لمخطوبته يسمى الصداق، قال تعالى: ﴿ وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَـٰتِهِنَّ نِحْلَةً ۚ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ﴾(٢).

ولا يشترط دفع كامل المهر عند العقد بل يجوز أن يكون مؤجلاً كله أو بعضه، أو مقسطاً لأوقات يتفق عليها العاقدان، وللزوجة بعد العقد إذا شاءت أن تبرى الزوج من بعض المهر فهو حقها.

ولا بد أن يتم العقد بالإيجاب والقبول بحضور شاهدين من الرجال أو رجل وامرأتين(٣)، ولا ينعقد النكاح بشهادة النساء وحدهن.

واختيار الرجل للزوجة مقصور على النساء الأجنبيات بالنسبة له اللاتي أباح الإسلام له الزواج منهن، فلا يجوز الزواج من المحرمات الوارد ذكرهن في الآية الكريمة:

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَـٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّـٰتُكُمْ وَخَـٰلَـٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَـٰتُكُمُ ٱلَّـٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَـٰعَةِ وَأُمَّهَـٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَـٰٓئِبُكُمُ ٱلَّـٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّـٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَـٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَـٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾(٤).

---

(١) انظر محمد شلبي: أحكام الأسرة، ص٧٠.

(٢) سورة النساء: الآية ٤.

(٣) انظر عمر فروخ: الأسرة في الشرع الإسلامي، ص٧٨، ٨٤.

(٤) سور النساء: الآية ٢٣.

وسمح الإسلام بتعدد الزوجات فأباح للرجل أن يتزوج من أربعة نساء ويجمع بينهن، قال تعالى: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تَعۡدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ﴾(١)، لكن يشترط في إباحة التعدد العدل بين الزوجات والأمن من الظلم، والعدل هنا يعني المساواة في المعاملة الظاهرة، أي المساواة في الإنفاق والإسكان وحسن المعاشرة والقيام بالواجبات الزوجية(٢).

وقصد الإسلام من إباحة تعدد الزوجات أن يتمكن الرجل من السيطرة على كلّ ما تجرّ إليه الشهوات من فوضى وطغيان الميول البهيمة.

كما سمح الإسلام للمسلم بالزواج من أهل الكتاب، وجعل للزوج على الزوجة حق الطاعة والقرار في البيت، فلا تخرج من بيته إلا بإذنه، وللزوجة على زوجها حق العدل والمهر والنفقة، ويريد الإسلام بهذا التنظيم للحياة الزوجية أن تبقى مستمرة متوازنة، لا سيما بعد الإنجاب، ليقوم الزوجان بتربية الأولاد تربية مثالية تحقق لهم التوازن النفسي، قال تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا﴾(٣).

ب- الطلاق

الطلاق في الفقه الإسلامي رفع قيد النكاح في الحال والاستقبال بعبارة تفيد ذلك صريحاً، أي حل رابطة الزوجية الصحيحة من جانب الزوج بلفظ مخصوص أو ما يقوم مقامه في الحال أو المآل(٤).

وأبيح الطلاق للضرورة، فقد تكون المرأة عقيماً، والرجل فقيراً لا قدرة له على الجمع بين زوجتين مع رغبته في الولد، أو قد يتّصف أحد الزوجين بسوء خلقه أو فساد في تربيته أو ضعف في دينه، أو يكون بينهما تخالف في الطباع وينعدم التآلف،

---

(١) سورة النساء: الآية ٣.

(٢) انظر عفيف طبارة، روح الدين الإسلامي، ص٣٧٥.

(٣) سورة النساء: الآية ١٩.

(٤) انظر محمد شلبي: أحكام الأسرة في الإسلام، ٤٩١.

فالأسرة إذا لم تقم على المحبة تداعت أركانها وانهار بناؤها[1].

والطلاق في الأصل حق للزوج لأن نصوص القرآن والسنة أسندته إلى الرجل، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ﴾[2].

واتفق علماء الإسلام على أن الأصل في الطلاق هو الحظر إلاّ لحاجةٍ، فإذا كان لغير حاجة اعتبر حمقاً وسفاهة رأي، قال ﷺ: (أبغض الحلال إلى الله الطلاق). والطلاق مقيّد بما شرع له، فإذا أساء الزوج استعمال حقّه فيه حكم عليه بالتعويض على مطلقته بما سماه الإسلام المتعة، وهو مبلغ من المال يدفعه الزوج لمطلقته تعويضاً عما أصابها من ضرر وبؤس بسبب الطلاق بقوله تعالى: ﴿ وَلِلۡمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾[3].

ويقسم الطلاق إلى ثلاثة أقسام هي الطلاق الرجعي والطلاق البائن بينونة صغرى، والطلاق البائن بينونة كبرى، فالطلاق الرجعي هو الذي يجيز للزوج أن يعيد زوجته إلى عصمته بدون عقد أو مهر جديدين خلال العدّة، قال تعالى: ﴿ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنۡ أَرَادُوٓاْ إِصۡلَٰحٗاۚ ﴾[4]، فإذا انقضت العدّة ولم يراجعها ثبت الطلاق، ولا تصحّ مراجعتها إلاّ برضاها وبمهر وعقد جديدين.

والطلاق الرجعي هو الذي سمح الإسلام للرجل أن يراجع فيه زوجته مرّتان، فإن طلّق في المرّة الأولى جاز مراجعته الزوجة خلال العدّة، وإن طلّق مرّة ثانية جاز له المراجعة أيضاً خلال العدّة، فكان هذا حرصاً من الإسلام على استمرار التوازن، وتصحيح موقف الزوجين، قال تعالى: ﴿ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ ﴾[5].

(١) انظر عفيف طبارة: روح الدين الإسلامي، ص٣٧٦.
(٢) سورة الطلاق: الآية ١.
(٣) سورة البقرة: الآية ٢٤١..
(٤) سورة البقرة: الآية ٢٢٨.
(٥) سورة البقرة: الآية ٢٢٩.

والأصل في المراجعة حصولها من الرجل، وبعض الفقهاء يجيزها إن صدرت عن المرأة حفاظاً على وحدة الأسرة، والطلاق البائن بينونة صغرى هو الذي يرفع الزواج بالحال وتنقطع حقوق الزوج على زوجته، بمجرّد وقوعه، وإذا أراد أن يستأنف معها حياة زوجية فإنّما يكون بعقد ومهر جديدين، شريطة أن يكون ذلك في الطلقتين الأولى أو الثانية، ويكون الطلاق بائناً بينونة صغرى، إذا انقضت العدّة في الطلاق الرجعي، أو الطلاق للعيب أو للسجن أو للضرر بسبب الغيبة وفي هذه الحالة لا يكون إلاّ بقضاء القاضي[1].

أمّا الطلاق البائن بينونة كبرى، فهو الذي يستكمل فيه المطلق الطلقات الثلاث، فتنقطع بذلك جميع الصلات بين الرجل وزوجته، ولا يحلّ له أن يعقد عليها عقداً آخر إلاّ إذا تزوّجت زوجاً آخر بعد انتهاء عدّتها من الأول زواجاً مقصوداً لذاته لا بقصد التحليل، ويدخل بها ثمّ يطلّقها وتنتهي عدّتها، قال تعالى: ﴿ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ ۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۗ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[2].

وكل طلاقٍ تتبعه فترة تريّث تسمّى العدّة وهذه تختلف في طولها وقصرها تبعاً لحالة الزوجة، فعدّة الحامل أن تضع حملها، وغير الحامل إن كانت من ذوات الحيض فعدّتها ثلاثة قروء، أي ثلاث دورات كاملة من الحيض والطهر، قال تعالى: ﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ﴾[3]، وإن كانت من غير ذوات الحيض فعدّتها ثلاثة أشهر، قال تعالى: ﴿ وَٱلَّٰٓـِٔى يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّٰٓـِٔى لَمْ يَحِضْنَ ۚ﴾[4].

---

(١) انظر عفيف طبارة: روح الدين، ص٣٨٣-٣٨٤.

(٢) سورة البقرة: الآية ٢٣٠.

(٣) سورة البقرة: الآية ٢٢٨.

(٤) سورة الطلاق: الآية ٤.

والطلاق لا يقع إلاّ بنيّة، فلا يقع طلاق الهازل ولا طلاق السكران ولا المكره ولا الغضبان ولا المدهوش ولا المعتوه أو السفيه أو المجنون.

ج- الميراث

أطلق الفقهاء كلمة الفرائض على المواريث[1]، والفرض في الشرع هو النصيب المقدّر للوارث من تركة الميّت.

وكان العرب في الجاهلية لا يورّثون النساء ولا الصغار من الذكور، لأنّ الإرث عندهم كان حقاً لمن يركبون الخيل ويغزون العدو[2]، فلمّا جاء الإسلام أبطل ذلك كلّه، قال تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ﴾[3].

وقد فرض الإسلام قانون التوريث لمنع تكديس الأموال في أيدٍ قليلة وللحدّ من الفروق بين الطبقات. فقانون التوريث الإسلامي يساعد على توزيع الثروة على أكبر عدد ممكن من الذريّة.

وقد شرع الإرث في الإسلام نعمة للوارث لا نقمة عليه، فهو لا يتحمّل ديون المورث الزائدة عن التركة، ولا يستطيع المورث حرمان الوارث من الإرث بعد وفاته، لأنّ الإرث جبري بحكم الشرع لا بإرادة المورّث، فليس للمورث سلطان على ماله بعد وفاته إلاّ في الثلث، ويبقى الثلثان ليوزّعها الشّارع بين أسرته بالقسطاس المستقيم، كلّ بقدر حاجته أو قرابته من الميت[4].

ويكون التوريث حسب أولوية القرابة، وأكثر الأسرة حظّاً في الميراث هم الأولاد الذين ينتسبون إلى المورث، لكنّه يشاركهم في التركة أرملة المتوفي وأبوه وأمّه، وقد يشاركهم اخوته في بعض الأحوال، وجعل للحاجة دور في تحديد نسبة الميراث

---

(١) انظر ابن خلدون: المقدمة، ص٤٥١-٤٥٢.

(٢) عمر فروخ: الأسرة في الشرع الإسلامي، ص٩٢.

(٣) سورة النساء: الآية ١١.

(٤) محمد أبو زهرة: تنظيم الإسلام للمجتمع، ص١٣٣.

للشخص، فالإبن أكثر حاجة من الأب والأم لذلك يكون نصيبه أكبر من غيره، فالأبناء في الغالب ذرية ضعاف يستقبلون الحياة ولها تكاليفها، والأبوان لهما من المال فضلاً وهما يستدبران الحياة فنظّم الإسلام أموال التركات بموجب الآية الكريمة: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءٗ فَوۡقَ ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَۖ وَإِن كَانَتۡ وَٰحِدَةٗ فَلَهَا ٱلنِّصۡفُۚ وَلِأَبَوَيۡهِ لِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٞۚ فَإِن لَّمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٞ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخۡوَةٞ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعٗاۚ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا﴾(١)

وتتعلّق بالتركة عدّة حقوق يجب أداؤها حسب أهميتها ولا يجوز لأحدٍ أن يتقدّم على الآخر وهي على الترتيب(٢):

١- إكرام الميت بتكفينه وتجهيزه.

٢- قضاء ديونه.

٣- تنفيذ وصيته على أن لا تتجاوز ثلث الباقي.

٤- تقسيم ما يتبقّى بين الورثة.

ويستحقّ الإرث بأحد الأسباب التالية:

١- **النسب الحقيقي**؛ أي قرابة الدمّ لقوله تعالى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ﴾(٣).

٢- **النسب الحكمي**: وهو الولاء أي القرابة الحاصلة بسبب العتق ويسمّى ولاء العتق وهو عقد بين شخصين أحدهما ليس له وارث، فيقول للآخر: أنت مولاي وأنت وليي ترثني إذا مت وتعقل عني إذا جنيت -أي تدفع عنّي الديّة الشرعية إذا جنيت.

---

(١) سورة النساء: الآية ١١.

(٢) السيد سابق: فقه السنّة، ج٣، ص٦٠٥.

(٣) سورة الأنفال: الآية ٧٥.

٣- الزواج الصحيح، قال تعالى: ﴿ ۞ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ ﴾[١].

ويشترط للإرث موت المورث حقيقة أو موته حكماً بأن يحكم القاضي بموت المفقود، كما يشترط حياة الوارث بعد موت المورث ولو حكماً، كالحمل فإنّه حي في الحكم، وألاّ يوجد مانع من موانع الإرث، وموانع الإرث هي[٢]:

١- الرقّ.

٢- اختلاف الدين فلا يرث المسلم الكافر ولا يرث الكافر المسلم.

٣- اختلاف الدارين أي الوطن أو الجنسية بالنسبة لغير المسلمين، أمّا المسلمين فيرثون بعضهم بعضاً مهما نأت الديار وتعدّدت الأقطار.

د- الوصية

الوصيّة في الشّرع هبة الإنسان غيره عيناً أو ديناً أو منفعة على أن يملك الموصى له الهبة بعد موت الموصي[٣]، قال تعالى: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴾[٤].

ولعلّ فيها منفعة كبيرة، فهي جزء من الرعاية للأطفال الذين يموت أبويهم في حياة الأجداد، لأنّ هؤلاء الأطفال يحرمون من ميراث جديهم، فيكونون في حال قلّ مع ضعفهم وحاجتهم إلى المال، بينما أعمامهم وأخوالهم في حال يسر واضح بما آل إليهم من مال أحد أجدادهم[٥].

---

(١) سورة النساء: الآية ١٢.

(٢) انظر السيد سابق: فقه السنّة، جـ٣، ص٦٠٧-٦٠٩.

(٣) السيد سابق: فقه السنّة، جـ٣، ص٥٨٣.

(٤) سورة البقرة: الآية ١٨٠.

(٥) انظر محمد أبو زهرة: تنظيم الإسلام للمجتمع، ص١٣٨-١٣٩.

وتكون الوصية واجبة إذا كان على الإنسان حقّ شرعي يخشى أن يضيع إن لم يوصِ به كوديعة ودين لله أو لآدمي، كأن تكون عليه زكاة لم يؤدّها أو حجّ لم يقم به، وتُحرم الوصية إذا كان فيها إضرار بالورثة، روى عبد الرزاق عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (إنّ الرجل ليعمل بعمل أهل الخير سبعين سنة، فإذا أوصى جاف في وصيته فيختم له بشر عمله فيدخل النار، وإنّ الرجل ليعمل عمل الشرّ سبعين سنة فيعدل في وصيته فيختم له بخير عمله فيدخل الجنّة).

وتحرم الوصية إذا أوصى بخمر أو ببناء كنيسة أو دار لهوٍ أو ما فيه عمل حرام، أو قاد إلى المعصية.

وتُكره الوصية إذا كان الموصي قليل المال وله وارث أو ورثة يحتاجون إليه، ويشترط في الموصي أن يكون أهلاً للتبرّع بأن يكون كامل الأهليّة، أي أن يكون بالغاً عاقلاً حراً غير محجور عليه[1].

كما يشترط في الموصى له ألاّ يكون وارثاً، وأن يحضر وقت الوصيّة، وألاّ يكون قد ثبت عليه قتل الموصي قتلاً محرّماً مباشراً، فإن قتله بطلت الوصيّة.

وتجوز الوصية بالثلث، ولا تجوز الزيادة عليه، فإن أوصى بأكثر من ذلك فإنّ وصيته لا تنفذ إلاّ بإذن الورثة، وتبطل الوصية إذا جنّ الموصي جنوناً مطبقاً واتّصل الجنون بالموت، أو إذا مات الموصى له قبل الموصي، وإذا كان الموصى به معيّناً وهلك قبل قبول الموصى له.

---

(١) انظر السيد سابق: فقه السنّة، جـ٣، ص٥٩٣.

الفصل التاسع

النظم الاقتصادية

مقدّمة.

الموارد الماليّة.

نفقات الدولة الإسلاميّة.

الزراعة.

الصناعة.

التجارة.

الطرق التجاريّة.

النقود الإسلاميّة.

وسائل التعامل التجاري.

المكاييل والموازين.

مقدّمة

كان دخول المسلمين إلى المدينة المنوّرة مهاجرين هو أوّل فتح إسلامي، وكان هذا الفتح هو الذي أرسى حجر الأساس للدولة الإسلاميّة[١]، فترك المهاجرون معظم أموالهم في مكّة، واشتغل بعضهم في المدينة بالزراعة لتحصيل رزقهم.

وبعد أن أذِن الله لهم بالجهاد، وبدأت معاركهم مع الأعداء أصبحت الغنائم تشكّل أكثر مواردهم، وكانت أول غنيمة غنمها المسلمون هي حصولهم في سرية عبد الله بن جحش على بعض الإبل التابعة لقريش في مكان بين نخلة والطائف وهي محمّلة بالتجارة[٢]، وجاءت بعدها غنائم بدر الكبرى، ثمّ توالت الفتوح والغنائم بعد ذلك على المسلمين فصالح أهل فدك رسول الله ﷺ على نصف أرضهم ونخيلهم[٣]، وصالح أهل وادي القرى الرسول ﷺ بعد أن فتح بلادهم عنوة، كما صالحه أهل تيماء على الجزية، وفي السنة العاشرة للهجرة عقد أهل نجران معاهدة مع المصطفى عليه الصّلاة والسّلام، فشرط عليهم أن يدفعوا ألفي حلّة[٤] من حلل الأواقي[٥].

وفي عهد الخلفاء الراشدين صالح خالد بن الوليد أهل الحيرة على (١٩٠.٠٠٠) درهماً، فكانت أول جزية قدم بها من العراق، ثمّ أتمّ فتح المناطق الواقعة غرب الفرات وفرض على أهلها الجزية.

وفي خلافة عمر بن الخطاب فتح المسلمون سورية وفلسطين وسواد العراق ومعظم أقاليم فارس ومصر، فزادت موارد الدولة الإسلاميّة وتعدّدت.

---

(١) محمد ضياء الدين الريّس: الخراج والنظم المالية، ص٩٢.

(٢) الطبري: الرسل والملوك، جـ٢، ص٢٦٢ وما بعدها ابن الأثير: الكامل في التاريخ، جـ٢، ص٧٩-٨٠.

(٣) البلاذري: فتوح البلدان، ص٢٩.

(٤) الحلّة: أوقية فضة تعادل أربعين درهماً.

(٥) البلاذري: فتوح البلدان، ص٧٥ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، جـ٢، ص٢٠٠-٢١.

الموارد الماليّة

كانت إيرادات بيت مال المسلمين تتكوّن من الأموال التي تأخذها الدولة من الخراج والجزية والزكاة والغنيمة والفيء والعشور.

١- الخراج:

وهو ضريبة الأرض الزراعيّة، ويؤخذ عن الأرض التي فتحها العرب، ثمّ تركوها بيد أهلها لقاء خراج معيّن يؤدّونه سنوياً إلى بيت المال[١]، وكان الأساس الذي تقوم عليه ضريبة الأرض الزراعيّة، أنّ الأرض ملك الدولة، وأنّ النّاس يستغلّونها وللدولة حقّ في غلّتها، وتشمل الأراضي الخراجيّة[٢]:

١- الأرض التي فتحها المسلمون عنوة إذا عدل الخليفة عن تقسيمها، ومنها أرض السواد في العراق التي أوقفها عمر بن الخطاب على مصالح المسلمين.

٢- الأرض التي ملكها المسلمون دون قتال وصالحوا أهلها على خراج معلوم يؤدي إلى بيت المال.

٣- أراضي الموات إذا تمّ إحياؤها دون أن يحفر لها بئر إذا كانت في أرض الخراج.

٤- أراضي شبه الجزيرة العربية، ممن كان أهلها من عبدة الأوثان ممن لا يقبل منهم إلاّ الإسلام أو القتل.

٥- الأراضي التي تخلى عنها أصحابها خلال حركة الفتوحات الإسلامية وانتقلت إلى المسلمين.

---

(١) انظر يحيى بن آدم: الخراج، ص٤٨ الماوردي: الأحكام السلطانيّة، ص١٩٤.

(٢) الماوردي: الأحكام السلطانية، ص١٨٧-١٨٨ محمد محاسنة: الأحوال الإقتصادية في بلاد الشام في العصر الأموي، رسالة ماجستير - بغداد، ١٩٨٦م، ص٤٧.

وكان يترك تقدير الخراج لإمام المسلمين، ويتوقف مقداره على خصوبة التربة ونوع المحصول، ونوع السقي إذا كانت الأرض تزرع ريّاً[١]، وبُعد الأرض عن الأسواق وسهولة مواصلاتها أو صعوبتها.

وعرفت الدولة الإسلاميّة ثلاثة أنظمة لجباية الخراج هي[٢]:

أ- نظام المساحة، كما فعل عمر بن الخطاب في أرض السّواد، وأكثر ما انتشر في أوائل العصر العباسي، وكان يقدّر الخراج تبعاً لمساحة الأرض.

ب- نظام المقاسمة، وفيه يفرض الخراج على حسب كمية المحصول، ويؤخذ عيناً، فالأرض التي تروى سيحاً (بالجرّ) عليها النصف، والتي تسقى بالآلات عليها الثلث، ثمّ تعدّلت هذه النسبة بين الحين والآخر إلى الربع أو الخمس[٣].

ج- نظام الإقطاع، ويتم فيه فرض الخراج بموجب اتّفاق بين الدولة وصاحب الإقطاع، وكان للخليفة الحقّ في تقدير قيمة الضريبة المفروضة على الإقطاع، والإقطاع نوعان، إقطاع عسكري كان يمنح للقادة العسكريين خاصة في عهد نفوذ الأتراك، وقد يمنح للجند، والإقطاع المدني، وكان يمنح للموظّفين بدلاً من الرواتب أو إلى جانب رواتبهم.

٢- الجزية:

وهي ضريبة يدفعها أهل الذمّة على رؤوسهم اعترافاً بسيادة المسلمين، ولقاء حمايتهم وحفظ حقوقهم وإعفائهم من الخدمة العسكرية[٤]، وقد ورد ذكر الجزية في القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿ قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ حَتَّىٰ

---

(١) الماوردي: الأحكام السلطانيّة، ص١٨٩ أحمد عبد الباقي: معالم الحضارة العربية، ص١٤١.

(٢) عبد العزيز الدوري: تاريخ العراق الاقتصادي، ص١٧٩ محمد ضياء الريّس: الخراج، ص٤٠٣.

(٣) أبو يوسف: الخراج، ص٥٠.

(٤) الماوردي: الأحكام السلطانية، ص١٨٣ إبراهيم أيوب: التاريخ العباسي، ص٢٣٨.

﴿يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ﴾[1]. وتُؤخذ من اليهود والنصارى والمجوس والصابئة والسامرة ما عدا نصارى تغلب ونجران، فقد عاهد رسول الله ﷺ أهل نجران على أن يعاملهم معاملة المسلمين، وصالح عمر بن الخطاب نصارى تغلب على أن يسقط الجزية عن رؤوسهم[2] بسبب نصرتهم للعرب، وكانت تُجبى مرّة واحدة في السنة.

وفرضها المسلمون على الرّجال دون النّساء والصبيان، ولم يأخذها المسلمون من الشيوخ العاجزين ولا من العبيد، ولا من الذي يتصدّق عليه، ولا من المغلوب في عقله ولا من الأعمى ولا المقعد إذا لم تكن لهم أموال[3].

وقدّر المسلمون الجزية على ثلاث درجات، فجعلوها على الأغنياء ثمانية وأربعين درهماً أو أربعة دنانير، وعلى متوسّطي الحال أربعة وعشرين درهماً أو دينارين، وعلى الفقراء اثني عشر درهماً أو ديناراً واحداً[4]، ويجوز أن تؤخذ بالنقد أو بالعين لتسهيل دفعها على أهل الذمّة.

٣- الغنائم:

وهي ما يكسبه المسلمون من أعدائهم في الحرب من أسرى وسبي وأراضي وأموال، فالأسرى هم الرّجال المقاتلون، والسبي هم النساء والأطفال الذين يقعون في الأسر، والأموال كالذهب والفضة والمتاع والسّلاح والعبيد، وهذه الأموال إذا حصل عليها المسلمون عن طريق القتال فإنّها تقسم أخماساً وتوزّع حسبما ورد في القرآن الكريم، ويكون للمقاتلين أربعة أخماس، قال تعالى: ﴿۞ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ﴾[5].

---

(١) سورة التوبة: الآية ٢٩.
(٢) أبو يوسف: الخراج، ص٧٢، ١٢٠ أحمد عبد الباقي: معالم الحضارة العربية، ص١٤٥.
(٣) انظر الماوردي: الأحكام السلطانية، ص١٨٣.
(٤) أبو عبيد: الأموال، ص٧٤ اليعقوبي: التاريخ، جـ٢، ص١٥٢ البلاذري: فتوح البلدان، ص١٣١.
(٥) سورة الأنفال: الآية ٤١.

٤- الفيء:

وهي الأموال التي يحصل عليها المسلمون من أعدائهم صلحاً من غير قتال، أو ما ملكه المسلمون عفواً لانجلاء المشركين عنه[١]، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡهُمۡ فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ خَيۡلٖ وَلَا رِكَابٖ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾[٢]، وقد يكون الفيء أرضاً أو مالاً أو سلاحاً، ويصرف منه على مصالح المسلمين، فقد تدفع منه رواتب الولاة والقضاة والعلماء وأئمة الصّلاة والمؤذّنين، ويخصّص منه قسم للجند وشراء الأسلحة والمعدّات الحربيّة[٣].

٥- الزّكاة:

وهي ما يؤخذ من مال أغنياء المسلمين ويوزّع على فقرائهم امتثالاً لقوله تعالى: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾[٤]، والزكاة أحد أركان الإسلام التعبّديّة، فإذا امتنع المسلم عن أدائها فقد هدم ركناً أساسياً من أركان الإسلام، ومن أنكر وجوبها فهو مرتدّ تجري عليه أحكام المرتدّين.

وتجب الزكاة في عدّة أصناف من الأموال هي النقود والمعادن والزروع والثمار، وعروض التجارة والسوائم من الإبل والبقر والغنم (المواشي)[٥]، ويتم توزيع أموال الزكاة في ثمانية وجوه حدّدها القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾[٦].

---

(١) يحيى بن آدم القرشي: الخراج، ص١٧ الماوردي: الأحكام السلطانية، ص١٦١.
(٢) سورة الحشر: الآية ٦.
(٣) الماوردي: الأحكام السلطانية، ص١٦٢-١٦٣ توفيق اليوزبكي: دراسات في النظم، ص١٤٣.
(٤) سورة التوبة: الآية ١٠٣.
(٥) الماوردي: الأحكام السلطانية، ص١٤٦.
(٦) سورة التوبة: الآية ٦٠.

وتؤخذ الزكاة من الأموال النقدية إذا بلغت النصاب وحال عليها الحول وزادت على حاجة صاحبها الضرورية وتؤخذ بواقع ٢.٥٪، فإذا كانت من الذهب فنصابها عشرون مثقالاً من الذهب وعليها نصف مثقال، فإذا بلغت أربعين مثقالاً فعليها مثقالاً واحداً وهكذا، وإذا كانت من الفضّة فنصابها مائتي درهم وزكاتها خمسة دراهم[١]، أمّا عروض التجارة وهي بضاعة المسلمين بما فيها الرقيق، فتقدّر قيمتها ويتم إخراج زكاتها بواقع ٢.٥٪ من ثمنها[٢].

وتختلف أنواع الثمار التي تجب فيها الزكاة حسب رأي الفقهاء فجعلها أبو حنيفة في كل أنواع الثمر، وجعلها الشافعي في التمر والعنب وبعضهم جعلها في الخضر والبقول والحبوب، وقصرها آخرون على ما يكال ويدّخر، وحدّها الأدنى خمسة أوسق[٣]، وزكاتها العشر إذا كانت تسقى بماء المطر أو بالقنوات، ونصف العشر إذا كانت تسقى بالآلات[٤].

أمّا زكاة المواشي وهي الإبل والغنم والبقر، فتؤخذ زكاتها إذا وصلت النصاب وكانت في ملكيّة صاحبها سنة واحدة على الأقل وكانت سائمة في المراعي، وتكون زكاتها على الوجه التالي[٥]:

(١) الإبل:

من ٥-٩ رؤوس عليها شاة جذعة عمرها ستة أشهر، أو ثنية من الماعز.

١٠-١٤ رأس عليها شاتان.

١٥-١٩ رأس عليها ثلاث شياه.

٢٠-٢٤ رأس عليها أربع شياه.

---

(١) أبو عبيد: الأموال، ص٤٢٤-٤٢٥ الماوردي: الأحكام السلطانية، ص١٥٢-١٥٣.
(٢) يحيى بن آدم: الخراج، ص١٢٦ الدوري: تاريخ العراق، ص١٨٢.
(٣) الوسق في صدر الإسلام كان يعادل (١٩٤.٣) كغم قمح (انظر الدوري: تاريخ العراق، ص١٨١).
(٤) الماوردي: الأحكام السلطانيّة، ص١٥٠.
(٥) انظر أبو عبيد: الأموال، ص٣٨٦ وما بعدها الماوردي: الأحكام السلطانيّة، ص١٤٦-١٤٨.

٢٥-٣٥ رأس عليها بنت مخاض من الإبل عمرها سنة أو ابن لبون ذكر.

٣٦-٤٥ رأس عليها ابنة لبون عمرها سنتان.

٤٦-٦٠ رأس عليها حقّة عمرها ثلاث سنوات واستحقّت الركوب.

٦١-٧٥ رأس عليها جذعة عمرها أربع سنوات.

٧٦-٩٠ رأس عليها بنتاً لبون.

٩١-١٢٠ رأس عليها حقّتان.

(٢) البقر والجاموس:

من ٣٠-٣٩ عليها تبيع ذكر عمره ستة أشهر.

٤٠-٥٠ عليها مسنة أُنثى عمرها سنة.

٦٠-٨٩ عليها تبيعان.

(٣) الغنم:

٤٠-١٢٠ رأس عليها جذعة أو ثنية من المعز.

١٢١-١٩٩ رأس عليها شاتان.

٢٠٠-٣٩٩ رأس عليها ثلاث شياه ثمّ في كل مائة شاة.

٦- العشور:

وهي ضرائب تجاريّة يعود أصل فرضها إلى عهد الخليفة عمر بن الخطّاب، عندما كتب إليه أبو موسى الأشعري، أنّ تجاراً من المسلمين يأتون بلاد الكفّار للتجارة فيأخذون منهم العشر، فكتب إليه عمر: خذ أنت منهم كما يأخذون من تجّار المسلمين، وخذ من أهل الذمّة نصف العشر، ومن المسلمين ربع العشر، ولا تأخذ منهم فيما دون المائتين شيئاً. وتؤخذ الضريبة مرّة واحدة في العام، ولا تؤخذ إلاّ عند انتقال التاجر من بلد إلى بلد آخر.

ووجدت بعض الموارد الأخرى لبيت مال المسلمين، لكنها لم تكن ثابتة، منها ضرائب كانت تفرض على الحوانيت والأسواق بدأ فرضها في خلافة المهدي العباسي، وهدايا النيروز والمهرجان وهي تعود إلى خلافة معاوية بن أبي سفيان[1]، وضرائب على الطواحين وعلى بيع الأغنام والدواب.

وكانت تدخل بيت مال المسلمين أموال ضخمة وصلت في عهد الخليفة معاوية بن أبي سفيان إلى أكثر من ٦٥٥ مليون درهم، وفي عهد المأمون ٣٩٠ مليون درهم[2]، إلاّ أنّها أخذت بالتراجع منذ أواسط القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي.

---

(١) أبو يوسف: الخراج، ص١٣٠-١٣٣ محمد محاسنة: الأحوال الاقتصادية، ص٢٢٤.

(٢) انظر الجهشاني: الوزراء والكتّاب، ص٢٨١-٢٨٢.

نفقات الدولة الإسلاميّة

كانت الدولة الإسلامية منذ نشأتها تهتمّ بأفراد الرعيّة اهتماماً كبيراً، لذلك عملت على توفير مستلزمات العيش، وتقديم الخدمات اللازمة لراحة المجتمع وأمنه، وكانت تنفق الأموال التي تدخل خزينة الدولة في الوجوه التالية[1]:

١- أُعطيات المسلمين، وكانت هذه الأعطيات في خلافة عمر بن الخطاب تشمل جميع فئات المجتمع بما في ذلك الأطفال والنّساء، إلاّ أنّ هذه الأعطيات لم تكن ثابتة طوال العصور الإسلاميّة.

٢- الرواتب والأرزاق التي كانت تدفع لموظفي الدولة، كالوزراء والولاة والقضاة وأصحاب الدواوين والجُند.

٣- إعداد الجيوش للجهاد، ويتضمّن ذلك تزويد الجيوش بالأساطيل والمعدّات الحربيّة والخيول والأسلحة والملابس والخيام.

٤- إصلاح مرافق الدولة وتشمل تطهير الأنهار وإصلاح مجاريها وحفر الترع وشقّ القنوات لتوصيل المياه من الأنهار إلى الأراضي الزراعيّة، وإصلاح السدود، وسدّ البثوق.

٥- شقّ الطرق وتسويتها للمارّة والمسافرين، وإقامة الجسور.

٦- الإنفاق على الحرمين في مكّة والمدينة والمساجد الإسلاميّة وتعمير الثغور.

٧- الإنفاق على العمران خاصة إنشاء المدن التي كانت مراكز لنشر الإسلام.

٨- الإنفاق على المساجين وأسرى المشركين، ودفن الموتى.

٩- العطايا والمنح والخلع التي يمنحها الخلفاء للأدباء والعلماء، أو للأمراء والقادة والوزراء وغيرهم.

---

(١) انظر اليعقوبي: التاريخ، جـ٢، ص٢٩١-٢٩٢ المسعودي: مروج الذهب، جـ٤، ص٦٣-١٣٥.

الزّراعة

اهتمّ المسلمون بالزراعة منذ بداية الدولة الإسلامية الأولى، فدعا الرسول ﷺ إلى العناية بالزراعة والغرس لقوله عليه الصلاة والسلام: (ما من مؤمن يغرس غرساً أو يزرع زرعاً فيأكل منه طير أو بهيمة إلا كان له به صدقة)[١]، فحمل هذا بعضهم على الاعتناء بالأرض واستخراج خيراتها، إلا أن الفترات الأولى شهدت توجّه الغالبية العظمى من المسلمين إلى الجهاد، فأشغلهم عن العمل بالزراعة بعض الوقت لذلك كانوا يتركون كثيراً من الأراضي المفتوحة بيد أهلها يعملون بها، ووظفوا عليها الخراج إيجاراً لاستغلالها.

ومنذ العصر الأموي وجهت الدولة الإسلامية جلّ عنايتها إلى الأعمال الزراعية فاهتمت بوسائل الري وإنشاء القنوات وبناء السدود، واستخدمت طرق الري الاصطناعي بواسطة آلات بدائية، واستخدمت الدواليب والنواعير والدوالي والشواديف.

واتبع المسلمون الدورة الزراعية وهي إراحة الأرض موسماً وزراعتها في موسم آخر[٢]، حيث تقسم الأرض إلى قسمين تتم زراعتهما بالتناوب، وعرفوا التسميد، واستخدموا لذلك فضلات الدواب وبقايا الرماد، أما وسائل الزراعة فاستخدموا المحراث والمسحاة لحراثة الأرض، وكان المحراث تجرّه الثيران وهو المحراث البلدي، واستعملوا الحيوانات في الأعمال الزراعية خاصة الأبقار والجواميس والحمير والبغال[٣].

وتفنن العرب في زراعة الفاكهة وأدخلوا إلى بلادهم زراعة الكثير من الأشجار المثمرة التي لم تكن معروفة من قبل، فأدخلوا إلى العراق زراعة البرتقال والليمون،

---

(١) (٥٤١) مسلم بن حجاج: الصحيح، جـ٣، ص١٦٨٨.

(٢) الماوردي: الأحكام السلطانية.

(٣) انظر هاملتون جب: المجتمع الإسلامي والعرب، ص١١٠ محمد محاسنة: الأحوال الإقتصادية، ص٩١.

وكانت العراق تشتهر بزراعة النخيل ولا تزال حتى اليوم من أكثر بلاد العالم انتاجاً للتمور، وكانت منطقة السواد في جنوب العراق من اخصب البلاد وأكثرها انتاجاً للزروع والثمار، وزرعوا في العراق الحنطة والشعير والرز والقطن والزيتون، كما زرعوا فيه البطيخ والتين والعنب وقصب السكر، ومن الورود القرنفل والياسمين والجوري والبنفسج، واشتهرت سنجار بالرمان، كما تميزت بلاد الشام بانتاج التفاح الذي كان مضرب المثل بجودته واللوزيات والفستق والعنب الذي يذكر أن غوطة دمشق كان يزرع فيها ما يقارب خمسين صنفاً منه.

وعرفت الدّولة الإسلاميّة ملكيّة الأراضي الزراعيّة ومن أصناف هذه الملكيّات:

١- **الأراضي السلطانية (ضياع الخلافة)**: وتعود أصلاً إلى أراضي الصوافي التي استصفاها عمر بن الخطاب من أملاك الفرس والبيزنطيين، والأراضي التي مات أهلها أو هربوا عنها خلال حركات الفتح الإسلامي، وأصبحت ملكاً للمسلمين تعود ملكيتها لبيت المال، واقطع منها بعض الخلفاء في فترات متعدّدة، ثمّ تعرّض قسم منها للضياع بسبب بيعها خلال الأزمة المالية التي تعرّضت لها الدولة العباسيّة في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي.

٢- **الإقطاعات**: وكانت على نوعين، إقطاع تمليك، وإقطاع استغلال. فإقطاع التمليك تكون لصاحبه الملكيّة التامّة، وقد تكون وراثيّة، ويدفع صاحبها العشر (الزكاة)، وإقطاع الاستغلال هو إقطاع استثماري يشبه نظام التأجير أو الضمان وكان يعطى من أراضي الصوافي لقاء نسبة من الحاصل أو مبلغ نقدي محدّد[١]، وهو على نوعين هما:

١) إقطاعات مدنيّة تمنح لكبار رجال الدولة من وزراء وولاة وغيرهم بدل الرواتب، فإذا عزل أخذت منه وسلّمت إلى غيره.

---

(١) أبو يوسف: الخراج، ص٥٧-٥٨ الماوردي: الأحكام السلطانية، ص٢٣٩ وما بعدها الدوري: تاريخ العراق، ص٤٠.

٢) إقطاعات عسكرية منحت للجنود خاصة الأتراك وبدأت بشكل واضح منذ عهد المعتصم الذي اعتمد على الأتراك وجنّد منهم أعداداً كبيرة.

ومع هذا كان هناك إقطاعات أخرى منها إقطاعات الخليفة، وهذه برزت في فترة التسلّط البويهي حيث خصّص معزّ الدولة للخليفة إقطاعات خاصة بعد أن استولى على ضياع الخلافة، والإقطاعات الخاصة التي كانت تمنح لمن قدّم خدمات جليلة للدولة أو للشعراء والأطباء والمحدّثين والمغنّين، ويدخل في هذا النوع الأراضي المتروكة وأراضي الموات بغرض إحيائها، ويتمتّع صاحبها بملكيّتها وحقّ توريثها.

٣- **أراضي الملك**: وهذه مصادرها متعدّدة منها الأراضي التي أسلم أهلها عليها، ومنها إقطاعات التمليك التي منحها بعض الخلفاء، ومنها أراضي الموات التي تمّ إحياؤها من السباخ والمستنقعات(١)، وما بيع من أراضي الصوافي في أوقات الأزمات.

٤- **الأوقاف**: وهي التي تخصّص للأغراض الدينيّة أو للمصالح العامة، وعرف نوعان من الأوقاف هي الأوقاف الخاصة والأوقاف العامة، فالخاصة هي التي يوقفها أشخاص أتقياء لتكون منافعها محبوسة على جهة خاصة أو قوم مخصوصين، والأوقاف العامة أو الرسميّة وهي التي يوقفها الخلفاء وتكون منافعها شاملة(٢).

وعرف المسلمون وسائل وطرق زراعية متعددة منها المغارسة وتكون بأن يعطي صاحب الأرض أرضه إلى فلاح يغرسها بالأشجار ويستفيد منها خلال سنوات معدودة يتم تحديدها بموجب عقد بين الطرفين، وبعد انتهاء العقد الذي يلزم الفلاح بما ورد فيه، فإنه ينال نصف الأرض المغروسة، ونصفها يعود لصاحب الأرض، والمساقاة، وتكون بأن يعطي مالك الأرض بستاناً من النخيل أو الكروم أو غيره إلى فلاح يقوم برعايته والاشراف عليه بالسقاية والتسميد والتعشيب وحمايته من اللصوص والطيور مقابل حصة من الثمار يتم الإتفاق عليها بين الطرفين.

---

(١) الماوردي: الأحكام السلطانية، ص٢٤٠ الدوري: تاريخ العراق، ص٤٦.

(٢) انظر الدوري: تاريخ العراق، ص٤٩ توفيق اليوزبكي: دراسات في النظم، ص٢٤٠.

والمزارعة: وهي أن تعطي الأرض لمن يزرعها، ثم يكون الثمر قسمة بين الزارع والمالك بالنصف أو الثلث أو الربع وحسب اتفاق الطرفين(١)، وقد تكون المزارعة بنقد معلوم على أن يزرعها الاجير لنفسه، والتسليف أو الضمان هو أن يعي صاحب الأرض المزروعة بالأشجار أرضه لرجل آخر ليقطف ثمارها لموسم واحد مقابل مبلغ من المال، اما إذا كانت الأرض مزروعة بالحبوب، وأعطيت لشخص لجمع نتاجها فإن هذا يعرف بالمخابرة، فالتسليف والمخابرة شيء واحد غير أن التسليف يكون على ثمار الأشجار، والمخابرة على الزروع.

الصناعة

لقد أكّد القرآن الكريم على أهمية العمل ودعا المسلمين إلى ممارسة الأعمال التي فيها خيرهم وكسب رزقهم في الدنيا وصلاحهم في الآخرة، قال تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾(٢)، ورتب الإسلام الأجر على قدر العمل، وأشاد بالعمل اليدوي حتى عدّه نعمة عظمى لا بدّ للإنسان من حفظها والمداومة عليها، قال تعالى: ﴿ لِيَأْكُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾(٣)، وورد عن المصطفى عليه الصلاة والسلام في دعوة الإنسان للعمل قوله: (لئِن يأخذ أحدكم حبلاً فيأتي بحزمة من الحطب على ظهره فيبيعها، فيكفّ بها وجهه خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه)(٤).

وكان لهذه التعاليم أبلغ الأثر في نفوس المسلمين الذين أقبلوا على العمل وتحصيل رزقهم بجهدهم، إلا أن أيّام المسلمين الأولى شهدت انشغالهم بحروب التحرير والفتح، فكان اكثر من اشتغل بالمهن والصنائع من الموالي وأهل الذمة.

---

(١) أبو يوسف: الخراج، ص٦٢ محمد محاسنة: الأموال الإقتصادية، ص٨٨.
(٢) سورة التوبة: الآية ١٠٥.
(٣) سورة يس: الآية ٣٥.
(٤) النووي: رياض الصالحين، ص٢٠٥.

وتركز اهتمام المسلمين في صدر الإسلام على الصناعات العسكرية كالسيوف والرماح والنبال والدروع وذلك لحاجتهم إلى هذه الإسلحة، كما صنعوا منذ عهد الرسول ﷺ الدبابة وسموها الضبور(الصنبور)، كما تعلموا صناعة المجانيق، وهو آلة ترمى بها الحجارة على الأعداء، واستعملوها في حصار الطائف[1].

لقد تفنن العرب في العمل بالصناعة وقلدوا كثيراً من الصناعات الحربية، وابتكروا صناعات أخرى جديدة، وتبوؤا مركزاً مرموقاً في هذا المجال، وبرعوا في صناعة الأسرّة والنمارق والبسط والزرابي والجفان والقدور والاكواب والأباريق والصحاف والموائد وكانت تصنع من الفخار أو من الزجاج.

وتطورت الصناعات في العصور الإسلامية المتعاقبة تطوراً سريعاً فعرفت في العصر الأموي مصانع التطريز وكانت تنسج بها الأعلام والرايات وأزياء البلاد، وخلع الخليفة على كبار القادة والموظفين، وأنشى لها ديوان خاص للإشراف عليها سمي ديوان الطراز[2].

وساعد على إزدهار الصناعة وتقدمها توفر المواد الأولية اللازمة للصناعة في ولايات الدولة العربية الإسلامية كالثروة المعدنية، فكانوا يستخرجون الفضة والنحاس من مناجم فارس وخراسان، والحديد من مناجم بالقرب من بيروت، واستخرج الملح والكبريت من شمال بلاد فارس، والقار والنفط من بلاد الكرج، والذهب من المغرب وبلاد النوبة، كما كانت تتوفر الأخشاب في معظم ولايات الدولة خاصة في افريقيا وتوفّرت المواد الأولية الحيوانية والنباتية التي تعتمد عليها صناعة الالبان والمنسوجات المختلفة القطنية والصوفية والحريرية والكتانية، كما ساعد على تشجيع الصناعة أيضاً أن رجال الدولة والأغنياء من الناس أخذوا يتهافتون على اقتناء الألبسة والأثاث الفاخر فشجع ذلك الصناع على اتقان ما يصنعون من البضائع، واستقطبت بعض المدن الإسلامية حذاق أهل الصناعات والحرف لإبراز

---

(١) ابن هشام: السيرة النبوية، جـ٤، ص١٢٦.

(٢) ابن خلدون: العبر، جـ١، ص٢٦٢-٢٦٧.

مواهبهم في إنتاج الصناعات المتميزة[1].

وتكتل أرباب كل صناعة من الصناعات ليكونوا صنفاً خاصاً -والاصناف هي النقابات المهنية- وكان هناك تنظيم متدرج لكل حرفة، فهناك الصناع والأساتذة ورؤساء الحرف[2]، وكان لا يدخل الحرفة إلا من تدرّب واكتسب مهارة تسمح له بممارستها، ويتعاون أهل الحرفة الواحدة على ضمان السريّة المهنية لحماية أفرادها، كما حرص شيوخ الصنائع على تحسين مصنوعاتهم ورفع جودتها ونوعيتها، كما كانت مؤسسة الحسبة تتولى مراقبة الصنائع والحرف وجودتها والشروط التي يجب إلتزامها في كل مهنة[3]، وفيما يلي أهم الصناعات التي عرفها المسلمون:

١- الصناعات النسيجية:

وجد العرب في البلاد المحررة والمفتوحة الكثير من مصانع النسيج، فشجّعوا بقاء هذه الصناعات، وإقامة مصانع أخرى جديدة، فأقيمت مصانع النسيج في العراق وبلاد الشام ومصر وبلاد فارس وغيرها من البلدان الإسلامية.

وامتازت دمشق بأقمشتها الحريرية الفاخرة التي غزت أسواق أوروبا وكانت تعرف باسم الدمقس (نسبة إلى دمشق)، وصنعت فيها أقمشة مشجّرة سميت الدمشقيات[4]، ولعل كثير من التسميات التي حملتها الأقمشة الفاخرة كانت من منسوجات المدن الإسلامية: فالفستيان مصدره مدينة الفسطاط في مصر، والموسلين ما كان يستورد من مدينة الموصل وهو من اجود المنسوجات القطنية.

وكان يصنع ببغداد ألوان متعددة من ثياب القز لا سيّما العباداني والساماني الرفيع، والمنسوجات الحريرية كالمآزر والعمائم والمناديل والثياب القطنية البيض،

---

(١) انظر اليعقوبي: البلدان، ص٢٥١ أحمد عبد الباقي: معالم الحضارة العربية، ص١١٧.

(٢) الدوري: تاريخ العراق، ص٩٢.

(٣) الماوردي: الأحكام السلطانية، ص٣١٨ الشيزري: نهاية الرتبة، ص٧-٩.

(٤) انظر المقدسي: أحسن التقاسيم، ص١٨١، الحصيني: منتخبات التواريخ لدمشق، ص١١٤٤.

والسقلاطون، كما اشتهرت البصرة بصنع الخز والبز[1]، ولجودة ما كان يصنع بالبصرة من المنسوجات، ذكر الجاحظ بأن (الصناعة بالبصرة).

واشتهر اقليم طبرستان بمنسوجات الابريسم من الثياب والمآزر والمناديل وصنع الأكسية والمطارف والمدارع الصوفية الثمينة، ومناديل القطن، وفي تستر كانت تعمل كسوة الكعبة المشرفة وتطرز فيها ملابس خاصة لخلفاء سامراء من بني العباس[2].

٢- الصناعات المعدنية:

اشتهرت اليمن بصناعة السيوف منذ القديم، وكانت تعرف بالسيوف اليمانية، وكذلك اشتهرت خراسان بصناعة السيوف والجواشن والدروع وهي اسلحة عسكرية، كما صنعت السيوف والدروع في مدن ما وراء النهر في خوارزم وفرغانة وسمرقند[3].

ولتوفر المعادن في العراق فقد اشتهرت بالصناعات المعدنية كالسيوف والدروع والخوذ الحديدية، وكانت تصنع في الموصل السلاسل الحديدية والسكاكين والأسطال والنشاب، وتميزت دمشق بصناعة الصفريات وفن تكفيت المعادن بالذهب والفضّة، واختصت مدينة القدس بصناعة القناديل.

٣- صناعة الزجاج:

ازدهرت صناعة الزجاج في العراق من صخور رملية خاصة، فصنعت منه الأواني والأقداح والكؤوس والقناديل، واستعمل الزجاج المنقوش في تزيين الشبابيك وكان يصدر إلى البلدان المختلفة إلى تونس والحجاز، فوجد من هذا الزجاج في جامع القيروان بتونس، ووجد منه معلق في الكعبة المشرفة، وكانت ترسم على الزجاج

---

(١) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص١٢٨.
(٢) المقدسي: أحسن التقاسيم، ٤٠٢-٤١٦.
(٣) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص٣٢٥، ٣٢٨، ١٨٠. =

العراقي نقوش على شكل أشجار وكتابات وصور حيوانية ومناظر مختلفة، وانتشرت صناعته في بغداد والبصرة وسامراء والكوفة[1].

وفي بلاد الشام كانت صناعة الزجاج قديمة وطرأت عليها تطورات كثيرة في العصر الإسلامي فزادت دقّة واتقاناً، وصار يصنع منه نوع رقيق شفاف في دمشق خال من الشوائب حتى أصبح مضرب المثل في صفائه ورقّته[2]، ونقلت صناعته إلى الأندلس مع الدماشقة الذين رحلوا إلى تلك الديار.

٤- صناعة الفخار:

وتتطلب هذه الصناعة مهارة فائقة وخبرة طويلة، وصناعة الفخار قديمة في العراق، وكانت تصنع من الفخار الأدوات والأواني المنزلية والمزهريات والقناديل للمساجد والقصور، وانتشرت صناعته في مختلف المدن العراقية في البصرة والكوفة وسامراء، واشتهرت بغداد بإنتاج الخزف ذي الألوان الجميلة الزاهية، ويعتبر البريق المعدني الذي أصبح ميزة للخزف الإسلامي ويكسبه لمعاناً رائعاً من إنتاج الخزاف العراقي[3].

وانتقلت هذه الصناعة إلى بلاد الشام خاصة إلى دمشق، وظهرت منه أشكال متعدّدة ومزخرفة برسوم النباتات والأشكال الهندسية ورسوم الطيور ونشطت كثيراً في العصر الفاطمي، وكانت مدن فارس تتميّز بإنتاج هذه الصناعة على نطاق واسع حتى أن أجود أنواع الفخّار والخزف كان يُنسب إلى مدن فارس وما وراء النهر، فالقاشاني وهو نوع متطوّر من الخزف منسوب إلى مدينة قاشان.

٥- صناعة البسط والسجّاد والستائر:

وهي صناعات عربيّة قديمة ازدهرت في العراق ومشرق العالم الإسلامي، وبلغت

---

(١) انظر اليعقوبي: البلدان، ص٢٦٤ توفيق اليوزبكي: دراسات في النظم، ص٢٩٨.
(٢) الثعالبي: لطائف المعارف، ص١٥٧ الحصيني: منخبات التواريخ، ص١١٣٨-١١٣٩.
(٣) أرنست كويل: الفن الإسلامي، ص٤١ أحمد عبد الباقي: معالم الحضارة، ص١٢٨-١٢٩.

درجة عالية من الرقيّ والتطوّر، فاشتهرت مدينة واسط بصناعة السجّاد والستور، وفي ميسان صنعت البسط الفاخرة المنسوبة إليها، والستور الحريرية، وأنواع الفرش والأنماط والوسائد، وكانت تصنع في العراق الطنافس المعروفة بالطنافس الحيرية في النعمانيّة، وترسم عليها زخارف ورسوم الحيوانات، كالفيلة والسباع والخيل والجمال والطيور[١]، وأجود أنواع البسط ما كان يصنع في بلاد فارس.

٦- صناعة الصابون والعطور:

وانتشرت صناعته في مناطق متعدّدة من العالم الإسلامي في بلاد الشام والعراق والمشرق الإسلامي، فازدهرت صناعته في مدن فلسطين وكانت تصنع الأنواع الجيّدة من الصابون خاصة في مدينة نابلس، كما اشتهرت الرقّة بصناعته ونسب إليها فسمّي الصابون الرقي، وفي بلاد ما وراء النهر اشتهرت بصناعته مدن بلخ وترمذ وكذلك مدينة أرّجان حيث كان يصدّر منها إلى بلاد متعدّدة[٢].

وتميّزت دمشق بصناعة العطور لكثرة ما كان يزرع فيها من أنواع الورود والرياحين وأزهار النباتات، فكان يستخرج من أزهار الآس والنيلوفر والبنفسج والياسمين، وخصّص له سوق في دمشق عُرف بسوق العطّارين[٣].

٧- صناعة الجلود:

اشتهرت مدن ما وراء النهر خاصة بخارى والجرجانيّة بدباغة الجلود، واشتهرت خوارزم بصناعة القلانس وجلود الفرو كجلود السمور والمسك والسنجاب والأرانب والثعالب، وفي مدينة الشاش كانت تصنع السّروج الجيدة المستوردة من تركستان[٤]، كما اشتهرت بهذه الصناعة كل من بغداد واليمن ومصر والمغرب.

---

(١) ادم متز: الحضارة الإسلامية، جـ٢، ص٣٦١ اللدوري: تاريخ العراق، ص١٠٥.

(٢) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص١٤٥، ١٨٠، ٣٢٤، ٤٤٢ أحمد عبد الباقي: معالم الحضارة، ص١٣١.

(٣) الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص٢٦٨ محمد محاسنة: تاريخ مدينة دمشق، ص٢٢٢.

(٤) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص٣٢٤-٣٢٥.

٨- صناعة الورق:

عرفت صناعة الورق في المنطقة العربية قبل الإسلام، وكان يصنع من نبات البردي، وبقي مستخدماً بعد مجيء الإسلام حتى العصر العباسي، عندما نقلت صناعة الورق من الصين وكان يسمّى (الكاغد)، حيث نقلت في القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي إلى العراق وبلاد الشام، حيث ظهر أول مصنع للورق في بغداد سنة ١٧٨هـ/ ٧٩٤م واستخدم في دواوين الدولة، ثمّ ما لبثت صناعته أن انتقلت إلى دمشق ثمّ إلى مصر، وتأخر وصول هذه الصناعة إلى أوروبا حتى القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي، فدخلها عن طريق الأندلس الإسلاميّة، وأطلق عليه الأوروبيون اسم (الصحائف الدمشقيّة)[١].

٩- الصناعات الخشبية:

وازدهرت صناعة النجارة فكان النجارون يصنعون المناضد والكراسي والأبواب والسقوف الخشبية والأثاث المنزلي، واستخدمت في منابر المساجد وبعض المآذن، وأفردت في دمشق أحياء خاصة لصناعة الأدوات الخشبية أطلق عليها اسم (سوق الخشّابين)[٢].

وهناك صناعات أخرى كثيرة كانت منتشرة في مختلف ولايات الدولة الإسلاميّة، منها صناعة الصياغة من المجوهرات والحلي اللازمة للزينة، حيث تفنّن الصّاغة في أنواعها ونقوشها وتخاريمها في بغداد والقاهرة ودمشق وغيرها، وكان الصّاغة ينتجون أكلّة الجواهر وأقرطة الذهب المزيّنة بالدرّ والياقوت، والخواتم والقلائد والأطواق والخلاخيل.

وكذلك انتشر في أرجاء ولايات الدولة الصناعات الغذائيّة، كصناعة الدبس واستخراج السكّر من قصب السكر وصناعة الأجبان والألبان وتجفيف الفواكه بالإضافة إلى صناعة الأدوية والعقاقير وغير ذلك.

---

(١) ادم متز: الحضارة الإسلامية، ص٣٦٥-٣٦٧.
(٢) الحميري: الروض المعطار، ص٢٦٨.

التجارة

التجارة لغة هي البيع والشّراء[1]، وتتمّ بوجود وسيط يقوم بعملية البيع أو الشّراء هو التاجر، والتجّار هم (الأشخاص الذين يتبايعون بالأخذ والعطاء وغرضهم طلب الزيادة فيما يأخذونه على ما يعطونه)[2]. فالتجارة هي الأعمال والممارسات التي يقوم بها الأشخاص من بيع وشراء، أو وساطة في نقل السلع من مكان إلى آخر وإيصالها إلى جماعة هم بحاجة إليها.

ويشير الدمشقي إلى وجود ثلاثة أنواع من التجّار، هم: الركاض والخزان والمجهز، فالركاض هو التاجر الذي يتعامل مع بلدان مختلفة، ويحمل معه رقعة بأسعار البضائع في البلد الذي يريد العودة إليه، ويضيف إلى ذلك نفقات النقل والمكوس وما يحتاج إليه من مؤن حتى يصل إلى محل بيعها، ثمّ يقارن ذلك بالسعر الموجود في الرقعة الأولى ليتأكّد من ربحه.

والخزان هو التاجر الذي يشتري البضاعة عند كثرة عرضها في الأسواق ويحتفظ بها حتى يشتدّ الطلب عليها[3]، ويعتبر هذا النوع من التجار احتكارياً، لأنّه يمنع السلعة عن النّاس ليرتفع ثمنها.

أ مّا المجهز فهو التاجر الذي لا يحتاج إلى التنقّل بين البلدان، وإنّما يعتمد على الوكلاء الذين يرسل إليهم البضاعة وينوبون عنه في عمليات البيع والشراء لقاء حصّة من الربح، ويشترط في الوكلاء أن يكونوا من أصحاب الأمانة والخبرة في عمليات البيع والشّراء.

مارس العرب الأعمال التجاريّة منذ زمن بعيد وقبل ظهور الإسلام، فكانت لهم رحلات تجارية إلى الشّام واليمن ومناطق متعدّدة من العالم، وقد أشار القرآن الكريم

---

(١) ابن منظور: لسان العرب، جـ٥، ص١٥٦.

(٢) اخوان الصفا: الرسائل، جـ١، ص٢٨٥.

(٣) الدمشقي: الإشارة إلى محاسنة التجارة، ص٤٩ الدوري: تاريخ العراق، ص١٢٤٥.

إلى تجارة قريش بقوله تعالى: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ ۝٢﴾[1] ، وقد عمل الرسول ﷺ بالتجارة، فذهب قبل البعثة إلى الشّام ليتاجر بأموال السيّدة خديجة بنت خويلد، وعمل كثير من الصحابة وبعض خلفائه بالتجارة ومنهم أبو بكر وعثمان بن عفّان رضي الله عنهما.

وفي عصر الفتوحات الإسلامية (صدر الإسلام) كان اهتمام العرب منصباً على الناحية العسكريّة لإنشغالهم بأعمال الجهاد، وبقي أثر التجارة قليلاً، فلمّا وصلت الدولة العربية الإسلاميّة إلى أقصى اتّساع لها، بدأت التجارة تستحوذ على اهتمام الكثيرين، وبدأ التجّار العرب يحلوّن محلّ أهل الذمّة في التجارة خاصة اليهود الذين احتكروا التجارة البحرية بين الشرق والغرب لفترة من الزّمن، حيث بدأت التجارة العربية الإسلاميّة تنشط في الداخل والخارج، وكانت الأسباب والعوامل التي ساعدت على نشاط التجارة في العالم الإسلامي تشتمل على:

١- اتّساع مساحة البلاد الإسلاميّة، حيث شملت البلاد الواقعة من الهند والصين شرقاً إلى إسبانيا وجنوب فرنسا غرباً، ومن الأناضول والقوقاز شمالاً إلى المحيط الهندي والصحراء الكبرى جنوباً.

٢- ازدهار الصناعة في البلاد الإسلاميّة وكثرة المنتجات الصناعيّة.

٣- كثرة الأموال والثروات نتيجة ازدياد مساحة الأراضي الزراعيّة وزيادة إنتاجها بعد الفتح العربي الإسلامي.

٤- تشجيع الإسلام للتجارة وحثّه على السعي في طلب الرزق.

٥- ارتفاع مستوى المعيشة وحياة الرّخاء في حواضر العالم الإسلامي.

٦- توحيد النقد الذي تمّ من خلال عمليات تعريب النقود زمن عبد الملك بن مروان.

---

(١) سورة قريش: الآيات ١-٢.

٧- مبدأ السماح بالمشاركة بين المسلم والذميّ في التجارة والذي أباحه الإسلام شريطة أن يحضر المسلم كافة المعاملات التي يقوم بها شريكه.

وبدأ العرب المسلمون بتنظيم قوافلهم التجاريّة التي كانت تجوب الولايات الإسلاميّة، أو تنطلق إلى الشرق قاصدة الهند والصين وجزر المحيط الهندي أو إلى الغرب باتجاه الأسواق الأوروبية محمّلة بالبضائع من بلادهم أو من الشرق الأقصى.

وكانت السفن التجارية العربيّة تمخر في بحر الرّوم (المتوسّط) من سواحله الشرقية والجنوبية إلى سواحل أوروبا، وكانت إنطاكية وطرابلس[١] مراكز تجارية هامة تنطلق منها السفن المحمّلة ببضائع الشرق إلى الأسواق الأوروبية، وتعود من هناك محمّلة ببضائع الغرب، كما كانت السفن الإسلاميّة تنقل البضائع إلى بلدان الشرق الأقصى، كالهند وبورما والملايو والصين عبر الخليج العربي والمحيط الهندي منطلقة من موانى الخليج مثل سيراف وعُمان وعدن[٢]، فوصل تجّار العرب إلى الصين واستقرّ بعضهم في مدينة خانفو (كانتون)، وشكّلوا جالية كبيرة عملت على نشر الدين الإسلامي في تلك البلاد، فصارت كانتون مركزاً لتجارة العرب مع الصين[٣]، ومن هناك أوغل التجّار العرب جنوباً فوصلوا إلى كوريا وجزر اليابان.

وقد وسّع استيلاء العرب على إقليم السند المجال التجاري لهم في الهند وقيامهم بنشر الدين الإسلامي في تلك الدّيار، وكانت سفنهم دائمة الإبحار إلى جزيرة سرنديب (سيلان) وسواحل الهند، وشكّلوا جالية إسلاميّة غنيّة تعمل في التجارة أقامت في مدينة صيمور[٤] بالقرب من بومبي، وأقام قسم آخر منهم في مدينة الديبل التي كانت مركزاً تجارياً هاماً في غرب الهند.

كانت السفن والقوافل العربية تحمل إلى البلدان التي تتاجر معها حاصلات الدولة

---

(١) انظر اليعقوبي: البلدان، ص٣٢٧ أحمد عبد الباقي: معالم الحضارة العربية، ص١٣٤-١٣٥.

(٢) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص٨٥ آدم متز: الحضارة الإسلاميّة، جـ٢، ص٤٣٧.

(٣) آدم متز: الحضارة الإسلاميّة، جـ٢، ص٤٤٢.

(٤) ابن حوقل: صورة الأرض، ص٢٢٥ وما بعدها.

الإسلاميّة ومنتجاتها الصناعية، ومنها الحنطة والشعير والأرز والسكّر والزجاج والأقمشة الحريرية والصوفية والكتانيّة والزيوت والعطور والزعفران وشراب العنب، والخرز والمرايا والجواهر[1].

أ مّا البضائع التي كانت تأتي بها السفن والقوافل التجارية الإسلاميّة، فكانوا يأتون من الهند بالتوابل والأحجار الكريمة والنارجيل والخيزران والساج والصندل والكافور والعود الهندي، والثياب القطنية المخمليّة والطاووس والفيل، ومن الصين الحرير الصيني والدار صيني والمسك والعود والسروج والسمور والسيوف[2]، ومن بلاد الروس جلود الخزّ وجلود الثعالب السود والسيوف.

الطّرق التجاريّة

سلك العرب عدّة طرق في رحلاتهم الداخليّة والخارجيّة، وعرفوا نوعين من الطرق هما:

أ- الطرق البرية:

اهتمّ بها المسلمون اهتماماً كبيراً، فأقاموا محطّات الاستراحة على هذه الطرق وزودوها بالخانات وآبار المياه والأطعمة والأعلاف وكل ما يلزم المسافر على الطريق.

وأهمّ الطرق البريّة كانت الطريق التي تربط الحجاز بالولايات الإسلاميّة الأخرى إلى بلاد الشام والعراق ومصر، وكانت هذه الطريق تعرف بطريق الحج، وهي استمرار لطريق القوافل التي كانت تسلكها قريش إلى الشّام ويتفرّع منها طريق في جنوب الأردن باتجاه الغرب إلى مصر[3]، وطريق تتّجه شرقاً من دمشق إلى العراق

(١) سيد أمير علي: مختصر تاريخ العرب، ص٣٦٦ أحمد عبد الباقي: معالم الحضارة العربية، ص١٣٥.
(٢) ابن خرداذبة: المسالك والممالك، ص٦٠-٦٢ ابن الفقيه: مختصر كتاب البلدان، ص٢٣٠.
(٣) محمد كرد علي: خطط الشّام، جـ٤، ص٢٤١.

والجزيرة الفراتيّة، وكان التجّار الذين يسلكون هذا الطريق يتابعون سيرهم من الحجاز جنوباً إلى اليمن إذا أرادوا الاتّجار مع اليمن.

وهناك طريق تبدأ من العراق إلى بلاد الشّام وفلسطين ثمّ إلى مصر وشمال أفريقيا وطريق من دمشق باتجاه الشمال إلى آسيا الصغرى يسلكها التجار إلى بلاد الروم، وطريق من بغداد إلى البصرة، وأخرى من بغداد إلى الموصل.

أمّا التجّار المتّجهون إلى الهند والصين عبر الطريق البريّ، فإمّا أن يبدأ من دمشق أو من بغداد باتّجاه الشرق إلى إيران وبلاد السند والهند، أو شرقاً إلى ما وراء النهر مروراً بمدينة سمرقند ثمّ إلى الصين، وهذا الطريق كان قديماً يُعرف بطريق الحرير، لأنّه أكثر ما كان ينقل حرير الصين إلى بلاد العرب.

ب- الطرق البحريّة:

وكان لها أهميّة خاصة لأنّ أكثر البضائع التي يحملها تجّار المسلمين إلى أوروبا أو إلى الهند والصين، ويعودوا بها من هناك كانت تنقل عبر الطرق البحريّة، وتشمل هذه الطرق:

١- طريق البحر المتوسّط، وتبدأ من سواحل بلاد الشّام خاصة إنطاكية وطرابلس، أو سواحل شمال إفريقية عبر البحر المتوسط إلى السواحل الأوروبية حيث تنقل السفن عبر هذه الطرق بضائع المسلمين إلى الأسواق الأوروبية وكان في طليعتها المنسوجات والأقمشة التي كانت تعجّ بها الأسواق الأوروبيّة في فرنسا وإيطاليا وغيرها، أو تأتي لهم بالبضائع التي حملها التجّار المسلمون من الشرق الأقصى من التوابل والبهارات وغيرها من البضائع التي تعوّد عليها الأوروبيون.

٢- طريق البحر الأحمر، ويبدأ من مصر من القلزم أو من سواحل الحجاز عبر البحر الأحمر فالمحيط الهندي وسواحل عدن وعُمان إلى الهند أو سرنديب أو إلى الصين في أقصى الشرق.

٣- طريق الخليج العربي والمحيط الهندي، وتبدأ من سواحل الخليج العربي وسواحل البحر العربي في جنوب الجزيرة العربية من عدن أو من عُمان أو من سيراف إلى المحيط الهندي[١]، ومن هناك تسير السفن بمحاذاة السواحل إلى الهند إلى مدينة الديبل أو إلى صيمور أو إلى جزيرة سرنديب (سيلان)، وإذا كانت السفن تريد بضاعة الصين فإنّها تتابع سيرها إلى مدينة خانفو (كانتون) في أقصى الشرق.

ومن الطرق البحرية طرق نهرية عبر دجلة والفرات، ففي نهر دجلة كانت بعض الزوارق النهرية تقوم بنقل البضائع بين بغداد والخليج العربي إلى البصرة أو إلى الأبلة، وقام العراقيون باستخدام نهر دجلة باتجاه الشمال إلى الموصل رغم صعوبة السير في اتجاه معاكس لتيار النهر.

النقود الإسلاميّة

عرف العرب النقود قبل ظهور الإسلام إذ كانت لهم دراهم حميرية تعاملوا بها كما تعاملوا بنقود الأمم المجاورة، فاستعملوا الدينار البيزنطي (السوليدس)، والدرهم الساساني، واستخدم العرب كلمة نقد للتعبير عن العملة بعد تأسيس الدولة العربية الإسلاميّة، وكانت قريش تزن الفضة بوزن تسمّيه الدرهم، وتزن الذهب بوزن تسمّيه الدينار[٢].

وكانت النقود التي استعملت قبل الإسلام مختلفة الأوزان، ولحقها الغشّ في بعض الأحيان، وعندما تداول العرب هذه النقود عمدوا إلى توحيد أوزانها، وتحديد نسب ثابتة لها، وظلّ العرب يتعاملون بالنقود الأجنبيّة جنباً إلى جنب مع النقود العربية الإسلاميّة المحدودة الكميّة التي بدأوا بضربها، إلى أن استقرّ الأمر للأمويين الذين وقعوا تحت تأثيرات قوميّة ودوافع دينية، فقاموا بتعريب النقود وإصدار عملة

(١) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص٣٤ آدم متز: الحضارة الإسلامية، ص٤٣٧-٤٣٨.

(٢) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص١٢٤ الدوري: تاريخ العراق، ص١٤٢.

عربية إسلاميّة خالصة.

بدأ الإصلاح النقدي في الدولة الإسلاميّة سنة ١٧هـ/ ٦٣٩م عندما ضرب الخليفة عمر بن الخطّاب الدّراهم على نقش الكسروية وكتب على طوقها كلمات عربيّة بالخطّ الكوفي مثل (بسم الله)، أو (بسم الله ربّي)[١].

وكانت الدراهم صغيرة وكبيرة، ولمّا جاء الإسلام احتاج النّاس إلى الأمر الوسط خاصة في أداء الزكاة فأخذوا الأوزان الثلاث المتداولة وهي وزن عشرين قيراطاً، ووزن اثني عشر قيراطاً، ووزن عشرة قراريط، فوجدوها اثنين وأربعين قيراطاً، فضربوا على وزن الثلث فكان أربعة عشر قيراطاً وهو وزن الدرهم العربي، وأصبح وزن كل عشرة دراهم سبعة مثاقيل وهو الوزن الشرعي[٢]، وثبت وزن الدرهم على ٢,٩٧ غم، ووزن الدينار على ٤,٢٥ غم[٣]، وبقي تداول النقود الأجنبية حتى خلافة عبدالملك بن مروان، فصار من غير المناسب أن يستمر الأمويون بتداول نقود تحمل شارات أجنبيّة، لذلك بدأ تعريب الإدارة والنقود في عهد عبد الملك بن مروان[٤].

في بداية الأمر لم يفكّر المسلمون باستبدال الشارات النصرانيّة من النقود لأنّها كانت مألوفة لديهم والإبقاء عليها يساعد على استقرار البناء الاقتصادي للدولة، ولانشغالهم بالحروب، ثمّ اختلف الأمر بعد ذلك، فكانت الأوراق الديوانية التي تكتب بها رسائل الدولة متوّجة في أعلاها باسم المسيح وعبارة التثليث ورسم الصليب، وهي مظاهر نصرانيّة، فأمر عبد الملك أن ترفع الشارات التي تنسب إلى السيد المسيح عليه السلام الربوبية، على أن تحلّ محلّها عبارات إسلامية (قل هو الله أحد وذكر النبي ﷺ) فكتب إليه إمبراطور الروم -لعله جستنيان الثاني-[٥] يهدده بمنع

(١) البلاذري: فتوح البلدان، ص٤٥٢-٤٥٣ ابن كثير: البداية والنهاية، جـ٩، ص١٦.

(٢) البلاذري: فتوح البلدان، ص٤٥١ الطبري: الرسل والملوك، جـ٦، ص٢٥٦.

(٣) الدوري: تاريخ العراق، ص٢٠٤.

(٤) الطبري: الرسل والملوك، جـ٦، ص٢٥٦ ابن الأثير: الكامل، جـ٤، ص٥٣.

(٥) يذكر المناوي أنّ ملك الروم الذي كتب إليه هو (لاوي بن قرقط).

الدنانير الذهبية عن المسلمين وأنه سينقش عليها ما يكرهه المسلمون من ذكر النبي ﷺ، فعظّم ذلك على عبد الملك واستشار خالد بن يزيد بن معاوية في ذلك، فقال له: حرّم دنانيرهم واضرب للناس سكة فيها ذكر الله تعالى، فأمر بضرب الدنانير والدراهم وأنشأ داراً لسكّ النقود في مدينة دمشق[١].

وقيل إنّ سبب ضرب الدنانير والدراهم، أنّه وجدت دنانير ودراهم يعود تاريخها إلى ما قبل الإسلام بأربعمائة سنة، مكتوب عليها (باسم الأب والابن وروح القدس)، فسبكت ونقش عليها اسم الله تعالى وآيات من القرآن الكريم واسم الرسول ﷺ[٢].

وكان عبد الملك يرمي من قيامه بعملية التعريب تحقيق الأمور التالية:

١- تحقيق الاستقلال الاقتصادي للدولة العربية الإسلاميّة.

٢- إكمال بناء مؤسسات الدولة الإسلاميّة.

٣- مواكبة التطوّر الاقتصادي.

٤- صبغ الدولة الإسلاميّة بصبغة عربيّة.

٥- تحطيم القوى والحركات المناهضة لسلطانه.

وكان ضرب النقود يتمّ في مكان عُرف بدار الضرب أو دار السكّة، وهي من المؤسسات الهامة في التاريخ العربي الإسلامي، واقتصرت في بداية الأمر على تجهيز النقود لسدّ احتياجات الحكومة وحاجة النّاس، وانتشرت دور ضرب النقود منذ عهد الخليفةعبد الملك في دمشق والكوفة وواسط وكثر عددها في العصر

---

(١) العسكري: الأوائل، جـ١، ص٣٦٨ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، جـ٤، ص٥٣.

(٢) النويري: نهاية الإرب، جـ٢١، ص٢٢٣ المناوي: النقود والمكاييل، ص٦٢، ويورد النويري رواية يذكر فيها أنّ خالد بن يزيد قال لعبد الملك: يا أمير المؤمنين، إنّ العلماء من أهل الكتاب الأول يذكرون أنّهم يجدون في كتبهم أنّ أطول الخلفاء عمراً من قدّس الله تعالى في الدراهم، فعزم على ذلك وأمر بضرب النقود (انظر النويري: نهاية الإرب، جـ٢١، ص٢٦٨-٢٧٠ المقريزي: شذور العقود في ذكر النقود، ص١١).

العباسي في العراق، وفي ولايات الدولة الإسلاميّة المختلفة، وكان يشرف على دار السكّة شخص يدعى صاحب دار الضرب أو (صاحب السكّة)، وأحياناً كان بعض الخلفاء يشرفون بأنفسهم على دور الضرب أو يعيّنون ممثّلين ينوبون عنهم في هذه المهمّة لمنع الغش والتزييف والتحقّق من عيار النقد، وكثيراً ما كانت تناط مهمة الإشراف على دور الضرب إلى القضاة لضمان شرعية النقود التي تصدر عنها[١]، لذلك كانت دور ضرب النقود دائماً تحت رقابة الدولة.

وضربت الدولة الإسلاميّة بالإضافة إلى الدينار والدرهم، مشتقّات هذين النقدين وهي النصف والربع والثلث، ويكتب ذلك عليه لتمييزه عن غيره، كما ضربت دنانير ودراهم ذات قيم وأوزان مختلفة ونقود تذكارية، ففي القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي ضربت دنانير الواحد منها يساوي دينارين اعتياديين، وكان الخلفاء يهبون هذه الدنانير للمغنين وغيرهم[٢]، وضرب سيف الدولة دنانير الصلة وكان وزن الواحد منها عشرة مثاقيل وعليها اسمه وصورته، وأجاز الوزير البويهي ابن العميد لأحد الشعراء دراهم ودنانير قيمة كل منها خمسة أضعاف قيمة النقود الاعتيادية[٣]، وضرب المقتدر ومعزّ الدولة وعضدّ الدولة دراهم يزن الواحد منها درهمين، كما ترد إشارات إلى وجود نقود تذكارية من الدنانير والدراهم ضربت في عهد الأمين، وكان وزن الواحد منها عشرة من غيرها[٤].

---

(١) المقريزي: اتّعاظ الحناف، جـ٢، ص١٠٦، ١٠٨، ١٠٩ المقفى الكبير، جـ٧، ص٣٤٧.

(٢) المقريزي: إغاثة الأمة، ص٦٠ الدوري: تاريخ العراق، ص٢١٦.

(٣) الثعالبي: يتيمة الدهر، جـ١، ص١٢، جـ٢، ص١٢٦ الدوري: تاريخ العراق، ص٢١٧.

(٤) المقريزي: شذور العقود، ص٨-٩.

وسائل التعامل التجاريّ

١- الصيرفة:

يعود ظهورها إلى أيّام البابليين، فقد اشتهر آل إيجيبي بأعمال الصيرفة التي بدأت سنة ٦٨٥ق.م واستمرّت ما يقارب أربعة قرون، وفي العهد الساساني كانت في المدائن أقليّة مسيحيّة قامت بأعمال الصيرفة، وصارت الواسطة الوحيدة بين فضة الفرس وذهب الرّومان، واشتغلت بعقد القروض لتسهيل التجارة، وفي العهد الإسلامي نقل هؤلاء مركزهم إلى الكوفة، واشتغلوا بتحويل الدنانير إلى دراهم وبالعكس، وكانت المهمّة الأولى للصرّاف هو تقييم النقود من حيث الجودة والوزن، وتحويل النقود أو صرفها لأغراض التجارة، وكان سعر تحويل النقود يعتمد على حالة الأسواق والاعتبارات التجارية وسعر الذهب والفضّة[١].

ولما توسّعت التجارة في العصر العباسي توسّعت أعمال الصرافين، واشتغلوا بالتسليف وقبول الودائع، وتوسّطوا بين النّاس ودار الضّرب، فكانوا يسكّون لهم النقود مقابل نسبة معينة أو أجر، كما كانوا يقومون بِصَرف الصّكوك لقاء مبلغ من الصّك[٢]، كما كانوا يقومون بتقديم القروض والسّلف للدولة في أوقات الأزمات، وكان أغلب الصيارفة من اليهود والنصارى، وقليل منهم من المسلمين[٣]، وكان أصحاب المصارف المالية يعرفون بالجهابذة[٤].

٢- السفتجة:

هي إحدى وسائل التعامل التجاري في الدولة الإسلاميّة، وتكون بأن يُعطي رجل مالاً لآخر على أن يسلّمه له في بلد آخر ليأمن الطريق، كأن يعطى له في بغداد

(١) الدوري: تاريخ العراق، ص١٦٤-١٦٥ توفيق اليوزبكي: دراسات في النظم، ص٢٦٣-٢٦٤.
(٢) انظر ابن الأخوة: معالم القربة، ص٦٨-٦٩ الدوري: تاريخ العراق، ص١٦٥.
(٣) انظر المقدسي: أحسن التقاسيم، ص١٨٣.
(٤) الجهبذ عند الساسانيين كان كاتب الخراج (انظر الجهشياري: الوزراء والكتّاب، ص٢٨).

ويأخذ منه في مكّة، واستخدمت هذه الوسيلة لتجنّب أخطار المواصلات[1].

ويبدو أنّ السفتجة كانت معروفة في صدر الإسلام، فكان مصعب بن الزبير يأخذ الدراهم بمكّة من التجّار ويكتبها لهم إلى البصرة والكوفة، وكان من يستلم المال يكتب إلى وكيله في البلد الذي يريد صاحب المال السفر إليه ليستلم منه أمواله المسجّلة في الكتاب، ويأخذون منهم أجوراً على ذلك.

واستخدمت السفتجة أيضاً لتحويل الديون في المعاملات التجارية من شخص لآخر في نفس القطر، كما استخدمت من قِبَل التجّار لتصفية حساباتهم بين الأقطار المختلفة.

٣- الصّكوك:

الصّك أمرٌ خطّي بدفع مقدار من المال إلى الشخص المسمّى فيه، والصّك كلمة فارسيّة معرّبة، والأصل فيها (جك)[2]، وهي الوسيلة التي تطوّرت إلى ما يُعرف اليوم باسم (الشيك).

هناك إشارات إلى استعمال الصّكوك في صدر الإسلام، فكانت الأرزاق والرّواتب تدفع على شكل صكوك، وكان عمر بن الخطاب أوّل من صكّ وختم أسفل الصكاك[3]، ثمّ استعملت على نطاق واسع في العصرين الأموي والعباسي، واستخدم لدفع رواتب الجُند والموظّفين، فكانت تجمع في الصك أسماء المستحقين للرّواتب وعدّتهم ومبلغ مالهم، ويوقّع السلطان في آخره بإطلاق الرزق لهم[4].

---

(١) الجهشياري: الوزراء والكتّاب، ص١٠٩-١١٠ ابن منظور: لسان العرب، جـ٣، ص١٢٣.

(٢) انظر ابن منظور: لسان العرب، جـ٢، ص٤٥٩.

(٣) اليعقوبي: التاريخ، جـ١، ص١٢٢.

(٤) انظر الخوارزمي: مفاتيح العلوم، ص٣٨ الدوري: تاريخ العراق، ص١٧٠.

المكاييل والموازين

استخدم العرب المسلمون مجموعة من المكاييل والأوزان أكثرها كان موجوداً قبل ظهور الإسلام، واستمرّ التعامل بها زمن الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين مع ما حدث عليها من تعديل، حتى تمّ ضبطها بشكل نهائي، وأصبحت أساساً للتعامل، ثمّ استحدثت بعض المكاييل والأوزان في العصور التالية.

فمن المكاييل التي عرفت منذ القديم الصّاع والمدّ والفرق والقسط والمدى والمختوم والقفيز والمكوك[(١)]، والكيلجة والأردب والوسق والجريب.

فالصّاع في الأصل هو مكيال لأهل المدينة، ثمّ صار التعامل به في شتّى بلاد الإسلام وهو يعادل أربعة أمداد، أو خمسة أرطال وثلث رطل مدني، وعليه يكون وزن حوالي ٣,٢٤ كغم، والمدّ الشرعي في فجر الإسلام كان يساوي رطلين بغداديين أو $\frac{١}{٣}$١ رطل مدني، وكلاهما يعادل وزن ٨١٢,٥ غم من القمح، ويذكر أنّ مدّ النبي ﷺ كان أربع حفنات بحفنة الرجل الأوسط، أو $\frac{٢}{٣}$١ رطل[(٢)]، وفي القدس كان المد الواحد يساوي ثلثي قفيز، وكل قفيز يساوي أربع ويبات أي حوالي أربعة وعشرين صاعاً، وفي عُمان كان المد يساوي ست كيلجات أو تسعة آصع (صيعان)[(٣)]. أمّا المدى، فهو مكيال خاص بأهل الشّام يتّسع لخمسة عشر مكوكاً[(٤)].

والقسط مكيال يساوي نصف صاع، وكان في العراق منه حجمان، أحدهما صغير يزن ثلاثة أرطال من السوائل، أي سعة ١,٢١٥٨ لتراً، وآخر كبير يساوي ضعف الصغير تماماً أي سعة ٢,٤٣١٦ لتراً[(٥)]، وكان يستعمل في كيل الزيوت

---

(١) أبو عبيد: الأموال، ص٤٥٨.

(٢) ابن الأخوة: معالم القربة، ص١٤٨.

(٣) هنتس: المكاييل والأوزان، ص٧٥.

(٤) الشرباصي: المعجم الاقتصادي، ص٤١٣.

(٥) هنتس: المكاييل والأوزان، ص٦٥.

والأعسال وبعض السوائل الأخرى.

أمّا القفيز فكلمة أعجميّة وتعني مكيالاً كان معروفاً عند أهل العراق يساوي ثمانية مكاكيك ويبدو أنّ الحجّاج بن يوسف الثقفي هو الذي اتّخذه فنسب إليه، وكان يعادل صاع عمر أو صاع النبي ﷺ.

والمكوك مكيال معروف في أقاليم الدولة العربية الإسلامية، ففي العراق كان يساوي صاعاً ونصف أو ثلاث كيلجات[١]، وقيل أن المكوك هو المد أو الصاع[٢]، وكان المكوك السوري في حلب يساوي سبع ويبات[٣]، وكان يعادل تسعة عشر سنبلاً من سنابل شيزر، وكل سنبل منها يساوي رطلاً ونص، وبما أن رطل شيزر يساوي ٦٨٤ درهماً، وكل درهم يساوي ٣,١٢٥ غم فإن المكوك الحلبي يعادل وزن إحدى وستين كيلو غراماً من القمح.

والأردب، وهو مكيال مصري يقال أنه من صنع المصريين القدماء[٤]، ويساوي أربعة وعشرين صاعاً بصاع النبي ﷺ أي ما يعادل أربعة وستين مناً، أو ٧٣,١٢٥ كغم[٥].

أما الجريب فهو مكيال مقداره أربعة أقفزة ويستعمل مقياساً للمساحة ويساوي عشرة أقفزة[٦]، أي ما يعادل ٣٦٠٠ ذراع، وقيل ١٠٠٠٠، وفي القرن السابع الميلادي زمن الخليفة عمر بن الخطاب كان الجريب باعتباره مكيالاً يساوي سبعة أقفزة أي ما يعادل ٢٢,٧١٥ كغم من القمح[٧].

والغرارة مكيال دمشقي يساوي اثني عشر كيلاً وكل كيل منها يساوي ستة

---

(١) ابن منظور: لسان العرب، جـ١٠، ص٤٩١.
(٢) الشرباصي: المعجم الإقتصادي، ص٤٣٨.
(٣) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٤، ص٢١٦.
(٤) المقدسي: أحسن التقسيم، ص١٨١.
(٥) هنتس: المكاييل والأوزان، ص٧٢، ٥٨.
(٦) الزبيدي: تاج العروس، جـ٢، ص١٤٧.
(٧) هنتس: المكاييل والأوزان، ص٦١.

أمداد[1]، والغرارة هي العدل من الصوف أو الشعر وتساوي اثنين وعشرين مدّاً دمشقياً، وكانت الغرارة في القدس تساوي ثلاث غرائر دمشقية[2].

وهناك مكاييل أخرى كانت معروفة منها الكر وهو بابلي الأصل، ومقداره ستة أوقار حمار، أو ستين قفيزاً.

أما الأوزان فيذكر البلاذري ما كان معروفاً منها قبل الإسلام واستمرّ وجوده بعد ذلك، وأقرّ ما كان عليه، وبقي الناس يزنون بهذه الأوزان سواء في الجزيرة العربية أو في بلاد الشام ومصر والعراق يقول البلاذري[3]: (كانت قريش تزن الفضّة بوزن تسميه درهماً، وتزن الذهب بوزن تسميه ديناراً، فكل عشرة من أوزان الدرهم سبعة أوزان الدنانير.

وكان لهم وزن الشعيرة وهو واحد من الستين من وزن الدرهم، وكانت لهم الأوقية وزن أربعين درهماً، والنش وزن عشرين درهماً، وكانت لهم النواة وهوي وزن خمسة دراهم، فكانوا يتبايعون بالتبر على هذه الأوزان، فلما قدم ﷺ مكة أقّرهم على ذلك).

فالدينار والدرهم من الأوزان التي تعامل بها الناس، وكان الدينار الذهب هو المثقال أيضاً[4].

والدانق كلمة أعجمية وهي وحدة وزن تساوي سدس الدرهم وتساوي قيراطين[5]، أما الحبة، وهي وزن عملة لا بضاعة، وهي حبّة الشعير المتوسطة التي لم تقشّر[6].

---

(١) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٤، ص١٨١.
(٢) هنتس: المكاييل والأوزان، ص٦١.
(٣) لبلاذري: فتوح البلدان، ص٤٥٢-٤٥٣.
(٤) محمد عبد الرؤوف بن علي المناوي: النقود والمكاييل والموازين، ص٣٥.
(٥) المناوي: النقود، ص٣٥.
(٦) الشرباصي: المعجم الإقتصادي، ص١٤٩.

واستعمل الرطل في دمشق وكان يساوي ٦٠٠ درهماً أو اثنتي عشرة أوقية، أي ما يعادل ١,٨٥ كغم، ورطل حلب ويساوي ٧٢٤ درهماً، وفي حمص يساوي ٨٦٤ درهماً وفي حماة ٦٦٠ درهماً[١]، أما رطل القدس فكان يساوي ٨٠٠ درهماً أي وزن ٢,٥ كغم[٢]، وكان رطل دمشق هو الأكثر شيوعاً، ولا يزال معروفاً إلى اليوم بالرطل الشامي.

وكانت الأوقية تساوي $\frac{١}{١٢}$ من الرطل، والأوقية الشرعية في صدر الإسلام تساوي أربعين درهماً[٣]، أي ما يعادل ١٢٥غم.

وكان المن وحدة وزن تساوي رطلين أي ما يعادل مائتين وستين درهماً أي وزن ٨١٨ غم[٤]، وقيل أن المن يساوي أربعين سيراً ويساوي خمسة عشر مثقالاً.

أمّا القنطار فكان يعادل وزن (١٢٠٠) أوقية أو ألف دينار[٥]، أي ما يساوي مائة رطل، وقيل مائة من، وكان القنطار في دمشق يساوي ١٨٥ كغم، وفي حلب يساوي ٢٢٨ كغم[٦].

---

(١) المقريزي: إغاثة الامة، ص٤٩ انستاس الكرملي: النقود العربية وعلم النميات، ص١٠.
(٢) الشيزري: نهاية الرتبة، ص٣٢.
(٣) هنتس: المكاييل والأوزان، ص٣٢.
(٤) هنتس: المكاييل والأوزان، ص٢٠.
(٥) ابن الاخوة: معالم القربة، ص١٣٧-١٣٨.
(٦) هنتس: المكاييل والأوزان، ص٤٢.

الفصل العاشر

المظهر الثقافي للحضارة الإسلاميّة

- العلوم الدينيّة
- علوم اللغة والأدب.
- العلوم الاجتماعية.
- الرياضيات.
- الفلك.
- الطبّ.
- الكيمياء.
- الترجمة.
- الفلسفة.
- العلوم الطبيعيّة.

العلوم الدينيّة

علوم القرآن الكريم:

القرآن لغة مصدر قرأ يقرأ: جمع يجمع، وقرأ: تلا ما حفظه أو كتبه من كلام الله عزّ وجلّ، والقرآن الكريم: هو كلام الله سبحانه وتعالى المنزّل على سيدنا محمد ﷺ باللغة العربيّة، المعجز المتعبّد بتلاوته المنقول بالتواتر والمكتوب في المصاحف المبدوء بسورة الفاتحة والمختوم بسورة النّاس، وأهمّ علوم القرآن علميّ القراءات والتفسير.

علم القراءات:

هو العلم الذي يبحث في كيفيّة قراءة ألفاظ القرآن الكريم، والاختلاف في قراءته لحمايته من التحريف والتغيير[1]، والتوصّل إلى القراءة الصحيحة السليمة بالنّص الذي أُوحي به إلى الرسول ﷺ، لأنّ معاني الكلمات قد تتغيّر بتغيّر قراءتها بسبب خاصيّة الحرف العربي، فالكلمة الواحدة قد تُقرأ بأكثر من شكل واحد تبعاً لوضع التنقيط والشكل، وهذا قد يؤدّي إلى تغيير المعنى.

ومنذ مطلع القرن الثاني الهجري/الثامن الميلادي، برزت سبع قراءات لقراءة القرآن الكريم نسبت كل منها إلى من اشتهر بروايتها من القرّاء، وهذه القراءات هي[2]:

١- قراءة ابن عامر/ نسبة إلى عبد الله بن عامر اليحصبي الشآمي، من أهل الشّام.

٢- قراءة ابن كثير / نسبة إلى عبد الله بن كثير المكّيّ، وهو من أهل مكّة[3] .

---

(١) حاجي خليفة: كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، جـ٢، ص١٣١٧ .

(٢) انظر أحمد عبد الباقي: معالم الحضارة العربية، ص١٦٤-١٦٥ عبد المنعم ماجد: تاريخ الحضارة الإسلاميّة، ص١٦٨-١٦٩ .

(٣) ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ٣، ص٤١ .

٣- قراءة عاصم / نسبة إلى عاصم بن أبي النجود، وهو من أهل الكوفة.

٤- قراءة ابن عمرو / نسبة إلى أبي عمرو بن العلاء، وهو من أهل البصرة.

٥- قراءة حمزة / نسبة إلى حمزة بن حبيب الكوفي، وهو من أهل الكوفة[١].

٦- قراءة نافع / نسبة إلى نافع بن عبد الرحمن الليثي، وهو من المدينة.

٧- قراءة الكسائي / نسبة إلى علي بن حمزة الكسائي، وهو من أهل الكوفة.

ولا يوجد اختلاف بين هذه القراءات يمكن أن يؤدّي إلى اختلاف المعنى، وإنّما اختلاف في صورة بعض الكلمات، لذلك جاءت هذه القراءات موافقة للقراءة الصحيحة، بحيث أصبحت القراءات التي يُسمح بقراءتها في الصّلاة.

علم التفسير:

وهو العلم الذي يبحث في أحوال القرآن الكريم من حيث دلالته على مراد الله تعالى، أو علم نزول الآيات القرآنيّة الكريمة من حيث أسباب نزولها وترتيبها[٢].

ففي حياة الرسول ﷺ كان هو الذي يفسّر للمسلمين آيات القرآن الكريم، ويبيّن أسباب نزولها، وكذلك في عهد الخلفاء الراشدين، كان المسلمون على علم بمناسبات النزول، ومقاصد الآيات، فكانوا يفهمون ويدركون معانيه بسهولة ويسر، ولم يسمحوا بتفسير القرآن الكريم.

وعندما توسّعت الدولة الإسلاميّة وانتشر العرب في مختلف أرجائها، ودخلت أقوام كثيرة في الدين الإسلامي، كان يصعب على بعض الأقوام فهم معاني الكثير من الآيات الشريفة ومغزاها دون شرحها وتوضيحها، لا سيّما وأنّ القرآن الكريم جاء على أعلى درجات البلاغة اللغوية، وتفنّن بمحاسن المجاز والكناية والاستعارة والأساليب البلاغيّة المختلفة، فظهرت الحاجة إلى تفسير الآيات، بتبسيط وبيان معناها ودلالتها وأسباب نزولها وذلك من أجل العمل به والتقيّد بتعاليمه، وعرف

---

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ٢، ص٦١٢.

(٢) انظر السيوطي: الاتقان في علوم القرآن، مطبعة البابي الحلبي، القاهرة، جـ٢، ص٧٤.

المسلمون ثلاثة أنواع من التفسير هي[1]:

١- **التفسير المأثور**: وهو التفسير بالرواية أو بالنقل، أي بيان معنى القرآن الكريم بما روي عن النبي ﷺ من تفسير أو عن الصحابة والتابعين، ومن أمثلة ذلك (الاتقان في علوم القرآن) لجلال الدين السيوطي، و(تفسير القرآن العظيم) لابن كثير، و(جامع البيان في تفسير القرآن) لمحمد بن جرير الطبري.

٢- **التفسير بالرأي**: أي التفسير بالاجتهاد، فسمح لبعض علماء المسلمين الاجتهاد في تفسير آيات القرآن الكريم، على أن يلتزم المفسّر في هذه الحالة بمراعاة ما نقل عن الرسول ﷺ أو عن الصحابة والتابعين، فلا يجوز أن يأتي معنى الآيات أو الاستنتاج الذي يتوصّل إليه رأيه متناقضاً مع ما روي، عن المصطفى ﷺ أو عن الصحابة والتابعين، كما يشترط في المفسّر أن يكون بصيراً بقوانين الشريعة الإسلامية واللغة العربية، ومن أمثلة التفسير بالرأي، (أنوار التنزيل وأسرار التأويل) للبيضاوي، و(تفسير الجلالين) لجلال الدين السيوطي وجلال الدين المحلي، و(روح المعاني) للآلوسي.

٣- **التفسير الإشاري**: وهو التفسير بالإشارة، أو تفسير الفرق الإسلاميّة، وهو التفسير الذي يقوم به أشخاص من أتباع الفرق الإسلاميّة بما ترتضيه لنفسها وتظهر فيه عقيدتها، وهذا النوع من التفسير يمكن أن يكون مقبولاً إذا كان بعيداً عن التأويل، وإذا كان له شاهد من الشرع، غير أنّ الكثيرين خرجوا عن الالتزام بهذه القواعد، فقاموا بتأويل معاني الآيات القرآنيّة، ومن هذه التفاسير:

أ- تفاسير المعتزلة: مثل تفسير (الكشّاف) للزمخشري.

ب- تفاسير الشيعة: مثل تفسير (مرآة الأنوار ومشكاة الأسرار) للكازلاني، و(مجمع البيان في تفسير القرآن) للطبرسي.

ج- أمّا تفسير أهل السنّة فهو الذي يعرف بالتفسير بالرأي السابق الذكر.

---

(١) أبو زيد شلبي: تاريخ الحضارة الإسلامية، ص٣٠١.

علم الحديث:

الحديث هو ما ورد عن الرسول ﷺ من قول أو فعل أو تقرير، وتأتي أهميته باعتباره مصدراً من مصادر التشريع الإسلامي، إذ يأتي في المرتبة الثانية بعد القرآن الكريم مباشرة[1]، وقد أشار الله سبحانه وتعالى إلى الأخذ بما يأتي به المصطفى ﷺ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾[2].

كان الاعتماد في رواية الحديث على ما يحفظه الصحابة، ثمّ ما رواه التابعون عنهم، فقد كان الصحابة يتشدّدون في رواية الحديث[3]، ويخشون من كثرتها خوفاً من وقوع الرواة بالخطأ والنسيان فيكذبوا على رسول الله ﷺ، ولئلا يشتغل النّاس في رواية الحديث وينصرفوا عن تلاوة القرآن الكريم، ووضع حد لمن أراد التزييف والكذب على المصطفى ﷺ.

إلاّ أنّ الفتوحات الإسلاميّة وانتشار العرب في الأمصار المفتوحة، وتفرّق رواة الحديث وحفّاظه وموت عدد كبير منهم أشعر العلماء بالحاجة إلى تدوين الحديث، فتفرّغ قسم من العلماء للعمل في جمع الأحاديث من الحفّاظ أينما كانوا، وتدوين ما يتأكّدون من صحّته، فبدأ تدوين الحديث في القرن الثاني الهجري/الثامن الميلادي، وهناك من يرى أنّ أوّل من أمر بجمع الحديث وتدوينه عمر بن عبد العزيز على رأس المائة الثانية من الهجرة[4]، فبدأ بالتدوين أبو بكر بن حزم أو ابن شهاب الزهري، ويمكن تلخيص الأسباب الداعية إلى تدوينه بما يلي[5]:

١- انتشار العلماء من حفّاظ الحديث في الأمصار الإسلاميّة.

---

(١) أبو زيد شلبي: تاريخ الحضارة الإسلامية، ص١٨٧.

(٢) سورة الحشر: الآية ٧.

(٣) ابن خلدون: العبر، جـ١، ص٤٤٢.

(٤) محمد بن سعيد: الطبقات الكبرى، جـ٥، ص٢٧٦.

(٥) انظر أبو زيد شلبي: تاريخ الحضارة، ص١٩٨.

٢- موت عدد كبير من العلماء والحفّاظ.

٣- إهمال الحفظ بمرور الوقت.

٤- كثرة الابتداع الذي أحدثته بعض فرق الخوارج والشيعة والروافض.

وارتبط بالحديث علمان مهمّان هما:

١- علم أسماء رجال الحديث: وهم رواة الأحاديث لمعرفة الثقات منهم والضعفاء في رواية الحديث، وصنّفت كتب عديدة في هذا المجال منها ما اهتمّ بالأسماء والكنى والألقاب، ومنها ما عني بالثّقات والضعفاء وغيرها[١].

٢- علم الجرح والتعديل: وهو العلم الذي يبحث في تمييز الرجال الذين تقبل روايتهم وكشف الأحاديث المزوّرة المنسوبة إلى الرسول ﷺ بهدف الحفاظ على صحّة الحديث وليس طعناً في أشخاص الرواة.

وكثر التدوين في القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي، وتنوّعت طرق المحدثين في التدوين، واشتهرت طريقتان لتصنيف الأحاديث هما:

أ- طريقة الأسانيد: أي تبويب الأحاديث المرويّة على أساس رواتها، فتجمع الأحاديث التي يرويها كل صحابي على حدة، فما أسند لعائشة على حدة، وما أسند لأبي بكر على حدة، وما أسند لأبي هريرة على حدة وهكذا، وأشهر الكتب المصنّفة في هذا، (مسند الإمام أحمد بن حنبل) ويحتوي على (٣٠٠٠٠) حديث مأخوذة عن حوالي (٧٠٠) صحابي.

ب- طريقة المواضيع: فهناك من صنّف الأحاديث على أساس موضوعاتها، فما يتعلّق بالصّلاة في باب، وما يتعلّق بالزكاة في باب آخر، وما يتعلّق بالحجّ في باب... وهكذا، ومن أشهر الكتب التي جمعت الأحاديث بهذه الطريقة كتب الصحاح الستّة وهي[٢]:

---

(١) حاجي خليفة: كشف الظنون، جـ١، ص٨٧-٨٨.

(٢) ابن خلدون: العبر، ص٤٤٢.

١- صحيح البخاري: لمحمد بن إسماعيل البخاري.

٢- صحيح مسلم: لمسلم بن حجّاج القشيري.

٣- كتب السنن وهي سنن أبي داؤد والترمذي وابن ماجة والنسائي.

الفـقـه:

الفقه لغة الفهم أو المعرفة، واصطلاحاً: هو العلم الذي يبحث في استنباط الأحكام الشرعيّة من مصادرها الأصليّة، وهي الكتاب والسنّة، أو التوصّل إلى رأي قانوني فيما يعرض من مسائل، حين لا يوجد جواب في الحديث، أو حين لا يعرف الإنسان وجود ذلك(١).

لقد توفي الرسول ﷺ بعد أن ترك جملة من الأصول والقواعد والتشريعات في القرآن والسنّة والحديث، وكانت تكفي المسلمين آنذاك حيث كان عددهم قليل ويقتصر وجودهم على الجزيرة العربية، إلاّ أنّ هذه النظم لم تعد كافية بعد التوسّع في الفتوحات الإسلاميّة، فاحتاج المسلمون إلى التشريع حيث برزت مشكلات تحتاج إلى بيان حكم الشرع.

وكان الخلفاء الراشدون يقضون بالرجوع إلى القرآن الكريم والسنّة الشريفة، فإن لم يجدوا جمعوا أهل الرأي واستشاروهم، أو يجتهدون في ذلك، لكنهم كانوا يتشدّدون.

ومع ازدياد حركة التوسّع الإسلامي، انتشر الصحابة في البلاد المفتوحة يحملون الفكرة الإسلاميّة، والنّاس يسألونهم في مختلف الأمور، فيجيبون النّاس كل حسب حفظه وما أدّى إليه اجتهاده، فكثرت أقوال الصحابة في الأمصار، واختلفت آراؤهم تبعاً لمقدار علم الصحابي وفقهه من جهة، وتبعاً للبيئات التي استوطنوها من جهة أخرى.

---

(١) ابن خلدون: العبر، جـ١، ص٤٤٥-٤٤٦.

وبرزت في العصر الأموي مدرستان فقهيتان هما مدرسة العراق في الكوفة والبصرة، أو ما تعرف بمدرسة الرأي (أهل الرأي)، ومدرسة الحجاز في مكة والمدينة، وتعرف بمدرسة الحديث (أهل الحديث)[1]، فأهل العراق كانوا إذا لم يجدوا نصّاً في القرآن الكريم أو السنّة مالوا إلى الإفتاء برأيهم، أمّا أهل الحجاز فإنّهم اعتمدوا الحديث، وقليلاً ما مالوا إلى الرأي والقياس إلاّ عند الضرورة وفي الحالات التي يوجد فيها روابط واضحة تربط المسائل بعضها ببعض.

ثمّ ظهرت المذاهب الفقهية الأربعة التي اعتمد أصحابها في استسقاء أحكامهم من مصادر الشريعة الإسلاميّة، وأخذ كل منهم بأسلوب خاص به، وهي:

١- **المذهب الحنفي**: وينسب إلى الإمام الأعظم أبو حنيفة النعمان بن ثابت وهو إمام أهل العراق[2]، وكان للرأي والقياس المكان الأول في فقهه، وانتشر مذهبه في العراق وبلاد الشام، وآسيا الصغرى، وله كتب كثيرة منها (الفقه الأكبر)، و(الرد على القدريّة)[3].

٢- **المذهب المالكي**: نسبة إلى الإمام مالك بن أنس (ت١٧٩هـ/ ٧٩٥م)، الملقّب بإمام دار الهجرة، وكان إمام أهل الحجاز وهم أهل الحديث، فلم يكن ميّالاً إلى الرأي، لكنّه أضاف إلى الحديث (مبدأ الإجماع)، ويقصد به أعمال أهل المدينة باعتبارهم اتّبعوا نهج الصحابة والتابعين، وانتشر مذهبه في السودان وشمال إفريقية والمغرب والأندلس، وله كتاب (الموطأ) الشهير.

٣- **المذهب الشافعي**: نسبة إلى الإمام محمد بن إدريس الشافعي (ت٢٠٤هـ/ ٨٢٠م)، وبدأ باتّباع طريقة الإمام مالك في الأخذ بالحديث، إلاّ أنّه بعد رحيله إلى العراق واتّصاله بأصحاب أبي حنيفة مزج بين الطريقتين، واختصّ بمذهب وسط بينهما، وخالف الإمام مالك في بعض المسائل، وانتشر مذهبه في مصر

---

(١) ابن خلدون: العبر، جـ١، ص٤٤٧.

(٢) ابن خلدون: العبر، م١، ص٤٤٧ أحمد عبد الباقي: معالم الحضارة العربية، ص٢٠٧.

(٣) ابن النديم: الفهرست، ص٢٨٤-٢٨٥.

وإندونيسيا وبلاد الشام، وترك مجموعة كتب فقهية منها كتاب (الأم).

٤- **المذهب الحنبلي**: نسبة إلى الإمام أحمد بن حنبل، وكان اتباعه أقل من أتباع المذاهب الأخرى، انتشر مذهبه في نجد والحجاز والبحرين والشام، وله كتاب (مسند الإمام أحمد).

علوم اللغة والأدب

أ- اللغة والنحو:

اللغة: اللسن وهي أصوات يعبّر بها كل قوم عن أغراضهم، ولغوت أي تكلّمت، واللغو: النطق، يقال: هذه لغتهم التي يلغون بها أي ينطقون، واللغة أيضاً هي الألفاظ الموضوعة للمعاني.

والنحو هو إعراب الكلام العربي، والنحو القصد والطريق، ونحاه ينحوه وينحاه نحواً وانتحاه، ونحو العربية منه إنّما هو انتحاء سَمْت كلام العرب في تصرّفه من إعراب وغيره كالتثنية والجمع والتحقير والتكبير والإضافة وغير ذلك[١].

وبذل علماء اللغة العربية جهوداً كبيرة في جمع الألفاظ العربية ووضع قواعد للنحو والصرف، وكانت المصادر التي اعتمد عليها العلماء تشمل القرآن الكريم والشعر العربي إضافة إلى بعض القبائل العربية في بلاد العرب، ويعزى الفضل إلى الخليل بن أحمد الفراهيدي وسيبويه في وضع أصول النحو العربي فقد اعتمدا على القياس، على أنّ أبا الأسود الدؤلي سبق الجميع في بحث المواضيع النحوية والتكلّم في أصوله لذلك يعتبر مؤسّس علم النحو، فعندما دخل إلى علي بن أبي طالب وشكا إليه ما يراه ويسمعه من فساد اللغة، وانتشار اللحن فيها، طلب منه عليّ كرّم الله وجهه أن يضع أسساً للغة، فقال له: (ضع للنّاس حروفاً، أي حركات)، فقام أبو

---

(١) ابن منظور: لسان العرب، جـ١٥ / مادة نحا.

الأسود بذلك[1]، وكان أول من اشتغل بالنحو ووضع أساس مدرسة البصرة، وهي أقدم مدرسة في النحو[2].

ونشأ علم اللغة في البصرة في عهد مبكّر، فكان سوق المربد بالبصرة مكاناً لمفاخرات الشعراء، حيث كان يلتقي أهل البصرة بالأعراب الذين قدموا للبيع والشراء، وكان يخرج من أهل البصرة طلاب العلم كالأصمعي والجاحظ، فيأخذون اللغة مشافهة.

وشرع علماء البصرة في تدوين اللغة، فقد صنّف الخليل بن أحمد الفراهيدي كتابه المشهور (العين) الذي يعتبر أقدم القواميس والمعاجم العربية التي دوّنت فيها ألفاظ اللغة العربية[3]، فقد رتّبها الخليل بن أحمد على حروف المعجم بحسب مخارجها بادئاً بحرف العين وبه سمي الكتاب.

وظهرت ثلاث مدارس اهتمّت بدراسة علوم اللغة العربية هي مدرسة البصرة، ومدرسة الكوفة، ومدرسة بغداد، فأصحاب مدرسة البصرة اقتفوا أثر سيبويه والخليل ابن أحمد فأخذوا بقاعدة القياس، وأخذ أتباع مدرسة الكوفة بالاتّجاه النصّي، بينما اتّخذت مدرسة بغداد موقفاً وسطاً وحاولت أن تجمع مزايا المدرستين دون أن تتعصّب لواحدة منها على الأخرى، وبرز عدد كبير من العلماء المسلمين الذين اشتغلوا باللغة والنحو منهم:

١- ابن الأعرابي: محمد بن زياد الكوفي.

٢- ابن جنّي الموصلي: وأمّه جارية روميّة، وينسب إليه ابتكار مبحث جديد في علم اللغة هو الاشتقاق[4]، وله كتاب الاشتقاق.

---

(١) ابن النديم: الفهرست، ص٥٩-٦١.

(٢) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي، جـ١، ص٥٠٥.

(٣) ابن النديم: الفهرست، ص٦٣-٦٤.

(٤) آدم متز: الحضارة الإسلامية، جـ١، ص٤٣٧.

ب- الأدب العربي:

١- الشعر:

الأدب هو الإجادة في فني النظم والنثر، أو ما يعبّر عن معنى الحياة بأسلوب لطيف جميل سواء أكان ذلك شعراً أم نثراً.

ولم يشتغل العرب في صدر الإسلام بالأدب لاشتغالهم بالفتوح الإسلامية وتنظيم الدولة العربية التي توسّعت كثيراً، فحافظت الرّوح الأدبيّة التي كانت سائدة في العصر الجاهلي على وجودهم وقد غضّ الإسلام من قيمة الشعراء الذين يستخدمون أشعارهم لأغراض مشينة كالهجاء، قال تعالى: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾﴾[1].

وفي المقابل أعلى من قدر الشعراء الذين كانوا يتصرون لمبادى الحقّ والعدل، ويدافعون عنها، أمثال حسّان بن ثابت، الذي قرّبه الرسول، وورد عن الرسول أنّه قال: (إنّ من البيان لسحراً وأنّ من الشّعر لحكمة).

لقد توقّف شعر الهجاء بين المسلمين، وبرز منذ العصر الراشدي نوع جديد من الشعر هو شعر الفتوح، وهو شعر مشبع بالروح الإسلاميّة، يدعو إلى تمجيد الجهاد لأنّ غايته الدفاع عن المسلمين، والرغبة في نشر عقيدة الإسلام، وبدأ يظهر نوع آخر من الشعر تتمثّل فيه الأحداث السياسية والنزعات الدينية وتطوّر هذا النوع من الشعر في العصر الأموي الذي شهد ازدهاراً كبيراً، في مجال الشعر، فتعدّدت أغراضه وألوانه وتطوّرت فنونه، وظهر شعراء كبار أمثال جرير، والفرزدق، والأخطل أصحاب النقائض، وامتاز شعرهم بالهجاء العنيف المقذع.

وفي العصر العباسي ظهر كثير من الشعراء الذين نهجوا بالشعر مناهج جديدة في المعاني والموضوعات والأساليب حتى فاقوا من سبقهم من الشعراء، وتطوّرت أغراض الشعر بفعل التطوّر الحضاري، وتميّز هذا العصر بالإغراق في الخلاعة

---

(١) سورة الشعراء: الآيات ٢٢٤-٢٢٦.

والمجون، وإمعان بعض الشعراء في وصف الحياة اللاهية المبتذلة، الأمر الذي أوجد ما يُعرف بشعر المجون والخمريات[1].

كما برزت في شعر هذه الفترة الدعوة إلى الزّهد والتقشّف في الحياة، والابتعاد عن ملذّاتها ومغرياتها، ومن أبرز شعراء العصر العباسي أبو الطيب أحمد بن الحسين، وابن الرومي، وأبو تمام، والبحتري، وأبو نوّاس.

ويمكن ردّ الأسباب التي ساعدت على تطوّر الشعر في العصر العباسي وظهور مناهج جديدة في الشعر والأدب إلى العوامل التالية:

١- تطوّر الحياة المادية للناس وثرائهم نتيجة إقبالهم على الأعمال التجارية.

٢- اختلاف صورة الحياة وقيم الأشياء عمّا كانت عليه في العصر الجاهلي.

٣- انتشار الحركة الشعوبية التي قامت على أساس الحطّ من شأن العرب وإظهار مثالبهم.

٤- التأثّر بالثقافات الأجنبيّة خاصة الثقافة الفارسية.

٥- تشجيع الخلفاء والأمراء وكبار رجال الدولة للشعراء.

ويرتبط بالشعر علم آخر نشأ في البصرة على يد أحد رجالاتها الكبار هو علم العروض، فكان الشعراء ينظمون الشعر مهتدين بحاسّة السمع، وليس هناك قانون مكتوب يلتزمون به، إلى أن جاء الخليل بن أحمد الفراهيدي فاستنبط فَنّ العروض، وصنّف في ذلك كتابين هما كتاب (العروض)، وكتاب (النغم)[2].

٢- النـثـر:

النثر هو الكلام غير الموزون، وهو من علوم العرب قبل الإسلام، فقد كانت لدى العرب ملكة الخطابة، واستمرّت هذه الملكة عند المسلمين، فاستخدمت

---

(١) أحمد عبد الباقي: معالم الحضارة العربية، ص٣٤٣.

(٢) انظر أمين القضاة: مدرسة الحديث في البصرة، ص٧٣-٧٤.

الخطابة عند القادة وأمراء الجند لتحميس الجنود على القتال، وفي المساجد لإلقاء المواعظ والعبر والدروس الدينية على المسلمين، فبرز ابن نباتة عبد الرحيم بن محمد الفارقي، وكان خطيباً وإماماً في علوم الأدب[١].

أمّا النثر كعلم، فكان يعبّر عنه (بالنثر الفني)، فبدأ ظهوره بشكل واضح في العصر الأموي بعد تعريب الدواوين، حيث ارتبط ارتباطاً وثيقاً بديوان الإنشاء وكتابة الرسائل، التي بدأت تتطوّر بظهور عبد الحميد الكاتب الذي وضع أسس الكتابة الفنية، وبلغت أوجها في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي على يد ابن العميد، وكان عبد الحميد الكاتب يعمل كاتباً لمروان بن محمد آخر خلفاء بني أميّة، وهو من كبار علماء الأدب، اشتهر بكتابة الرسائل فله رسائل في أكثر من ألف ورقة، وهو أول من أطال[٢] في الرسائل واستعمل التحميدات في فصول الكتب، فاستعملها النّاس من بعده، وضرب به المثل فقيل (فتحت الرسائل بعبد الحميد وختمت بابن العميد)[٣].

لقد تنوّعت الكتابة في العصر العباسي نتيجة لكثرة العلوم وتنوّع الفنون، فأصبح لكل علم من العلوم كتّاب مشهورون، وترجمت كثير من كتب النثر إلى العربية مثل كتاب (كليلة ودمنة) الذي ألّفه بيدبا الهندي باللغة السنسكريتية سنة ٣٠٠م، ثمّ ترجمه برزويه إلى الفلهوية، ثمّ إلى السريانية، ثمّ ترجمه عبد الله بن المقفّع إلى اللغة العربية[٤].

وكتاب (ألف ليلة وليلة) المترجم عن كتاب (هزار أفسانه) الفارسي إلى اللغة العربية[٥]، وهو يشتمل على قصص قديمة فارسية وهندية، ثمّ أضيفت له قصص عراقية منذ أيّام هارون الرشيد.

---

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ٣، ص١٥٦-١٥٨.

(٢) ابن النديم: الفهرست، ص١٠٧ ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ٣، ص٢٢٨-٢٣١.

(٣) ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ٣، ص٢٢٨.

(٤) ابن النديم: الفهرست، ص١٧٢.

(٥) أفسانه: تعني ألف خرافة (انظر عبد المنعم ماجد: تاريخ الحضارة الإسلامية، ص٢٠٠).

وظهر نوع جديد من النثر في العصر العباسي هو فنّ المقامات، والمقامة هي المجلس أو الندوة، والمقامة كفن أدبي هي حكاية تقال في مقام معين، وتتناول كلاماً متّصلاً بقصد الموعظة، فيبدي الكاتب رأيه على شكل قصص متفرّقة تدور حول أشخاص أذكياء، وكان أوّل من أبدع في هذا الفن (بديع الزمان الهمذاني)[١] ، الذي أملى أربعمائة مقامة تدور حول بطلين هما عيسى بن هشام وأبو الفتح الإسكندري[٢]، ونسج على منواله ابن ناقبة مجموعة من المقامات.

أمّا الحريري، فقد وضع مجموعة رائعة من المقامات جعل بطلها أبو زيد السروجي، وهي تشتمل على كثير من فرائد الأدب والحكم والأمثال والأشعار النادرة، فجاءت تحفة أدبية رائعة، احتذى فيها حذو بديع الزمان واقتفى أثره واعترف بفضله.

(١) انظر ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ١، ص١٢٧-١٢٩.

(٢) الثعالبي: يتيمة الدهر، جـ٤، ص٢٥٦ ياقوت الحموي: معجم الأدباء، جـ٢، ص١٦١.

أ- التّاريخ:

التاريخ لغة من أرَخَ، والتاريخ تعريف الوقت والتأريخ التدوين، وأرّخ: كرّر كتابة التاريخ، ولفظ التاريخ يفيد العهد والحساب والوقت، وقيل إنّ التأريخ الذي يؤرّخه النّاس ليس بعربي محض، وأنّ المسلمين أخذوه من أهل الكتاب[١]، والتأريخ: غاية الشيء ووقته الذي ينتهي إليه، وهو مصدر (أرّخ) اللفظ الشائع بلغة قيس أو (ورّخ) بلغة تميم[٢].

ويرى بعض الباحثين أنّ لفظ تأريخ مأخوذ من ياريخ العبرية، ومعناها القمر أو يرخ ومعناها الشهر، وبذلك يكون التأريخ هو التوقيت أي تحديد الشهر[٣]، بينما يرى آخرون أنّ لفظ تأريخ تعريب للكلمة الفارسية (ماه روز) ومعناه كما يقول البيروني (حساب الشهور والأيّام)[٤]، أو التوقيت القمري لأنّ لفظ ماه روز يقصد بها بدء الشهر القمري، وعرّب المسلمون هذا اللفظ بمؤرّخ وجعلوا مصدره التأريخ، وبهذا يكون التأريخ لفظ معرّب يدلّ على حركة الزّمان وسير الحياة وتقلّب الأفراد والمجتمعات والدّول[٥].

وعلم التأريخ هو تتبّع أحداث الماضي تسجيلاً ودراسة وتحليلاً، سواءً أكانت متعلّقة بالفرد أو الجماعة، بحيث يمكن الإفادة منها في الحاضر والتنبؤ مستقبلاً، واستخدم المسلمون التاريخ بمعناه الاصطلاحي لأوّل مرّة عندما أدخل عمر بن الخطاب التقويم الهجري حيث بدأ باستخدامه سنة (٢٢هـ/٦٤٣م) وعندما احتاج إلى تسجيل أسماء الجنود وتحديد الأعطيات السنوية للجند وأفراد

---

(١) ابن منظور: لسان العرب، جـ٣، / مادة أرخ.

(٢) أحمد جمال العمري: الحديث النبوي والتأريخ، دار المعارف، القاهرة، ١٩٩٠، ص٢٨.

(٣) انظر بلير: دائرة المعارف الإسلامية / التأريخ، مجلد٤، ص٤٧٣.

(٤) البيروني: الآثار الباقية عن القرون الخالية، القاهرة، ١٣٣٧هـ، ص٢٩.

(٥) علي شلق: العقل العلمي في الإسلام، ص٤٢٧.

المجتمع الإسلامي، وأرّخ المسلمون بالأشهر الهلاليّة التي كانت تتراوح ما بين ٢٩-٣٠ يوماً.

ومع ظهور الإسلام وانتشاره انفتح العرب على كثير من الأمم والشعوب صاحبة الحضارات العريقة، فتأثّرت بها، وبدأت النهضة الحضارية في الدولة العربية الإسلاميّة، وشملت هذه النهضة الجانب التاريخي، فعني المسلمون بتدوين الأحداث والأخبار المتعلّقة بهم وبغيرهم من الأمم والشعوب، ويمكن تلخيص الأسباب التي دفعت المسلمين للتوجّه إلى الكتابة التاريخية بالأمور التالية[(١)] :

١- الرغبة في التعرّف إلى أحوال الأمم الماضية التي ورد ذكرها في القرآن الكريم، والسنّة النبوية الشريفة.

٢- تنبيه الرسول الكريم إلى أهميّة التعرّف على الأخبار المختلفة، لقوله عليه الصّلاة والسّلام: (القرآن فيه خبر من قبلكم ونبأ من بعدكم، وحكم ما بينكم)[(٢)].

٣- اتّساع الدولة الإسلاميّة، فدخلت في نطاقها العديد من الشعوب ذات التاريخ العريق مثل أهل مصر والشام والعراق وفارس، وهؤلاء كان يصعب قطع الصلة بينهم وبين ماضيهم، لأنّ لهذه الشعوب تراث تعتزّ وتفاخر به الأمم.

٤- رغبة بعض الخلفاء والولاة المسلمين في التعرّف إلى أخبار الملوك وحكّام الأمم الأخرى وأساليب سياستهم، للإفادة منها في إدارة دولتهم[(٣)].

٥- الحاجة إلى معرفة البلاد المفتوحة وطريقة فتحها صلحاً أو عنوةً بهدف تقدير الضرائب على هذه البلاد من الخراج والجزية.

وسارت بدايات علم التاريخ عند العرب والمسلمين في اتجاه ديني، وهو الاتجاه الذي ظهر عند أهل الحديث في صدر الإسلام، حيث أصبحت الحاجة ماسّة إلى

---

(١) سعيد عاشور: تاريخ الحضارة الإسلامية، ص٦٤-٦٥.

(٢) الابشيهي: المستطرف في كل فن مستظرف، جـ١، ص٢١ عطية القوصي: الحضارة الإسلامية، ص١٨٢.

(٣) سعيد عاشور: تاريخ الحضارة العربية، ص٦٤ أحمد عبد الباقي: معالم الحضارة، ص٣٦٩.

معرفة سيرة الرسول وأقواله وأفعاله وحروبه ومعاهداته فأقبل بعض الرجال من المسلمين على جمع أخبار السيرة النبوية وتدوينها، فكان هذا هو بداية الاشتغال بعلم التاريخ، فبدأ مؤرّخو المسلمين محدّثين.

وسمّيت الدراسات الأولى لحياة الرسول باسم (المغازي)، وهي كلمة تعني غزوات الرسول وحروبه، لكنها في الحقيقة تناولت فترة الرسالة بأكملها أي السيرة النبوية، ثمّ تعدّتها لتدوين سيرة الصحابة والخلفاء الراشدين.

ويعتبر عروة بن الزبير[1] مؤسّس دراسة المغازي، فكان أوّل من ألّف في ذلك كتاباً أطلق عليه اسم (المغازي)، تناول فيه سيرة الرسول، وعصر الخلفاء الراشدين، واشتغل بالمغازي أيضاً أبان بن عثمان، ووهب بن منبّه.

وتطوّرت دراسة السيرة والمغازي على يد محمد بن عمر الواقدي، حيث ألّف كتاب (المغازي)، ونظم كتابه على السنين، ثمّ جاء ابن سعد، فألّف كتابه (الطبقات الكبرى)[2] في ثمانية أجزاء، تضمّن الجزءان الأول والثاني سيرة الرسول ﷺ، وفي بقية الأجزاء تناول أخبار الصحابة والتابعين، متّبعاً في ذلك ترتيب الأمصار، مكة فالمدينة والبصرة والكوفة وهكذا، فوضع بذلك الصيغة النهائية لدراسة السيرة النبوية والمغازي، أمّا تدوين الأخبار، فقد بدأت بداية محدودة في صدر الإسلام، خاصة أخبار الأمم البائدة والديانات السابقة للإسلام.

كانت الكتابات التاريخية أوّل الأمر تقوم على رواية الأخبار والحوادث بحيث تسند إلى الأشخاص الذين نقلت عنهم، كما هو في كتابات محمد بن جرير الطبري، وابن عساكر.

ثمّ رأى المؤرّخون أنّ يذكروا الحوادث بلا إسناد مرتّبة على السنين، كما فعل ابن الأثير، في كتابه الكامل في التاريخ، وأبو الفداء ابن كثير، في كتابه البداية والنهاية.

(١) محمد بن سعد: الطبقات، جـ٥، ص١٧٨ ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ٣، ص٢٥٥-٢٥٨ ابن كثير: البداية والنهاية، جـ٩، ص١٠٧-١٠٩.

(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ٤، ص٣٥١-٣٥٢ ابن النديم: الفهرست: ص١٣٦.

ومع مرور الوقت زاد الاهتمام بكتابة التاريخ وتسجيل أحداثه وأخباره، فتعدّدت الكتابات التاريخية، وفيما يلي أنواع الكتابات والكتب التاريخية عند المسلمين:

١- **كتب السير والمغازي**: وهي الكتب التي تبحث في سيرة الرسول وغزواته، وقد يتناول بعضها أخبار الصحابة والتابعين، وكانت هذه الكتب في بداية أمرها جزءاً من الحديث يرويها المهتمّون بها كرواية الأحاديث، واتّبع فيها أسلوب المحدثين الأوائل في إسناد الروايات، ومن هذه الكتب (سيرة ابن إسحاق)، ولم يصلنا هذا الكتاب، إلاّ بالصورة المختصرة التي تنسب إلى ابن هشام، فيما عرف بالسيرة النبوية، أو (سيرة ابن هشام)[١].

٢- **كتب الحوليّات**: وهي الكتب التي تعالج التاريخ بشكل متسلسل وفق تعاقب السنوات، ومن أشهر مؤرّخي المسلمين الذين اتّبعوا التاريخ على السنين محمد بن جرير الطبري[٢] في كتابه (الرسل والملوك)، ومسكويه في كتابه (تجارب الأمم).

٣- **تاريخ المدن**: وهي الكتب التي تعالج تاريخ مدينة معيّنة مثل كتاب (أخبار مكّة) لمحمد بن عبد الله الأزرقي، و(تاريخ مدينة بغداد) للخطيب البغدادي، وكتاب (تاريخ مدينة دمشق الكبير) لابن عساكر.

٤- **تاريخ الوقائع والحروب**: وهي الكتب التي تسجّل الأحداث الهامة من خلافات وحروب وأزمات وعلاقات مع الدول المجاورة، وكان للفتوحات الإسلامية نصيب وافر من اهتمام المؤرّخين، ومن هذه الكتب (فتوح الشّام) المنسوب للواقدي، وكتاب (فتوح البلدان) لأحمد بن يحيى البلاذري[٣]، وكتاب (وقعة صفّين) للأزدي (المنقري).

---

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ٣، ص١٧٧.

(٢) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، جـ٢، ص١٦٢ ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ٤، ص١٩١-١٩٢.

(٣) ابن النديم: الفهرست، ص١٦٤.

٥- **كتب الأنساب**: وهي الكتب التي تهتمّ بتدوين أنساب العرب وأصولهم وقبائلهم، فكان أبناء القبائل العربية يعتزّون بالانتساب إلى قبائلهم، واهتمّ كثير من المؤرّخين في العصر الإسلامي بكتابة الأنساب لحفظها وحمايتها من الضياع.

ويعتبر محمد بن السائب الكلبي، وابنه هشام من أشهر مؤرّخي الأنساب العربية[1]، وهشام بن محمد هو صاحب كتاب (الجمهرة في الأنساب)، ولمصعب ابن عبدالله الزبيري كتابين في النسب هما: (النسب الكبير)، و(نسب قريش)[2].

٦- **كتب التراجم والطبقات**: وهي الكتب التي تهتمّ بتدوين أخبار وسير مشاهير الناس من أهل العلم والمعرفة والسياسة والتجارة والحكم والدين وغير ذلك، وبدأ الاهتمام أوّل الأمر بتسجيل فضائل الصحابة، فكانت البداية التي انطلق منها المؤرّخون لتدوين كتب التراجم والطبقات.

ومن الكتب المؤلّفة بهذا المجال كتاب (عيون الأنباء في طبقات الأطباء) لابن أبي أصيبعة، وكتاب (معجم الإدباء) لياقوت الحموي.

٧- **كتب المذاهب والأديان**: وهي الكتب التي تتناول البحث في المذاهب والأديان للأمم التي اختلط بها المسلمون كالفرس والروم والهنود وغيرهم، أو الفرق الإسلاميّة المختلفة، فقد رغب المسلمون في التعرّف على أصول هذه الأمم وأديانها ومذاهبها، وذلك بهدف تنظيم العلاقة بين عناصر الدولة الإسلاميّة.

ومن الكتب التي تناولت هذه الدراسات كتاب (مقالات الإسلاميين) للأشعري، وكتاب الإمام الغزالي (فضائح الباطنية)، وكتاب (الفصل في الملل والأهواء والنحل) للشهرستاني..

٨- **كتب التاريخ العام**: وهي الكتابات التي تسجّل أخبار الأمم والشعوب منذ بدء الخليقة، ويستمر فيها المؤرخون إلى أيامهم، ومن هذه الكتب: كتاب (الكامل في

---

(١) ابن النديم: الفهرست، ص١٣٩-١٤٠.

(٢) ابن النديم: الفهرست، ص١٦٠.

التاريخ) لابن الأثير، وكتاب ابن خلدون المعروف بـ (العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيّام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر).

ب- الجغرافيا:

الجغرافيا كلمة يونانية تعني صورة الأرض، وكانوا يريدون بها التعرف إلى أحوال الأقاليم في القسم المعمور من الأرض، ومعرفة مواقع البلدان وأطوالها ومدنها وجبالها وبحارها وأنهارها.

وقد عرف المسلمون علم الجغرافيا وورد ذلك في رسائل إخوان الصفا[١]، وأدركوا أهمية هذا العلم نظراً للحاجة إليه في الأسفار المختلفة، في الرحلات التجارية ورحلات الحج وطلب العلم والزراعة.

وكان للمسلمين نشاط واسع ورحلات كثيرة، فجابوا البلاد من الشرق إلى الغرب ووصلوا إلى أقاصي شرق آسيا، وإلى مجاهل إفريقية وسواحل المحيط الأطلسي، وأقاموا علاقات تجارية لم يسمع بها الأوربيون إلا في عصور متأخّرة.

واطّلع العرب على المعلومات والمعارف الجغرافية الموجودة عند الأمم الأخرى كاليونان، واقتبسوا منهم بعض المعارف، إلا أنهم لم يكتفوا بذلك، فقد وجدوا فيها كثيراً من المغالطات والنقص، فقاموا بتصحيحها، وطوروها، وأضافوا إضافات فريدة أفادت المكتبة الجغرافية، ومن أبرز إنجازات العرب في علم الجغرافيا:

١- القول بكروية الأرض، فقد أشار إلى ذلك ابن خرداذبة وقال بأن الأرض مدورة كتدويرة الكرة، وموضوعة في جوف الفلك كالمحة في جوف البيضة، كما أشار إلى ذلك المسعودي أيضاً، وابن خلدون[٢].

٢- رسم صورة (خريطة) للكرة الأرضية، وقام بهذا الإدريسي الذي رسم معالم الأرض على كرة كبيرة من الفضّة لروجر الثاني ملك صقليّة.

٣- المسلمون هم أول من وضع أصول الرسم على مسطح كروي.

---

(١) إخوان الصفا: الرسائل، دار صادر، بيروت/ ١٩٥٧م، جـ١، ص١٥٨.

(٢) ابن خلدون: العبر، جـ١، ص٤٤.

٤- الدوران حول الكرة الأرضية، والوصول إلى مناطق من العالم الجديد، قبل الاكتشافات الجغرافية.

٥- أول من استخدم البوصلة في الملاحة البحرية، فالصينيون هم الذين اخترعوا البوصلة لكنّهم لم يتمكّنوا من الإفادة منها فقام المسلمون بذلك[١].

وهنالك مجموعة من العوامل دفعت المسلمين للاهتمام بعلم الجغرافيا منها[٢]:

١- معرفة البلاد التي فتحها العرب والاطّلاع على أحوال سكّانها وتنظيم إدارتها وفرض الخراج على أرضها.

٢- معرفة الطرق التجارية الموصلة إلى البلاد الإسلاميّة والبلاد المجاورة، لتسهيل انتقال التجّار والمسافرين.

٣- الرحلة في طلب العلم.

٤- أداء فريضة الحجّ ممّا يستدعي معرفة الطرق والمسالك من الديار المقدّسة إلى جميع الأمصار والولايات الإسلاميّة، وتوفير الأمن لها وحماية سالكيها.

٥- الاطّلاع على المعارف الجغرافيّة عند الأمم والشعوب الأخرى.

وألّف العلماء المسلمون مؤلّفات كثيرة في الجغرافيا يمكن تصنيفها حسب موضوعاتها إلى الأنواع التالية:

١- **كتب الجغرافيا العامة**: وتهتمّ بدراسة جغرافية العالم المعروف آنذاك، وتسجّل معلومات مختلفة عن البلدان والمناطق التي يذكرها الجغرافيون، وقد يضاف إلى المعلومات الجغرافيّة معلومات تاريخيّة، واقتصاديّة واجتماعية في كثير من الأحيان، ومن هذه الكتب كتاب (مروج الذهب ومعادن الجوهر) للمسعودي، وكتاب (أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم) للمقدسي، وكتاب (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) للإدريسي.

---

(١) سعيد عاشور: تاريخ الحضارة العربية الإسلاميّة، ص٧٩.

(٢) أبو زيد شلبي: تاريخ الحضارة الإسلامية، ص٣٦٦.

٢- **الجغرافيا الإقليمية**: وتهتم بدراسة الأقاليم والحديث عن مدنها وأخبارها وأهلها، وخططها والطرق الموصلة إليها، وصناعات أهلها وتجارتهم، ويسمّيها البعض الكتب البلدانيّة، منها كتاب (صور الأقاليم) لأبي زيد البلخي، وكتاب (المسالك والممالك) لابن خرداذبة.

٣- **المعاجم الجغرافية**: وهي الكتب التي تهتمّ بدراسة أسماء البلاد والمواضع والمدن، مرتّبة على نسق معين، وغالباً ما يتمّ ترتيبها على حروف المعجم، وفي طليعة هذا النوع من الكتب (معجم البلدان) لياقوت الحموي، وكتاب (الروض المعطار في خبر الأقطار) لمحمد بن عبد المنعم الحميري.

٤- **كتب الرحلات**: وهي الكتب التي تسجّل أخبار ومعلومات خاصة بالبلاد التي زارها الرحّالة، وما شاهدوه خلال أسفارهم عن مناطق زيارتهم، ومنها رحلة سليمان التاجر في منتصف القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، ورحلة ابن جبير، ورحلة ابن بطوطة التي سمّاها (تحفة النظّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار).

٥- **الجغرافيا البحريّة**: وتهتمّ بذكر البحار والظواهر الجغرافيّة فيها، كالأنواء والرياح والمدّ والجزر، وما فيها من المخلوقات، وما يجري فيها من الرحلات البحريّة، ومن أشهر من كتب في هذا الموضوع البحار العربي أحمد بن ماجد صاحب كتاب (الفوائد في أصول علم البحر والقواعد)، وكان ابن ماجد هذا عالماً باستخدام البوصلة، خبيراً بمنازل القمر ليهتدي إلى الاتجاهات في البحر، وخبيراً في شؤون الرياح وهبوبها، ومعرفة المسالك البحرية والشواطى، وهو الذي أرشد الملاّح البرتغالي (فاسكو ديغاما) سنة ٩٠٤هـ/ ١٥٠١م في بحر العرب حتى أوصله إلى ميناء كلكتا في الهند[١].

(١) علي شلق: العقل العلمي في الإسلام، ص٣٧١.

الرياضيّات

عرّف العرب علم الرياضيات بأنّه علم غرضه إدراك المقادير أو مجموعة العلوم التي تتناول الكمية المجرّدة والعلاقات بين أقسامها وأشكالها، وتشتمل على الحساب والجبر والمقابلة والهندسة والمثلثات والموسيقى والفلك، حيث اعتبر القدماء علمي الفلك والموسيقى النظرية من جملة العلوم الرياضيّة، غير أنّها على الأغلب تدرس في أبواب مستقلة.

وكان اهتمام العرب قبل الإسلام بهذه العلوم محدوداً باستثناء علم الفلك حيث كانت لهم معرفة بالكواكب والنجوم لحاجتهم إلى ذلك، فقد عرفوا أسماء الكثير منها ورصدوا مواقعها وحركاتها.

أ- الحساب:

عرّف ابن خلدون الحساب بأنّه (صناعة علمية في حساب الأعداد بالضمّ والتفريق)[1].

واختلفت الشعوب القديمة في كتابة الأرقام فكتب المصريون القدماء الأرقام على شكل خطوط عمودية، وكتبوا العشرة على شكل حذوة الحصان (Ω) والألف على شكل زهرة اللوتس، واستخدم البابليون أشكالاً مسمارية أفقية عمودية، فالواحد على شكل (V) والعشرة على شكل (<)، أما الإغريق فاستخدموا الحروف الأولى لكلمات الأعداد.

واستخدم الرومان خطوطاً عمودية بجوار بعضها البعض لترمز إلى الأعداد فالواحد I والاثنين II والثلاثة III والأربعة IV والخمسة V والستّة VI والعشرة X والخمسون L والمائة C والخمسمائة D والألف M.[2]

---

(١) ابن خلدون: العبر، جـ١، ص٤٨٣.

(٢) انظر هونكة: شمس العرب تسطع على الغرب، ص٦٩، ٧٠ حكمت عبد الرحمن: دراسات في تاريخ=

وعرف العرب الحساب منذ ما قبل الإسلام، لكنه كان يتناسب وحاجاتهم الاجتماعية من عدّ وبيع وشراء وتقسيم الغنائم، وأمور الكيل والوزن، ولم تكن لديهم رموز خاصة بهم، ولكنهم استعملوا طريقتين في الحساب هما(١).

١- **استعمال الكلمات بحروفها الكاملة**: فإذا أرادوا التعبير عن رقم (٤) كتبوا (أربعة) وعن العدد (١٠٠) كتبوا (مائة) وهكذا...

٢- **حساب الجمّل**: وهي طريقة أخذوها عن شعوب بلاد ما بين النهرين وطبقوها على حروف الأبجدية عندهم، بحيث أعطي كل حرف من هذه الحروف قيمة عددية ثابتة، فإذا أرادوا الدلالة على رقم أو عدد معين كتبوا الأحرف الدالة عليها، فكان الرقم (١) يدلل عليه بالحرف أ، والرقم (٢) بالحرف (ب) والرقم (٣) بالحرف (ج) وإذا أرادوا التعبير عن العدد (٢٤) دلوا عليه بكد والعدد (٣٠٩) بشط... وهكذا، والجدول التالي يبين القيم الرقمية أو العددية لكل حرف من الحروف الأبجدية(٢).

الحرف	القيمة	الحرف	القيمة	الحرف	القيمة
أ	١	ك	٢٠	ش	٣٠٠
ب	٢	ل	٣٠	ت	٤٠٠
ج	٣	م	٤٠	ث	٥٠٠
د	٤	ن	٥٠	خ	٦٠٠
هـ	٥	س	٦٠	ذ	٧٠٠
و	٦	ع	٧٠	ض	٨٠٠
ز	٧	ف	٨٠	ظ	٩٠٠
ح	٨	ص	٩٠	غ	١٠٠٠
ط	٩	ق	١٠٠	—	—
ي	١٠	ر	٢٠٠	—	—

= العلوم عند العرب، ص٨٢.

(١) انظر قدري طوقان: العلوم عند العرب، ص٥٢ محمد مطيع الحافظ: تاريخ العلوم عند العرب، ص٩٨.

(٢) الخوارزمي: مفاتيح العلوم، ص١١٤.

فمثلاً يا كانت تساوي ١١ لأن ي = ١٠، أ = ١، وكذلك دم = ٤٤، طم = ٤٩، بع = ٧٢، بغ = ٢٠٠٠، جغ = ٣٠٠٠، كغ = ٢٠٠٠٠، وقغ = ١٠٠٠٠٠ ... وهكذا.

وفي العصر العباسي أخذ العرب عن الهنود نظام الترقيم وهو نظام يستخدم الأرقام التسعة المعروفة اليوم بالإضافة إلى الصفر، وأدخل هذا النظام مع أحد العلماء الهنود الذين وفدوا على الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور، حيث بدأ المسلمون بترجمة الكتب من اللغات المختلفة للإفادة من معارف الأمم الأخرى، فهذب المسلمون هذه الأرقام وكوّنوا منها مجموعتين رقميتين بدأ الناس باستعمالها، وهما[١]:

١- **الأرقام الغبارية**: وسميت كذلك لأنها كانت ترسم على مسطحات من التراب الناعم، وسمّيت أيضاً الأرقام العربية بعد أن تم نقلها إلى أوروبا في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، ولا تزال تستخدم إلى اليوم في بلاد المغرب وأوروبا، وترسم كما يلي[٢]:

1-2-3-4-5-6-7-8-9

٢- **الأرقام الهندية**: وهي الأرقام التي استعملت في البلاد العربية في المشرق العربي ولا تزال تستخدم إلى اليوم، وترسم كما يلي[٣]:

١-٢-٣-٤-٥-٦-٧-٨-٩

وكان العرب قد استخدموا لفظ صفر قبل الإسلام بمعنى لا شيء، وهو بذلك لا يعني رقماً حسابياً، إلا أنهم عادوا في القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي واستعملوا الصفر رقماً حسابياً ورسموه على هيئة حلقة أو دائرة، واستعمل لحفظ المراتب في العمليات الحسابية مكان العشرات أو الآحاد أو المئات عندما لا يوجد

---

(١) عطيّة القوسي: الحضارة الإسلامية، ص٢٥٠ محمد الحافظ: تاريخ العلوم، ص٩٨-٩٩.

(٢) عبده الحلو: الوافي في تاريخ العلوم، ص٩٧.

(٣) سعيد عاشور: تاريخ الحضارة الإسلامية، ص١٠٤.

أرقام في هذه الخانات[1]، ونقل استعمال الصفر من العرب إلى أوروبا.

واستعمل المسلمون الكسر العشري ووضعوا علامته، ويرجع الفضل إلى العالم غياث الدين الكاشي (ت٨٤٠هـ/١٤٣٦م) في هذا الإنجاز، وقاموا بتحديد النسبة بين محيط الدائرة وقطرها وهي النسبة التي يرمز لها بالحرف (ط) أو ما يسمى النسبة التقريبية.

ب- الجبر:

الجبر هو نوع من تبسيط المسائل الحسابية المعقدة، وتسهيل الطرق المؤدية إلى حلّها[2]، وهو أحد العلوم الرياضية التي تستخرج به المجهولات باستخدام حروف وأرقام وعلامات، ويعود الفضل في ظهور هذا العلم إلى العالم العربي محمد بن موسى الخوارزمي الذي عاش في عصر المأمون، فهو مؤسس هذا العلم وأول من ألف فيه بصورة منظمة ونقل إلى اللغات الأوروبية بلفظه العربي (Algebra).

لقد قسّم العرب المعادلات إلى ستة أقسام ووضعوا حلولاً لكل منها، وحلّوا كثيراً من معادلات الدرجة الثانية بطرق هندسية، كما حلّوا معادلات الدرجة الثالثة والرابعة بواسطة قطع المخروط[3]، واستعملوا منحنى نيكوميدس في تقسيم الزاوية إلى ثلاثة أقسام متساوية، واستعملوا الرموز في الأعمال الرياضية.

لقد ترك محمد بن موسى الخوارزمي (ت٢٣٥هـ/ ٨٥٠م) كتاباً في الجبر أطلق عليه اسم (الجبر والمقابلة)، وضعه في خلافة المأمون وبتشجيع منه، وبقي هذا الكتاب لقرون عديدة مصدراً مهماً بمادته العلمية في الرياضيات، كما اعتمد عليه فحول علماء أوروبا وترجموه إلى اللغة اللاتينية.

وترك الخوارزمي مؤلفات كثيرة في الرياضيات والفلك والعلوم المختلفة منها:

---

(١) الخوارزمي: مفاتيح العلوم، ص١١٣ قدري طوقان: العلوم عند العرب، ص٥٣.
(٢) ابن خلدون: العبر، جـ١، ص٤٨٣.
(٣) انظر الخوارزمي: مفاتيح العلوم، ص١١٦-١١٧ ابن خلدون: العبر، جـ١، ص٤٨٣-٤٨٥.

الزيج الأول والزيج الثاني، وكتاب العمل بالاصطرلاب، وكتاب التاريخ[١].

جـ- الهندسة والمثلثات:

علم الهندسة هو النظر في الأشكال والمقادير المتّصلة الحاصلة من تقاطع الخطوط ونسب بعضها من بعض، وكانت قبل الإسلام علماً يونانياً أو علماً فيثاغورياً نسبة إلى فيثاغورس وقد استفاد العرب والمسلمون من منجزات اليونان في هذا المجال، فبدأوا بترجمة كتاب إقليدس في الهندسة وهو كتاب (الأصول والأركان) في أيام أبي جعفر المنصور[٢]، فكان لهذا العمل فائدة كبيرة حتى لأوروبا، فلم يتمكن الأوروبيون من الوقوف على هذا الكتاب والإفادة منه إلا من الترجمة العربية التي نقلها أديلارد الباثي إلى اللاتينية في القرن الثاني عشر الميلادي[٣].

وأضاف العرب في الهندسة إلى ما نقلوه عن اليونان، وطبقوا النظريات الهندسية في الحياة العملية، فيشيد ابن القفطي بفضل الحسن بن الهيثم في هذا المجال، فقد ألّف كتاباً في الهندسة على نسق كتاب (الأصول)[٤].

أما علم المثلثات فهو علم عربي لأن علماء المسلمين هم أول من وضع هذا العلم بشكل علمي وفصلوا بينه وبين الفلك، فالعرب استعملوا الجيب بدلاً من وتر ضعف القوس الذي استعمله اليونان، والمسلمون هم أول من أدخل المماس إلى حساب المثلثات، وإلى أبي الوفاء البوزجاني يرجع الفضل في وضع النسب المثلثية (الظل) واستخدمها في حل المسائل الرياضية.

واستعمل المسلمون المماسات والقواطع ونظائرها في قياس الزوايا والمثلثات، ووضعوا الجداول الرياضية التي مهّدت لاكتشاف قانون اللوغريتمات.

---

(١) ابن النديم: الفهرست، ص٣٨٣ أبو زيد الشلبي: تاريخ الحضارة الإسلامية، ص٩٢.
(٢) انظر الخوارزمي: مفاتيح العلوم، ص١١٨ ابن خلدون: العبر، جـ١، ص٤٨٥-٤٨٦.
(٣) سعيد عاشور: تاريخ الحضارة العربية، ص١٠٨.
(٤) ابن القفطي: أخبار الحكماء، ص١١٤ عطيّة القوصي: الحضارة الإسلامية، ص١٥٤.

علم الفلك

هو العلم الذي يبحث في حركات الكواكب الثابتة والمتحركة والمتحيّرة ويسميه ابن خلدون علم الهيئة[١]، أما الخوارزمي فيقول بأنه يسمى بالعربية التنجيم وباليونانية اصطرنوميا، فاصطر هو النجم، ونوميا هو العلم[٢].

وكان علم الفلك معروفاً عند بعض الأمم القديمة كاليونانيين والهنود وغيرهم، كما كان معروفاً عند العرب قبل الإسلام، وعند البابليين والكلدانيين والفرس، وعرف عرب الجاهلية الأبراج وعدداً من النجوم والكواكب وكانت لها أسماء عربية كالثريا والفرقدين وأسماء بابلية أو كلدانية أو فارسية كالمريخ وزحل والمشتري والزهرة.

استعان العرب بمواقع النجوم ومطالعها للاهتداء في البراري والاستدلال على الجهات، واهتموا بحركات القمر فحسبوا به الشهور والسنين وعمدوا إلى النسيء لحل مشكلة الفرق بين طول السنتين الشمسية والقمرية[٣]، واستمر وجود النسيء حتى ظهور الإسلام الذي حرّمه الله بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٌ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ﴾.

وبدأ اهتمام المسلمين بعلم الفلك في العصر الأموي، حيث ترجم أول كتاب في الفلك هو (مفتاح النجوم) المنسوب لهرمس الحكيم في أواخر العصر الأموي، وزاد الاهتمام بعلم الفلك في العصر العباسي منذ عهد الخليفة أبي جعفر المنصور الذي أولى الفلك عناية كبيرة وكان يصطحب معه (نوبخت الفارسي)، وكلّف إبراهيم الفزاري بنقل كتاب في حركات النجوم هو (السندهند).

واهتم المسلمون بإنشاء المراصد الفلكية فبنى الأمويون مرصداً في دمشق، وفي العصر العباسي أمر المأمون باتخاذ المراصد الفلكية، فقدم لها ما تحتاج من أموال لبنائها وتجهيزها بآلات الرصد، فبنى مرصداً في الشماسية ببغداد، ومرصداً آخر في

---

(١) ابن خلدون: العبر، جـ١، ص٤٨٧.

(٢) الخوارزمي: مفاتيح العلوم، ص١٢٢.

(٣) محمد مطيع الحافظ: تاريخ العلوم عند العرب، ص١١٠-١١١.

دمشق على جبل قاسيون، ثم توالى إنشاء المراصد في أنحاء الدولة الإسلامية، فبنى شرف الدولة البويهي مرصداً في بستان دار الحكمة، وأقام الفاطميون مرصداً على جبل المقطم في عهد الخليفة الحاكم بأمر الله وعرف بالمرصد الحاكمي، واستخدم المسلمون بعض الآلات لرصد النجوم ومنها الإصطرلاب الذي استخدم في قياس الارتفاعات، والمسافات وارتفاع النجوم والكواكب وتحديد أوقات الصلاة ومطالع البروج[(١)]، وصنع المسلمون آلة جديدة للرصد في عهد المأمون سميت (ذات الحلق)[(٢)]، وتتكون من حلقات نحاسية تمثل كلّ واحدة منها موضعاً في الفلك.

وأهم منجزات العرب والمسلمين في الفلك وضع الأزياج[(٣)]، وحفظ تراث الأقدمين من الضياع بنقل الكتب الفلكية إلى العربية مثل المجسطي الذي ضاع أصله اليوناني وبقيت الترجمة العربية، وقياس محيط الأرض وتقدير الاعتدالين الربيعي والخريفي، ورصد الكسوف والخسوف، وتحديد اتجاه القبلة في المساجد تحديداً دقيقاً.

ومن الأسباب التي ساعدت على تطور علم الفلك وازدهاره عند المسلمين:

١- الحاجة إلى تحديد أوقات الصلاة والصيام والأعياد، وتحديد اتجاه القبلة.

٢- معرفة الاتجاهات وطرق المواصلات.

٣- انفتاح المسلمين على علوم الأمم الأخرى وحضارتها.

٤- تشجيع الخلفاء العباسيين لعلماء الفلك وإنشاء المدارس والمراصد الفلكية.

ومن علماء المسلمين في الفلك محمد بن موسى الخوارزمي صاحب كتاب الزيج الأول والزيج الثاني، وأبو الريحان البيروني الذي تمكن من تحديد خطوط الطول والعرض تحديداً دقيقاً، وله مؤلفات عديدة منها: (الآثار الباقية عن القرون الخالية).

---

(١) عطيّة القوصي: الحضارة الإسلامية، ص٢٤٩ محمد مطيع الحافظ: تاريخ العلوم، ص١١٤.

(٢) ابن خلدون: العبر، جـ١، ص٤٨٨.

(٣) الزيج: هو صناعة حسابية على قوانين عددية، وهي اختلاف حركات ومواضع الكواكب في الكرة السماوية من وقت لآخر (انظر عبده الحلو: الوافي في تاريخ العلوم، ص١٢٥).

الطـب

كانت لدى العرب قبل الإسلام معرفة بالطب لكنها على الأعم الأغلب كانت مبنيّة على التجربة[1]، وبعضها كان من خبراتهم التي اكتسبوها عن طريق اتصالهم بالأمم الأخرى، وورد في أشعار العرب ما يدل على معرفتهم بالطب، فمن أشعارهم:

ما كان في الـرأس أخـرجـه بغرغرة   فالقيء يخرج ما في الصدر من عفن

وكل ما كان في صلـب فذلـك لا   يسيـل إلا بأخـلاط مــن الحقـن

واشتهر من أطباء العرب في الجاهلية ابن حذيم الذي كان طبيباً حاذقاً يضرب به المثل فيقال (أطبّ من ابن حذيم)، والحارث بن كلدة، ورفيدة الأسلمية، وزينب طبيبة بني أود التي كانت صاحبة خبرة في مداواة أمراض العين وكانت بعض علاجاتهم في الطب مبنيّة على السحر والشعوذة.

ولمّا جاء الإسلام، حثّ الرسول ﷺ على النظافة، وأوصى بالحجر الصحي، ومن أقواله (ما ملأ آدمي وعاء شرّاً من بطن)، وقد عملت بعض النساء ممرّضات مع الجيش الإسلامي، يعالجن الجرحى ويقدّمن الدواء لمن يحتاج إليه مثل رفيدة الأسلميّة، ونسيبة بنت كعب المازنية، وزينب طبيبة بني أود التي اشتهرت بالجراحة في صدر الإسلام.

لقد حارب الإسلام الخرافة التي ارتبطت بالطب ونهى عن الرجوع إلى العرّافين والكهّان وأبطل المداواة بالسحر والشعوذة، وسمح باستشارة الأطباء حتى وإن كانوا من غير المسلمين، فعندما مرض سعد بن أبي وقّاص في مكة عاده رسول الله ﷺ، واستدعى الحارث بن كلدة ليعالجه[2]، وألّف العلماء المسلمون كتباً تحمل اسم

---

(١) ابن خلدون: العبر، جـ١، ص٤٩٣ عبده الحلو: الوافي في تاريخ العلوم، ص٢٦.

(٢) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطبّاء، ص١٦١ عطية القوصي: الحضارة الإسلامية، ص٢٢٣.

(الطب النبوي) تفسيراً لما أورده الرسول ﷺ في هذا المجال، منها كتاب (الطب النبوي) لابن قيّم الجوزية.

زاد اهتمام المسلمين بالطبّ في العصر الأموي وشجّع الخلفاء الأطبّاء على الحضور إلى دمشق، وأغدقوا عليهم الأموال لترجمة المؤلّفات الطبية إلى اللغة العربية ومزاولة مهنة الطب.

وكان الوليد بن عبد الملك هو أول من أنشأ المستشفيات في الإسلام، وخصّص لها الأطبّاء وحدّد لهم المرتّبات والأرزاق[(١)]، وكان تياذوق من مشاهير الأطباء أيّام بني أميّة[(٢)].

وازدهر الطب في عصر بني العبّاس نتيجة الاهتمام الزائد من الخلفاء بسبب حاجة بعضهم إلى الأطباء لعلاجهم مثل أبي جعفر المنصور الذي استقدم جرجيوس[(٣)] الطبيب من جند يسابور لعلاجه، ونتيجة الاهتمام بالحركة العلمية وحركة النقل والترجمة، كان للطبّ نصيب وافر من هذا الاهتمام، فأقام هارون الرشيد بيمارستاناً كبيراً في بغداد لتعليم الطب والعلاج، وألحق به مكتبة كبيرة، وأنشئت في أوائل القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي أوّل نقابة طبية في الإسلام لتسجيل وترخيص الأطباء لممارسة مهنة الطب، ففي سنة ٣١٩هـ/ ٩٣٠م، علم الخليفة المقتدر بأنّ أحد أطباء بغداد أخطأ في تشخيص أحد مرضاه ووصف العلاج له، ومات على أثر ذلك، فأمر الخليفة المحتسب بأن يمنع جميع الأطباء من ممارسة الطب حتّى يقدّم امتحاناً يجيز له ذلك، فكلّف سنان بن ثابت بن قرّة بإجراء هذا الامتحان، فأجري لما يقرب من تسعمائة طبيب في بغداد[(٤)].

وكان للمسلمين دور كبير في مجال الطب فدرسوا علوم الأوّلين خاصة اليونان

---

(١) اليعقوبي: التاريخ، جـ٢، ص٢٩٠-٢٩١ القلقشندي: صبح الأعشى، جـ١، ص٤٣١.
(٢) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص١٧١-١٧٢، ١٨١.
(٣) ن.م: ص١٨٣.
(٤) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، ص٣٠٠-٣٠٧.

وترجموا كتبهم إلى اللغة العربية، فعدّلوا فيها وصحّحوها، وأضافوا إلى الطب إضافات جديدة لم يسبقهم إليها أحد، ومن منجزاتهم في هذا المجال:

١- تعليل الكثير من الأمراض وتحديد الدواء المناسب لها كأمراض الجدري والحصبة والتهاب السحايا والسلّ الرئوي، وأمراض الأطفال.

٢- عرفوا الدورة الدموية الصغيرة، وتنسب معرفتها إلى ابن النفيس.

٣- كانوا أول من استخدم (المخدّر) في الطب والعمليات الجراحية، وذلك باستعمال نبات (الزؤان) أو الشيلم، واستخدموا العقاقير المخدّرة لتسكين الألم.

٤- إجراء العمليات الجراحية، فباشروا جراحة الأنف والأذن والحنجرة والفم والأسنان، واستخدموا الآلات في الجراحة كالمقصّ والمبضع والصنّارة وغيرها.

٥- قاموا باستخراج الحصاة أو تفتيتها في المسالك البوليّة.

٦- استخدموا مصارين الحيوانات في خياطة الجروح.

٧- وصف السكتة الدماغية، واحتقان الدماغ، وقام بذلك ابن سيناء.

٨- عرفوا تعقيم الجروح وتطهيرها بالكيّ والقوابض.

٩- بناء المستشفيات وبدأ في خلافة الوليد بن عبد الملك، حيث أمر ببناء مستشفى لحبس المجذومين حتى لا يختلطوا بالنّاس، وآخر لعزل المصابين بالعمى، ثمّ تطوّر بناء المستشفيات، واهتمّ المسلمون باختيار الأماكن المناسبة لبنائها، وكانت هذه المستشفيات تنقسم حسب الأمراض، فكان منها مستشفيات خاصة بالأمراض العقلية كالمستشفى النوري في حلب، ومستشفيات خاصة بالأمراض المعدية كالجذام، والعمى.

واشتهر عدد كبير من الأطباء المسلمين كان كثير منهم من النساطرة[1] السريان مثل آل بختيشوع، وآل ماسوية، وآل إسحاق، وبني قرّة، ومن الأطباء في العصر الإسلامي:

---

(١) النساطرة نسبة إلى زعيمهم الأسقف نسطوريوس بطريق القسطنطينية (القرن ٥م)، وهم جماعة من المسيحيين يعتقدون بالطبيعة البشرية للمسيح، أقاموا في مدينة جند يسابور ودرسوا في مدرستها.

١- الرّازي:

هو أبو بكر محمد بن زكريا، ولد بالري ثمّ انتقل إلى بغداد وأقبل على دراسة الطب والفلسفة(١)، وهو أوّل من أظهر أهمية الطب السريري، وأهتمّ بالمستشفيات والجلوس إلى جانب أسرّة المرضى لمعرفة حالتهم والعناية بهم، وكتب في علم النفس والأخلاق والكيمياء، وبيّن أهميتها في العلاج والعقاقير وهو أول من وصف الحصبة والجدري سريرياً، وأشار إلى انتقالهما بالعدوى، وهو صاحب كتابيّ (الحاوي)، و(المنصوري).

٢- ابن سينا:

هو أبو علي الحسين بن عبد الله، ولد في بخارى من قرى تركستان، وتنقلّ في طلب العلم، فسافر إلى الري وهمذان وأصفهان وبغداد وغيرها من البلاد، واتّصل بكبار علماء عصره، ومن مؤلّفاته التي نالت شهرة فائقة كتاب (القانون) في الطب، حيث جمع معارف سابقيه ومعاصريه في الطب وأضاف إليه إنتاجه وما وصفه من أمراض ومعالجات، وشرح فيه طرق تحضير الأدوية وكيفية استعمالها.

وصف ابن سينا السكتة الدماغية واحتقان الدماغ وهو أوّل من استخدام التخدير لإجراء العمليات الجراحية، وعرف مرض السرطان، وكان ابن سينا يلقّب بالشيخ الرئيس.

٣- أبو القاسم الزهراوي الأندلسي:

هو خلف بن العباس القرطبي وينسب إلى المدينة الزهراء، كان خبيراً بالأدوية المفردة، وهو من أكبر الجراحين المسلمين، وهو أوّل من بحث في التهاب المفاصل ومرض السل ووصف عملية تفتيت الحصى في المثانة، وأشار إلى استخدام النساء في التمريض(٢) كممرّضات ومساعدات ممرّضات، واستخدم

---

(١) ابن النديم: الفهرست، ص٤١٥-٤١٦.

(٢) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، ص٥٠١.

مجموعة من الآلات في العلميات الجراحية كالمبضع والصنارة والمقصّ وغيرها، وله مجموعة من التصانيف المشهورة منها كتاب (التصريف لمن عجز عن التأليف).

الكيمياء

بدأ الاهتمام بهذا العلم عند المسلمين منذ العصر الأمويّ على يد خالد بن يزيد ابن معاوية[١]، ودفعته إلى ذلك الفكرة التي كانت سائدة عند بعض العلماء في العصور القديمة والوسطى، وهي إمكانيّة تحويل المعادن الخسيسة إلى ذهب، فكلّف بعض العلماء بترجمة كتب الكيمياء اليونانية إلى العربية، فنشأ بذلك ما عُرِفَ بعلم الصنعة[٢] الذي أسهم في تقدّم علم الكيمياء، كما كانت العناية بالطب والصيدلة وتحضير الأدوية تستدعي الاهتمام بعلم الكيمياء.

وأقبل المسلمون على دراسة هذا العلم وساروا فيه على أساس التجربة، فخطا خطوات ثابتة على طريق التطوّر والتقدّم، فقد تحوّل علم الصنعة على يد جابر بن حيّان ومن بعده الرّازي إلى علم تجريبي، ولكثرة ما قدّم العرب لعلم الكيمياء، فقد وصف بأنّه علم عربي، وتوصّل العرب نتيجة تجاربهم العلميّة في هذا المجال إلى تحضير المواد التالية[٣] :

١- حامض الكبريتيك (H_2SO_4)، وحامض النيتريك (HNO_3).

٢- صودا الكاوية ($NaOH$) التي تستخدم في صناعة الصابون والحرير الاصطناعي.

---

(١) ابن النديم: الفهرست، ص٤٩٧ عطية القوصي: الحضارة الإسلامية، ص٢٥٦.

(٢) تشتمل الصنعة على كتب اليونان والسريان في مجال الكيمياء التي ترجمت إلى اللغة العربية، ويقول ابن النديم: صناعة الكيمياء، وهي صنعة الذهب والفضة من غير معدنها (انظر ابن النديم: الفهرست، ص٤٩٣).

(٣) انظر عبدة الحلو: الوافي في تاريخ العلوم عند العرب، ص٦٢-٦٣ قدري طوقان: العلوم عند العرب، ص٣٠-٣١.

٣- الكحول (CH_3OH)، والنشادر (NH_3OH).

٤- الاثمد (Sb) الذي استخرجوا منه الكحل لطبابة العيون.

٥- نترات الفضة ($AgNo_3$) التي استخدمت في الصيدلة.

بالإضافة إلى ذلك، فقد أدخل العرب طريقة فصل الذهب عن الفضة بالحلّ بوساطة الحامض، وأتقن العلماء عمليات التقطير والترشيح والتصعيد والتبلور والتذويب والتسامي والتكليس وغيرها[١].

ويرتبط نشوء وتطوّر علم الكيمياء بالعالم العربي المسلم جابر بن حيّان الكوفي[٢]، فهو إمام علماء الكيمياء تتلمذ على الإمام الصّادق، وله أكثر من خمسمائة مؤلّف في هذا العلم، حيث بقيت كتبه تدرّس في أوروبا لقرون عديدة، ومن مؤلفاته: (الميزان)، و(نهاية الإتقان)، و(رسالة في الأفران) وترجمت إلى اللغة اللاتينية، و(كتاب التكليس)، و(كتاب الإيضاح) الذي تكلّم فيه عن تكوين الفلزات.

يعتبر جابر بن حيان أول من حضّر حامض الكبريتيك (زيت الزاج) واكتشف حامض النيتريك وماء الذهب (النيترهيدروكلوريد) وكلوريد الزئبق، وتنسب إليه عدّة اختراعات في مجال الكيمياء منها:

١- تقطير الخلّ للحصول على حامض الخلّيك المركّز.

٢- تحضير طلاء يمنع صدأ الحديد.

٣- صناعة ورق غير قابل للاحتراق.

٤- استعمال ثاني أكسيد الكربون في صناعة الزجاج.

٥- صبغ الجلود والشعر، واستخدام الشب لتثبيت الألوان.

---

(١) انظر الخوارزمي: مفاتيح العلوم، ص١٤٧-١٤٩ ابن خلدون: العبر، جـ١، ص٥٠٤-٥٠٥.

(٢) ابن النديم: الفهرست، ص٤٨٩-٤٩٩.

الترجمـة

وبعد الغزو اليوناني لبلاد الشرق العربي سنة (٣٣٣ق.م) أخذت تنتشر الثقافة الهلينية في المنطقة ونشأت مدارس للعلم والفلسفة في نصيبين وحران وانطاكية والإسكندرية وجند يسابور، حيث اهتمت هذه المدارس بالترجمة اهتماماً كبيراً، وقامت بنقل الكثير من العلوم والمعارف إلى العرب.

انشغل المسلمون في صدر الإسلام بالفتوحات ونشر الإسلام، ثم بدأت الدولة العربية بالاستقرار في العصر الأموي، فبدأت من هناك اهتمامات العلماء بالاطلاع على العلوم والثقافات عندما قام خالد بن يزيد بن معاوية (ت٨٥هـ/ ٧٠٤م) بتبني بعض أعمال الترجمة ونقل الكتب العلمية والفلسفية إلى اللغة العربية، فقد أحضر جماعة من الفلاسفة، وطلب منهم نقل بعض الكتب إلى العربية[١].

وزاد الاهتمام بحركة الترجمة منذ عهد عمر بن عبد العزيز، فنقل الطبيب اليهودي ماسر جويه كتاب (القس أهرن) في الطب، وبعض كتب الطب لجالينيوس.

وبدأت الترجمة تأخذ أهمية خاصة منذ أوائل العصر العباسي، فقد أولى أبو جعفر المنصور أهمية كبيرة لنقل الكتب الطبية والرياضية والفلكيّة، ثم أسس هارون الرشيد مكتبة ضخمة في بغداد، وشجع على نقل الكتب الطبيعية والرياضية والطبية إلى اللغة العربية.

وكان العصر الذهبي لحركة النقل والترجمة في عهد الخليفة المأمون الذي أنشأ داراً للترجمة، وشجّع على ترجمة الكتب الفلسفية والفلكية والرياضية والعلمية، وبلغ اهتمامه بهذا العمل أن خصّص جوائز لمن يقوموا بالترجمة، فكان يدفع وزن الكتاب المترجم ذهباً لمن يقوم بذلك.

واستمرّ الاهتمام بالنقل والترجمة عند خلفاء بني العباس، وتولّى السريان الاهتمام

---

(١) ابن النديم: الفهرست، ص٤٩٧ سعيد عاشور: تاريخ الحضارة العربية، ص٨٥.

بأعمال الترجمة، فكان أكثر المترجمين منهم، فمن مشاهير المترجمين جورجيس بن بختيشوع وكان طبيباً ماهراً وعمل طبيباً للخليفة المنصور، ويوحنا بن البطريق الذي ترجم كتاب (الأصول) لإقليدس، ومحمد بن إبراهيم الفزاري الذي تجم كتاب (السند هند) في علم الفلك من الهندية إلى العربية، وحنين بن إسحاق وابنه إسحاق، وثابت بن قرّة وغيرهم[١].

أمّا أهم الكتب التي ترجمت إلى اللغة العربية، سواء من اليونانية أو السريانية أو الفارسية أو الهندية فمنها:

أ- في الطب: ترجم كتاب (السموم) لأبقراط عن اللغة اليونانية، وكتاب (الحشائش والأعشاب لديسقوريدس[٢]، وكان لهذا الكتاب أهمية كبيرة في تطوّر علم الصيدلة عند العرب.

ب- في الرياضيات: كان كتاب (الأصول أو الأركان) في طليعة الكتب المترجمة عن اللغة اليويانية وترجم عدّة مرّات، وأشهر مترجميه هو حنين بن إسحاق[٣] وابنه، وترجمت رسائل فيثاغورس في الهندسة، وكتاب (المدخل إلى علم العدد) لنيقوماخوس الجرشي عن اليونانيّة أيضاً.

ج- في الفلك: ترجم عن اليونانية كتاب (المجسطي) لبطليموس[٤]، ويتناول معلومات جغرافية وفلكية، وترجمت لبطليموس (المقالات الأربع)، و(الكواكب الثابتة)، وترجم عن الهندية كتاب (السند هند)، حيث ترجمه محمد بن إبراهيم الفزاري بطلب من الخليفة المنصور.

د- في الفلسفة: ترجمت الكثير من الكتب عن اليونانية منها كتاب (الجمهورية)

---

(١) محمد مطيع الحافظ: تاريخ العلوم عند العرب، ص٢٨-٣٣ علي شلق: العقل العلمي، ص٤١-٤٥.

(٢) ابن النديم: الفهرست، ص٤٠٧-٤٠٨.

(٣) ابن النديم: الفهرست، ص٤٠٩-٤١٠.

(٤) ابن النديم: الفهرست، ص٣٧٤-٣٧٥.

لأفلاطون، وكتابيّ (السياسة)، و(المقولات) لأرسطو.

هـ-في الطبيعيّات: ترجمت كتب أرسطو عن اليونانيّة وهي (الحيوان)، و(النبات)، و(المعادن)، وكتاب (المناظر) لبطليموس الذي يتحدّث فيه عن الضّوء، والرؤيا، وكتاب (الحيل الروحانية) لهيرون.

الفلسفة

الفلسفة مشتقّة من اللفظ اليوناني فيلا سوفيا، ومعناها محبّة الحكمة، والفيلسوف محبّ الحكمة، ومعنى الفلسفة علم حقائق الأشياء، والعمل بما هو أصلح[1]، وهي فرع من العلوم العقلية التي تسمّى علوم الأوائل[2].

تعتبر الفلسفة من مميّزات الثقافة اليونانية التي انتشرت في بلاد الشرق منذ فتوح الإسكندر الأكبر، واستمرّت بعد ذلك إثر الاجتياح الروماني للمنطقة، فظهر في الإسكندرية المذهب الفلسفي المعروف بالأفلاطونية الحديثة[3]، خاصة بعد أن استقرّ عدد من فلاسفة اليونان في القرن السادس الميلادي في جند يسابور، حيث نشأت فيها مدرسة أسّسها سابور الأول واشتهرت بتعليم الطب والفلك والفلسفة، وصار لها دور بارز في العصر الإسلامي، فقد هاجر إليها عدد من الفلاسفة الذين هربوا بعد أن أغلق جستنيان مدارسهم في أثينا سنة (٥٢٩م).

وأخذ كثير من المسلمين بالاطّلاع على الفلسفة اليونانية، وحاول بعض مفكّريهم الاستفادة من أساليب فلاسفة اليونان في الجدل والمنطق للردّ على مجادليهم من

---

(١) الخوارزمي: مفاتيح العلوم، ص٧٩ ابن خلدون: العبر، جـ١، ص٤٧٨.

(٢) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، ص١١٣.

(٣) تنسب هذه الفلسفة إلى أفلاطون (ت٢٧٠م)، وقد ولد في أسيوط بمصر وتوفي فيها، وكان صاحب اهتمامات فلسفية فألّف عدداً من الكتب في الفلسفة وأقام مذهباً عرف بالمذهب السكندري وكان يميل إلى البحث والتفكير العقلي ثمّ أخذ يناصر الوثنية ويقاوم المسيحية، ثم اتّجه إلى السحر والغيبيات والتنجيم (انظر عطية القوصي: الحضارة الإسلامية، ص١٩٨).

اليهود والنصارى، أو في تفسير بعض آيات القرآن الكريم فأدّى ذلك إلى ظهور علم الكلام الذي استخدم للدفاع عن الإسلام بالجدل والعقل والمنطق(١).

كانت المعتزلة من أبرز الفرق الكلامية التي اعتمدت على العقل في المسائل الدينية خاصة ما يرتبط بصفات الله تعالى، وخلق القرآن، وكان فلاسفة المسلمين قد تأثّروا تأثّراً كبيراً بالفلسفة اليونانية، فعكفوا على دراسة كتب سقراط وأفلاطون وأرسطو، وتناولوها بالشرح والنقد والمقارنة البناءة.

لقد ارتبطت دراسة الفلسفة عند المسلمين بحركة الترجمة لأنّ معظم الكتب الفلسفية كانت بلغات غير عربية خاصة اللغة اللاتينية، لذلك كانت الدراسات الفلسفية قبل العصر العباسي قليلة جداً، لأنّ حركة الترجمة كانت محدودة، فلمّا تطوّرت أعمال الترجمة تطور معها الفكر الفلسفي، وقام الفلاسفة المسلمون بدراسات كثيرة، فقاموا بإدخال الفلسفة في شرح الدين الإسلامي والتوفيق بين العلم والدين، ومناقشة مسائل هامة مثل خلق العالم والخير والشر والنفس الإنسانيّة.

ومن مشاهير فلسفة المسلمين:

١- أبو يوسف يعقوب الكندي: ويلقّب (بفيلسوف العرب) وكان مقرّباً من المأمون والمعتصم، حاول بفلسفته أن يوفّق بين آراء أرسطو وأفلاطون، وكان متأثّراً بفلسفة المعتزلة وفلسفة اليونان خاصة أرسطو، وكان عالماً بالطب والحساب والمنطق والهندسة والنجوم، وله مجموعة من المؤلّفات، إلاّ أنّ أكثرها تمّت مصادرته بعد اتّهامه بتأويل الدين وفق الفلسفة(٢).

٢- أبو نصر محمد بن طرخان الفارابي(٣): تنقّل بين أمّهات المدن الإسلاميّة ثمّ قصد بلاد سيف الدولة الحمداني، وانكبّ على دراسة الفلسفة والمنطق والرياضة والطب والموسيقى، وهو أوّل فيلسوف في الإسلام نظر إلى الفلسفة نظرة شاملة،

---

(١) سعيد عاشور: تاريخ الحضارة العربية، ص٩٤.
(٢) انظر ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، ص٢٨٥.
(٣) ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ٥، ص١٥٣-١٥٧ ابن النديم: الفهرست، ص٣٦٨.

وكانت فلسفته تعتمد على ثلاثة جوانب رئيسية هي، الفلسفة اليونانية وتعاليم الإسلام والعقل، تأثّر الفارابي بالفلسفة اليونانية وترك كتاباً سمّاه (آراء أهل المدينة الفاضلة)، تناول فيه صفات المجتمع المثالي، وكان يلقّب بالمعلّم الثاني تمييزاً له عن أرسطو الذي لقّب (بالمعلّم الأول) كما لقّب بفيلسوف الإسلام.

٣- ابن طفيل القيسي: اشتغل بالطب والفلسفة والفلك، وعاش في عصر الموحّدين، وله مجموعة من الكتب أهمّها (حي بن يقظان)، وهي قصة جميلة يعرض فيها حياة رجل يعيش مع الحيوانات في الغابة منذ صغره وترضعه ضبية، ثمّ يهتدي بقوة عقله إلى معرفة الله تعالى[١].

٤- أبو حامد محمد بن أحمد الغزالي[٢]: ولد ونشأ في خراسان، ثمّ سافر في البلاد وقصد بغداد لطلب العلم والفلسفة، وبدأ دراسة الفلسفة، فقد اعتبرها الطريق للوصول إلى المعرفة العلمية، تولّى التدريس في المدرسة النظامية ببغداد، فبلغ أوج مجده العلمي خلال هذه الفترة، فكان يحضر دروسه العلمية أكابر العلماء في بغداد ومن يفد عليها، واستمرّ بالتدريس فيها فيما بين عامي (٤٨٤-٤٨٨هـ/ ١٠٩٠-١٠٩٤م)، ثمّ انقطع عن التدريس واتجه للزهد، وعاش في فترة كثر فيها الفلاسفة خاصة من ناهضوا علماء الدين فتصدّى لهم وأخذ يبحث عن الحقيقة، حتى تبين له أن الفلاسفة على ضلال، فحمل عليهم حملة شعواء بالتأليف والمجادلة والمناظرة حتى سمي (حجة الإسلام)، وألّف كتاباً أطلق عليه اسم (تهافت الفلاسفة).

وله ثروة هائلة من الكتب العلمية في مجالات متعددة في الفقه والفلسفة وغيرها، منها كتابه الشهير (إحياء علوم الدين)، وكتاب (الوسيط) و(البسيط) و(الوجيز) و(المنقذ من الضلال) و(فضائح الباطنيّة) و(مشكاة الأنوار).

---

(١) أبن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، ص٧٨ عبد المنعم ماجد: تاريخ الحضارة الإسلامية، ص٢١٧-٢١٨.

(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ٤، ص٢١٦-٢١٩ محمد القصري: مظاهر الثقافة الإسلامية، ص١٤٧-١٥١.

العلوم الطبيعية

يرى ابن خلدون أن علم الطبيعة هو العلم الذي يبحث عن الجسم من جهة ما يلحقه من الحركة والسكون، فينظر في الأجسام السماوية والعنصرية وما يتولد عنها من إنسان وحيوان ونبات ومعادن، وما يتكون في الأرض من عيون وزلازل، وما في الجو من ظواهر كالسحاب والرعد والبرق وغير ذلك، وفي حركة الأجسام على تنوعها[١]، ويعرف علم الطبيعة باسم الفيزياء.

كان علم الطبيعة معروفاً عند الأقدمين خاصة علماء اليونان الذين وضعوا كثيراً من مبادئه الأولية، ولهم مؤلفات عديدة ترجمها علماء المسلمين فأفادوا منها وصححوا كثيراً من الأخطاء التي وجدوها عندهم، وألّف المسلمون مؤلفات كثيرة في الفيزياء، إلا أن كثيراً منها لم يصل إلينا وقد ترجم كثير منها إلى اللاتينية وأهملت أسماء مؤلفيها من المسلمين فنسبها الأوروبيون إلى أسماء أوروبية وشملت أعمال المسلمين في هذا المجال ما يلي:

١- في الضوء (البصريات): صحح المسلمون المفاهيم الخاطئة التي كانت عند الإغريق فكان علماء الإغريق يظنون أن الرؤية تتم بانطلاق النور من العين إلى الجسم المرئي، وجاء الحسن بن الهيثم ليثبت عكس ذلك، فأورد في كتابه (المناظر) أن النور ينطلق من الجسم المرئي إلى العين لتتم الرؤيا، وأن العين جهاز استقبال للضوء لا جهاز إرسال، وبحث العرب في انعكاس الضوء وانكساره، فتعرفوا إلى قوس قزح، وهو انعكاس الضوء الأبيض في طبقة الغيوم إلى ألوان الضوء السبعة (أحمر، أصفر، أخضر، أزرق، برتقالي، بنفسجي، ليلكي).

وتحدّث ابن الهيثم عن تشريح العين، واشار إلى أقسامها ووظيفة كل قسم منها، وهي البياض (الشحمة البيضاء)، والحدقة (العينية) والبؤبؤ (إنسان العين) والقرنية التي تغطّي مقدّمة الحدقة.

---

(١) ابن خلدون: العبر، جـ١، ص٤٩٢.

٢- الثقل النوعي: فقد بحث العرب في الوزن النوعي للأجسام، وكان سند بن علي في عهد المأمون هو أول من بحث في الوزن النوعي، وناسب بين اوزان الأجسام المختلفة ووزن الماء، وقام البيروني باستخراج الوزن النوعي لكثير من الأجسام الصلبة والسائلة، واستخدم لذلك ميزاناً خاصاً سماه الميزان الطبيعي، كما توصّل عبد الرحمن الخازن لقياس الوزن النوعي للمواد السائلة.

٣- علل العرب أسباب خروج الماء من العيون الطبيعية والآبار الارتوازيّة بنظريّة الأواني المستطرقة.

٤- عرّفوا الجاذبية وتمكنوا من قياس الضغط الجوي.

٥- استخدموا الغرفة المظلمة (آلة التصوير) وأجروا بحوثاً في العدسات والمرايا المحرقة.

٦- علّلوا صدى الصوت بأنّه يحدث نتيجة انعكاس الموجات الصوتيّة عند اصطدامها بحاجز مثل جبل أو حائط.

يعدّ الحسن بن الهيثم(١)، أشهر علماء الطبيعة، وقد ولد ونشأ في البصرة وكان يميل إلى الفلسفة، واستدعاه الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله إلى مصر لبناء سد على نهر النيل بعد أن سمع بقوله (لو كنت في مصر لعملت بنيلها عملاً يحصل منه النفع)، ولمّا أجرى دراساته على مجرى النهر وأدرك عجزه عن تنفيذ السد، عاد إلى الحاكم معتذراً فقبل اعتذاره.

بحث ابن الهيثم في المرايا وأنواعها، وفي أهمية المرايا المحرقة في تجميع أشعة الشمس وعكسها مركّزة على الحصون والقلاع لإحراقها، وصحّح نظرية الأبصار التي قال بها اليونان، وله بحوث في امتزاج الألوان، وتفسير قوس قزح والفجر والشفق، وألّف العديد من الكتب منها كتاب (المناظر) الذي تناول فيه علم البصريات وأبحاث الضوء.

---

(١) انظر ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، ص٩٠-٩٨ ابن القفطي: أخبار الحكماء، ص١٦٥-١٦٨.

وكان البيروني من أكابر علماء الطبيعة، فهو الذي حدّد الثقل النوعي لعدد من المعادن والأحجار الكريمة، وله كتاب مشهور هو (الآثار الباقية عن القرون الخالية).

الميكانيكا

وعرف أيضاً بعلم الحِيَل أو علم الآلات، وانصبّ اهتمام المسلمين في هذا المجال على اختراع آلات الرفع والجرّ ووزن الثقل، فاستفادوا من منجزات اليونان، وأضافوا إلى هذا العلم إضافات كثيرة، فقسّموه إلى قسمين[1]:

الأول: يبحث في جرّ الأثقال الكبيرة بقوة يسيرة.

والثاني: يهتمّ بآلات الحركة وصنع الأواني العجيبة.

وبرز عدد كبير من العلماء الذين انصبّ اهتمامهم على هذا العلم، منهم (أبناء موسى بن شاكر / محمد وأحمد وحسن)، حيث وضعوا كتاباً في أصول الميكانيكا يحتوي على مائة تركيب ميكانيكي، ووضعوا خلاصة خبراتهم فيما عرف باسم (كتاب الحيل)[2].

وعلماء المسلمين هم أوّل من استخدم الرقّاص (البندول) الذي ينسب اختراعه إلى عبد الرحمن بن يونس المصري، واستعمله الفلكيون لحساب الفترات الزمنية أثناء رصد النجوم، كما أنّ العرب هم الذين اخترعوا الساعة الدقّاقة التي أرسلها هارون الرشيد إلى شارلمان، وهي ساعة مائية تدقّ كل ساعة بسقوط كراتها النحاسيّة مع قرص معدني، وبرع العرب في صناعة القبّانات والموازين الدقيقة لوزن العملة والمعادن الثمينة، وقاموا بصناعة الساعات الشمسيّة وتمكّنوا من تحديد موقع الشمس في كل حين.

---

(١) ابن خلدون: العبر، جـ١، ص٤٨٦-٤٨٧ سعيد عاشور: تاريخ الحضارة العربية، ص١٠٩.

(٢) ابن النديم: الفهرست، ص٣٧٨-٣٧٩.

الفصل الحادي عشر

المظهر العمراني للحضارة العربية الإسلاميّة

أ- العمارة:

- المدن الإسلاميّة.
- المساجد الإسلاميّة.
- القصور الإسلاميّة.

ب- الفنون الإسلاميّة:

- فن الخط العربي.
- الرقش العربي.
- فن صناعة الزجاج
- فن صناعة الخزف.
- فن التعدين.

أ- العمارة

كان لامتداد العرب خارج حدود الجزيرة العربيّة وانتصارهم على دولتيّ الفرس والروم واختلاطهم بشعوب البلاد المفتوحة واطّلاعهم على فنونهم المعمارية وجمعهم للثروة، أثر في تقليد هذه الشعوب في عمارتهم، فبنوا المدن والقصور والدور والمساجد، وكان لتعاليم الإسلام أثر في هذا الإنتاج الجديد، فأدخلوا عليه الكثير من التطوّر، بحيث أصبح يتلاءم مع تعاليم دينهم، وظهر فنّ معماري إسلامي بصورة جديدة وهو فنّ متميّز.

وكان الاهتمام بالمدينة الإسلاميّة بدأ يظهر منذ الهجرة النبوية سنة ٦٢٢م، حيث أخذت معالم المدينة القديمة (يثرب) تتغيّر بحيث تناسب التطوّرات الناتجة عن وجود مجتمع إسلامي فيها، فأقيم المسجد الجامع ليكون مركزاً سياسياً وإدارياً، إضافة إلى وظيفته الدينية، ثمّ أنشئت حوله مساكن المهاجرين، وأقطع الرسول ﷺ القطائع للنّاس، وجمع بين ذوي القربى في موضع واحد، فتضمّنت المدينة عدّة خطط يسكن كل خطة منها أفراداً ينتمون إلى أسرة واحدة، وتكرّر إقطاع الخطط على هذا الأساس عند بناء المدن الإسلاميّة في العصور التالية.

لقد شهد العالم الإسلامي ازدهاراً كبيراً في فنّ العمارة نتيجة الثراء الواسع الناتج عن الفتوحات الإسلاميّة من جهة، والهيمنة على التجارة العالمية من جهة أخرى، وتنوّعت العمارة الإسلامية، فشملت منشآت دينية كالمساجد والزوايا، ومنشآت عسكرية كالمدن والقلاع والحصون والأبراج، ومنشآت اجتماعية كالتكايا والبيمارستانات والسبل، ومنشآت سكنية كالقصور والبيوت(١).

وظهرت على المنشآت الإسلاميّة خصائص مميّزة كالعقود والأعمدة والأقواس، والمقرنصات والقباب والمآذن والمشربيّات المزخرفة في البيوت، فاتّخذ الفنّ

---

(١) روم لاندو: الإسلام والعرب، ص٣٢٣-٣٢٤ محمود إسماعيل: تاريخ الحضارة العربية، ص٢٠٢.

الإسلامي في العمارة تيجاناً وعقوداً مدبّبة وروابط خشبيّة، وظهر ما يُعرف بعلم عقود الأبنية عند المسلمين[1]، وأصبحت أقواس (حذوة الفرس) تدلّ على الفنّ المعماري الإسلامي.

كما كانت المقرنصات من أبرز خصائص الفنّ الإسلامي، والمقرنصات هي الأجزاء المتدلية من السّقف، ويذكر عبد المنعم ماجد أنّها ربّما جاءت من اللفظ اليوناني كورنثي ثم حرّفت إلى مقرنص، أو من اللفظ العربي (مقرنص) أي يجلس القرفصاء[2] Carnith وهو الأولى.

المدن الإسلاميّة:

احتاج المسلمون إلى بناء مدن جديدة بعد اتّساع حركات التحرير والفتح العربي الإسلامي، وبدأ بناء المدن التي اتّخذت طابعاً عسكرياً، فبنيت أول المدن لتكون معسكرات للجيش، ثمّ نقل إليها الجنود أهلهم وذويهم، وبنوا لهم المساكن حول هذه المعسكرات، فتطوّرت المدن بصورة متدرّجة، وبعض المدن بنيت لتكون عواصم أو مراكز للولايات، فيمكن إعادة أسباب بناء المدن عند المسلمين إلى العوامل التالية:

١- العامل العسكري: فبدأت أكثر المدن معسكرات خاصة بالجيش مثل البصرة والكوفة[3] والفسطاط والقيروان.

٢- العامل الإداري: فبعض المدن بنيت لتكون مقرّاً للإدارة الإسلاميّة، فالحجاج بن يوسف لم يعجبه اتّخاذ البصرة أو الكوفة مقرّاً لإدارته، فشرع في بناء مدينة واسط بعد أن استشار الخليفة عبد الملك بن مروان لتكون مقرّاً لإدارته[4].

---

(١) حاجي خليفة: كشف الظنون، جـ١، ص١٢ عبد المنعم ماجد: تاريخ الحضارة الإسلاميّة، ص٢٥٨.

(٢) عبد المنعم ماجد: تاريخ الحضارة الإسلامية، ص٢٥٨.

(٣) عيسى سلمان حميد: تخطيط المدن / حضارة العراق، جـ٩، ص١٤.

(٤) ابن حوقل: صورة الأرض، ص٣٢٩ عيسى حميد: تخطيط المدن، ص٢٠.

٣- العامل السياسي: فقد نشأت بعض المدن لاعتبارات سياسية، فقيام دولة بني العبّاس استدعى بناء مدينة جديدة لتكون عاصمة لهم، فبنى أبو جعفر المنصور مدينة بغداد سنة ١٤٥هـ/ ٧٦٣م[١]، وقام جوهر الصقلي ببناء مدينة القاهرة لتكون عاصمة للدولة الفاطمية في مصر، فانتقل إليها الخليفة المعزّ لدين الله سنة ٣٦٢هـ/ ٩٧٢م.

٤- العامل الديني: فأقيمت مدن في العراق نتيجة لاعتبارات دينية، مثل مدينة النجف التي نشأت بسبب وجود ضريح الإمام علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه، وكان مشهد ابنه الحسين سبباً في بناء مدينة كربلاء.

وعند بناء المدن، كان المسلمون يأخذون بعين الاعتبار توفّر مجموعة من الشروط في مكان بنائها، ومن ذلك:

أ- توفّر المياه.

ب- أن تكون ذات مناخ مناسب وطيّبة الهواء.

ج- الموقع الإستراتيجي وحصانة المنطقة.

د- سهولة المواصلات سواء عن طريق البرّ أو عن طريق البحر.

كما راعى المسلمون في تخطيط المدن وجود عناصر ضرورية لا تقوم المدينة الإسلاميّة بغيرها، فأصبحت هذه العناصر تميّز المدينة الإسلاميّة على غيرها من المدن، ومن هذه العناصر المسجد الذي كان يتوسّط المدينة[٢]، وحوله قصر الإمارة (مقرّ الحاكم) ودواوين الدولة الإسلاميّة (الدوائر الرسميّة).

وقريباً من المركز وعلى جوانب الشوارع التي تنطلق من المراكز كانت تقام عادة المحال التجارية والأسواق وهي مركز النشاط الاقتصادي للمدينة، كما كانت تقام في هذه الأسواق القيساريات التي تبنى لإقامة المسافرين والغرباء، وكان يراعى أن تقام المؤسسات الاجتماعية كالحمّامات بحيث تكون قريبة من التجمعات السكانية، فهي

---

(١) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، جـ١، ص٨٧.

(٢) عيسى حميد: تخطيط المدن، ص١٢.

لا تبعد كثيراً عن المساجد الجامعة والأسواق العامة.

أمّا المنازل والبيوت فكانت تقام في الأحياء والحارات التي تحمل أسماء القبائل والأسر التي تقيم فيها، حيث كان يسكن أبناء كل أسرة في بيوت متجاورة من هذه الأحياء، وكل مدينة كانت تحاط بسور حصين تقام عليه مجموعة من الأبراج لكي يسهل الدفاع عن المدينة في حال تعرّضها للخطر، ويشتمل السور على عدد من الأبواب تسهّل اتّصال المدينة بالخارج.

وحول الأسوار وقريباً من أبواب المدينة كان المسلمون يخصّصون أماكن لتكون مقابر لدفن الموتى، أطلق عليها اسم (التّرب).

كانت البصرة أقدم المدن التي بناها المسلمون في العراق عند ملتقى دجلة والفرات وذلك سنة ١٤هـ/ ٦٣٥م، حيث كتب عتبة بن غزوان إلى عمر بن الخطاب يستأذنه في تمصير البصرة، وقال له بأنّ المسلمين بحاجة إلى منزل يشتون به إذا شتوا ويكنسون فيه إذا انصرفوا من غزوهم[١]، فطلب منه عمر أن يختار مكاناً قريباً من الماء والمرعى، فبنى مسجد البصرة من القصب، وبنى دار الإمارة ومعسكرات الجيش.

وبعد انتصار المسلمين في معركة القادسية، وملاحقة جيوش الفرس إلى عاصمتهم ودخول مدينة طيسفون، مصّرت الكوفة، فكان أول ما اختطّه المسلمون فيها مسجدها وذلك سنة ١٧هـ/٦٣٨م، كما بنيت دار الإمارة، وجعلت خططها على أساس القبائل[٢]، فكان لكل قبيلة محلة خاصة سمّيت باسمها.

١ - بغداد:

يعتبر بناء مدينة بغداد نموذجاً فريداً لبناء المدن في الإسلام، فبعد أن انتقلت الخلافة من بني أميّة إلى بني العبّاس اتّخذ عبد الله بن محمد بن علي (السفّاح) مدينة

---

(١) البلاذري: فتوح البلدان، ص٢٥٤ ياقوت الحموي: معجم البلدان، جـ١، ص١٩٦.

(٢) اليعقوبي: البلدان، ص٧٤-٧٥، التاريخ، جـ٢، ص٤٧ عيسى حميد: تخطيط المدن، ص١٤.

الأنبار حاضرة لدولته الجديدة، ولكن مناخها لم يكن مناسباً فتحوّل إلى مدينة الهاشمية، وبقي فيها حتى توفّاه الله، وتولّى أبو جعفر المنصور الخلافة فقرر بناء مدينة جديدة تخلّد اسمه وتليق بمكانة الدولة العباسية بحيث تتميّز بمواصفات عسكرية وإدارية واقتصادية ومناخيّة.

ثم جمع المهندسين والعمّال[(١)]، وشرع في بناء مدينة بغداد (مدينة السلام) سنة ١٤٥هـ/ ٧٦٢م، وأتمّ بناءها سنة ١٤٦هـ/ ٧٦٣م، أو سنة ١٤٩هـ/ ٧٦٦م[(٢)]، فجاء بناؤها على نهر دجلة في موقع إستراتيجي ذو مناخ ممتاز.

أراد المنصور أن تتوفّر في مدينة بغداد كافة المستلزمات العسكرية الدفاعية، إضافة إلى التحصينات الطبيعية التي تجعل من الصعب على الأعداء اقتحامها فصمّمت على شكل مدينة دائرية يحيط بها سوران، الداخلي منهما أكثر سمكاً وأعلى ارتفاعاً[(٣)]، ويحتوي على أبراج دفاعيّة يتجاوز عددها المائة برج، ويطلّ السور الخارجي على خندق يحيط بالمدينة يشكّل خطّاً دفاعياً إضافياً.

واحتلّ قصر الخليفة والمسجد الجامع مركز المدينة، وكان القصر مربع الشكل طول ضلعه (٢٠٠) متراً تقريباً، شيّد بالجصّ والطابوق وسمّي بقصر القبة الخضراء نسبة إلى القبة الخضراء العالية التي تميّزه وهي ترتفع حوالي (٤٠) متراً عن سطح الأرض وعلى رأسها تمثال لفارس يمسك برمح ويدور مع الريح[(٤)]، كما سمّي بقصر باب الذهب أو قصر الذهب.

أمّا المسجد الجامع، فقد شيّد باللّبن والطّين وكان ملاصقاً للقصر من الجهة الشمالية الشرقية، وهو مربع الشكل طول ضلعه ١٠٠م، وقام هارون الرشيد سنة ١٩٢هـ/ ٨٠٨م بتوسيعه وإعادة بنائه بالجصّ والطابوق، ثمّ أضيف إليه جزء من

---

(١) اليعقوبي: البلدان، ص١١ الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، جـ١، ص٨٧.
(٢) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، جـ١، ص٨٧-٨٨.
(٣) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، جـ١، ص٩٣.
(٤) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، جـ١، ص٩٣.

القصر في خلافة المعتضد سنة ٢٦٠هـ/ ٨٧٤م، لأنّه ضاق بالمصلّين، وظلّ مستخدماً للصلاة حتى سقوط بغداد سنة ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م.

وأقيمت حول القصر والمسجد الجامع مجموعة من الأبنية بعضها كان منازل لأولاد المنصور، وبعضها الآخر استخدمت لدواوين الحكومة[١]، كما أقيمت الأسواق التجارية التي كانت تتّصل بمركز المدينة بشوارع مستقيمة وأقيمت البيوت السكنية حول هذه المؤسسات والأسواق.

٢- القاهرة

بعد أن فتح القائد الفاطمي جوهر الصقلي مصر في خلافة المعزّ لدين الله سنة ٣٥٨هـ/ ٩٦٩م لم يعجبه أن يتّخذ مدينة الفسطاط أو مدينة العسكر حاضرة لولايته، لأنّ أهل هاتين المدينين من المسلمين السنّة الذين يختلفون مع الفاطميين الشيعة في المذهب، لهذا بدأ بوضع أساس لمدينة جديدة هي مدينة القاهرة لتكون حاضرة لولايته وعاصمة جديدة للخلافة الفاطمية.

اختطّ جوهر المدينة وأحاطها بسور من اللّبن وحصنها لتكون قادرة على ردّ أي اعتداء أو خطر يتهدّدها من الخارج، وليتحصّن بها جنده في حال تعرّضهم لخطر القرامطة القادمين من الشام[٢]، أو خطر الروم الذين كانوا يفكّرون بالعودة إلى مصر وبلاد الشام.

بدأ جوهر ببناء قصر الخليفة المعزّ إلى الشمال من الفسطاط، وسمّي القصر الشرقي الكبير أو القصر المعزي، وبنى حوله دوراً للجند والموظفين، فكان القصر مركزاً للحكومة الفاطمية وبلاطاً للخليفة ومكاناً لسكناه، وكان قصراً هائلاً في ضخامته يشكّل مدينة لوحده، فذكر بعض المؤرّخين أنّه كان يحتوي على أربعة آلاف غرفة[٣]، استخدمت دوراً لدواوين الدولة ومعسكراً للجيش ودور السلاح، وبقايا

(١) اليعقوبي: البلدان، ص٢٢.

(٢) المقريزي: المواعظ والاعتبار، طبعة دار الكتب، جـ٢، ص٢٠٥.

(٣) حسن إبراهيم حسن: المعزّ لدين الله، ص٢١٨.

=

هذا القصر تعرف اليوم بخان الخليلي.

ويعتبر بناء الجامع الأزهر من أهمّ المباني التي أشادها الفاطميون في مدينة القاهرة في الجنوب الشرقي من المدينة ليكون مسجداً رسمياً لهم ومقرّاً للدعوة الإسماعيلية ورمزاً لسيادة الفاطميين الدينية، وأراد جوهر ألاّ يفاجئ المسلمين السنّة بإقامة شعائر المذهب الإسماعيلي الفاطمي في مساجدهم، ولكي يفسح المجال أمام الفاطميين لأداء شعائرهم الدينية بعيداً عن الاحتكاك بسكان البلاد حتى لا يؤدّي ذلك إلى إثارة مشاعرهم.

المساجد الإسلاميّة:

كان المسجد أوّل وأهمّ المباني التي أولاها المسلمون عنايتهم، فكان المسجد مركز الحياة السياسيّة والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والدينية ويمارس فيه المسلمون وظائفهم المختلفة، فيستقبلون الوفود، ويتدارسون شؤون حياتهم، ويجلسون فيه للقضاء، كما يجتمعون لاتخاذ قرار السلم أو الحرب، وهو فوق ذلك المكان الذي يؤدّي فيه المسلمون شعائرهم الدينية ويتعبّدون تقرّباً إلى الله تعالى.

وراعى المسلمون في بناء مساجدهم أن يكون فنّاً معمارياً مغايراً لفنّ معمار الكنائس عند النصارى والأديرة عند اليهود والمعابد الوثنية، فبنوها خالية من الرسوم والصور والتماثيل، واقتصر تزيينها على الآيات القرآنية الشريفة[1]، ورسوم النباتات والأشكال الهندسية.

وكان المسجد عند المسلمين يشتمل على مجموعة من العناصر، هي صحن المسجد الذي كانت تتمّ فيه الصلاة، والساحة الخارجية التي تتبع المسجد، والمحراب الذي يحدّد اتجاه الصلاة عند المسلمين، والمئذنة التي يعتليها المؤذّن للمناداة على المصلين (لرفع الأذان)، والمنبر الذي يقف عليه الخطيب لإلقاء خطبة الجمعة، أو التحدّث إلى المصلّين، بالإضافة إلى المقصورة التي استحدثت

(١) عطية القوصي: الحضارة الإسلاميّة، ص٢٨٦.

لأغراض متعدّدة، منها حماية الخليفة من أي اعتداء، أو جلوس الإمام وخلوّه إلى بعض الأعوان أو المستشارين للتباحث في الشؤون الدينية.

١- جامع بني أميّة:

بني في خلافة الوليد بن عبد الملك (الوليد الأول) سنة ٨٧هـ/ ٧٠٦م، وهو من أحسن المساجد المعروفة في الإسلام بناءً وزخرفةً، وقد جمع الوليد لبنائه أمهر الصنّاع والمهندسين في العالم من فارس والهند وبلاد الروم والمغرب، وأنفق على عمارته خراج الشام سبع سنين[١].

أقيم المسجد على أنقاض معبد وثني قديم في مدينة دمشق، كان قد تحوّل إلى كنيسة في الفترة البيزنطية، ثمّ أقيم المسجد مكانها، وعوّض المسلمون النصارى بدلاً منها[٢].

اتّخذ البناء الشكل المستطيل بأطوال ١٥٦ × ٩٦ متراً، وكان له أربعة أبواب هي باب البريد في الجهة الغربية، وباب الفراديس (الناطفيين) في الجهة الشمالية، وباب جيرون في الشرق، وباب الساعات (الزيادة) في الجهة القبيلة[٣].

كان المسجد من الداخل مزيّن بأعمدة من الرخام والمرمر والكتابات العربية، وله نوافذ من الزجاج الملوّن، كما اشتملت جدران الأروقة في الساحة الخارجية على لوحات فنية مزخرفة بالفسيفساء الملوّنة، تمثّل أشجاراً وأنهاراً وبيوتاً وأشكالاً هندسية، فجاءت مثالاً للروعة والجمال[٤].

وبنيت للجامع مئذنة في عهد الوليد الأول هي مئذنة العروس التي كانت تتوسّط الرواق الشمالي، لكنّها تهدّمت وأعيد بناؤها في العهد الفاطمي سنة ٣٧٥هـ/ ٩٨٥م.

---

(١) ابن حوقل: صورة الأرض، ص١٦١ المقدسي: أحسن التقاسيم، ص٨٥.

(٢) ابن حوقل: صورة الأرض، ص١٦١ قدامة بن جعفر: الخراج، ص٢٩٤-٢٩٥.

(٣) سمّي باب الساعات لأنّه عمل هناك بركار الساعات لتحديد الوقت، واشتمل على عصافير وحيّة وغراب من النحاس، فكان كلما انتهت ساعة من النهار خرجت الحيّة فصفرت العصافير وصاح الغراب، وسقطت حصاة في الطشت التي أسفلها (انظر ابن عساكر: تاريخ دمشق، جـ٢، ص٢٤٧).

(٤) ابن حوقل: صورة الأرض، ص١٦١ المقدسي: أحسن التقاسيم، ص١٩٥.

٢- مسجد قبّة الصخرة المشرّفة

وهو أوّل بناء وصلتنا أخباره من فنون العمارة الإسلاميّة، إذ يعود بناؤه إلى سنة ٧٢هـ/ ٦٩١م في خلافة عبد الملك بن مروان، في مدينة بيت المقدس.

لقد أقيم البناء حول الصخرة التي نسب إليها المسجد والقبّة التي تتوسّطه، وهي عبارة عن حجر كبير موجود في الحرم القدسي الشريف، أبعاده ١٨ × ١٣ متراً تقريباً وارتفاع قامة الرجل، وتأتي أهميتها من أنّ هذه الصخرة هي المكان الذي وطأه المصطفى ﷺ عندما عرج به إلى السماء.

ويذكر بعض المؤرّخين أنّ عبد الملك بن مروان أراد أن يستفيد من المكانة الدينية لبيت المقدس ووجود المسجد الأقصى أولى القبلتين في صراعه مع عبد الله بن الزبير، فعمد إلى بناء مسجد حول الصخرة المشرّفة قصد به أن يصرف نظر الحجاج مؤقتاً عن مكّة حتى لا يرغمهم ابن الزبير على ترك طاعة عبد الملك[١]، هذا إضافة إلى أنّ بناء المساجد يعتبر قربة إلى الله تعالى، وتوفير مكان مناسب يؤدّي فيه المسلمون شعائرهم ويتعبّدون لله عزّ وجل، وهذا هو السبب الرئيسي لبناء مسجد مع أهميّة وقدسيّة المكان الذي أقيم فيه البناء، أمّا السبب الأول الذي يذكره بعض المؤرّخين فعائد إلى تزامن إقامة البناء مع الصراع الذي حدث بين عبد الملك بن مروان وعبد الله بن الزبير.

بني مسجد قبّة الصخرة على شكل ثماني منتظم[٢] من الحجارة، طول ضلعه ٢٠,٦٠ متراً، وارتفاعه ٩,٥٠ متراً، ويتوسّط البناء حول الصخرة دائرة من أربع دعامات واثني عشر عموداً أُقيم فوقها عنق برميلي يحمل قبة عرفت بقبة المعراج أو قبّة الصخرة[٣]، وفيما بين هذه الدائرة الداخلية والمثمّن الخارجي للبناء أُقيم مثمّن آخر داخلي يتكوّن من ثمانية قواعد وستة عشر عموداً (عمودين بين كل قاعدتين)

---

(١) انظر نبيه عاقل: تاريخ خلافة بني أميّة، ص١٦١.

(٢) انظر: Creswell: Early Muslim Architecture, p.72-73.

(٣) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص١٦٩ الإدريسي: نزهة المشتاق، ص٣٦٠.

تربط بين الأقواس وظيفتها المساعدة في حمل السقف إضافة إلى وظيفة جمالية.

قام ببناء هذا المسجد مهندسون وعمّال من العرب والرّوم، وكان على رأسهم رجاء ابن حياة من مدينة القدس، حيث تمّ الاستفادة من الطراز البيزنطي في البناء، فامتزج فيها الذّوق العربي بالأسلوب الرّوحي[1].

٣- جامع قرطبة

يعود بناؤه إلى عهد عبد الرحمن الداخل الأموي سنة ١٦٩هـ/٧٨٦م، وهو من المباني التي أقامها المسلمون في الأندلس في مدينة قرطبة[2]، فبناه عبد الرحمن الداخل ليضاهي بأبّهته الجوامع التي بناها أسلافه في الشرق، كالجامع الأموي الكبير بدمشق، ومسجد قبّة الصخرة في القدس[3].

أقيم المسجد على منحدر في مدينة قرطبة يشرف على نهر الوادي الكبير، على شكل مستطيل طوله ١٨٠ متراً وعرضه ١٣٠ متراً، وبني من الحجارة الضخمة المنحوتة نحتاً جيداً، وسقفه من القرميد، ويتكوّن من خمسة أقسام رئيسية هي:

- قاعة الصلاة.
- المئذنة.
- المنبر.
- المحراب.
- الصحن.

وكانت قاعة الصلاة في جامع قرطبة من أجمل قاعات الصلاة في العالم، وتحتلّ ثلثي مساحة المسجد، وفيها ٨٥٠ عموداً مزدوجاً، أي أنّ كل عمود يتكوّن من عمودين متلاصقين، وتربط بينها الأقواس الحدوية والمفصّصة والمتقاطعة والمتراكبة

---

(١) وجدان علي: سلسلة التعريف بالفنّ الإسلامي، ص٢٨.
(٢) الإدريسي: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ص٥٧٥.
(٣) وجدان علي: سلسلة التعريف بالفنّ الإسلامي، ص١٨٢.

والمحمولة، ولها تيجان من الآثار القديمة التي بالأندلس وإفريقية، وقد استخدم المعمار الأندلسي براعته في هندستها وزخرفتها حتى جاءت في غاية الرّوعة والجمال.

وأطلق على صحن الجامع اسم (صحن البرتقال)، وجاء توسيع الصحن في عهد عبد الرحمن الثاني، حيث بنى إضافات جديدة على الصحن وأحاطه بالأروقة من الجهات الأربعة.

القصور:

١- قصير عمرة:

بناء أموي في الصحراء الأردنية إلى الغرب من الأزرق يعود تاريخ بنائه إلى عهد الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك سنة ٩٢هـ/ ٧١١م، ويتكوّن من قسمين هما[١]:

أ- قاعة الاستقبال.

ب- الحمّام

لقد صمّم هذا البناء على الرغم من صغر حجمه بهندسة جميلة رائعة، فكانت قاعة العرش، أكبر غرف القصر واستخدمت لاستقبال زوّار الخليفة أو الوفود المختلفة، وألحقت بها غرف جانبية صغيرة لتبديل الملابس، ولهذه القاعة سقف نصف أسطواني، أمّا الحمّام فيتكون من ثلاث غرف هي غرفة الحمّام البارد وتتّصل بغرفة أكبر حجماً ذات سقف جملوني هي غرفة الحمام الدافى، وهي بدورها تؤدّي إلى غرفة أخرى ذات مخطط بيضوي هي غرفة الحمام الساخن وترتفع فوقها قبّة معلّقة نصف كروية تزينها رسوم جميلة تمثّل الأبراج السماوية.

---

(١) انظر فواز طوقان: الحائر في العمارة الأموية في البادية، عمّان، ١٩٧٩م، ص١٢٩-١٣٥ صفوان التل: الآثار العربية والإسلامية في الأردن، ص٣٢-٣٤. =

تميّز قصير عمرة بالصور التي تغطي جدرانه الداخلية، وهي أقدم تصوير عربي إسلامي وهي الرسم بالألوان الزيتية أو المائية على الجدران ويعرف هذا النوع من الرسم باسم (الفريسكو)[1]، واشتملت الرسوم التي ملأت الجدران والسقف وقباب الحمّام على مواضيع متعدّدة، منها موضوع الصيّد حيث صور الكلاب السلوقية مع الصيادين، ومشاهد لصيد الخيول البرية والغزلان، ومشاهد للغناء والموسيقى والرقص والمصارعات الرياضية، ومناظر رمزية للشعر والتاريخ، وصورة الخليفة الوليد بن عبد الملك في صدر حنية العرش، وإلى يساره لوحة هامة جداً تعرف بلوحة أعداء الإسلام تمثّل رسوماً لستة ملوك من أعداء الإسلام الذين هزمهم المسلمون، وكتبت أسماؤهم فوق رؤوسهم باللغتين العربية واليونانية وهم[2]:

١- إمبراطور بيزنطة / هرقل.

٢- إمبراطور الصين.

٣- آخر ملوك القوط / روذريق.

٤- ملك الفرس / كسرى.

٥- ملك الحبشة / النجاشي

٦- أمير من أمراء الأتراك.

أمّا الرسوم الموجودة في غرف الحمّام، فهي تشتمل على رسوم للنباتات والأوراق، وصور للطيور والحيوانات والأشخاص خاصة النساء والأطفال، وهناك تواجد لرسومات من الأشكال الهندسية من أرضيّات بعض الغرف، تمّ تنفيذها بالفسيفساء الحجريّة الملوّنة.

٢- قصر المشتى:

بناء أموي يقع إلى الجنوب من مدينة عمّان وعلى بعد حوالي ٣٠ كم، ويعود بناؤه إلى عهد الوليد الثاني سنة ١٢٥هـ/٧٤٣م، وهو مبني من الحجارة الكلسية

(١) وجدان علي: سلسلة التعريف بالفن الإسلامي، ص٤٨.

(٢) لانكستر هاردنج: آثار الأردن، ص١٩٦-١٩٧ صفوان التل: الآثار العربية والإسلامية، ص٣٦-٣٧.

القاسية ومن الطوب المشوي، ويتكوّن البناء من الأقسام التالية:

- الأسوار والأبراج.
- مدخل القصر.
- قاعة العرش.
- المنازل السكنية
- المسجد

ويرى البعض أنّ هذا البناء يعود إلى أيّام الغساسنة أو إلى الساسانيين الذين حكموا المنطقة في القرن السادس وأوائل القرن السابع الميلادي، غير أنّ الأسلوب الفني لهذا البناء من الناحيتين المعمارية والزخرفية لا يتّفق مع هذا الرأي، وإنّما يطابق مخططات العمارة الأموية في بلاد الشام.

وقبيل قيام الحرب العالمية الأولى قام إمبراطور ألمانيا غليوم الثاني بزيارة إلى المنطقة، فقدّم له السلطان العثماني عبد الحميد الثاني واجهة القصر المزخرفة هدية، فنزعت عن جدار القصر ونقلت إلى برلين[١].

٣- قصر الحمراء

هي مدينة ملكيّة بناها بنو نصر على مشارف تلّة مطلّة على مدينة غرناطة، وكانت في الأصل قلعة تعود إلى القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي، استخدمت لأغراض عسكرية، وتشتمل قصور الحمراء على مجموعة من القصور والأبراج والممرّات والحدائق ذات البناء الجميل والهندسة الرائعة، إضافة إلى حمّام ومقبرة ملكيّة وأسوار تحيط بالمدينة تتخلّلها الأبراج الدفاعيّة لحماية المدينة من الأخطار[٢].

وتتميّز قصور الحمراء بموقعها بين الغابات الكثيفة الممتدّة على سفوح جبال سيرا

---

(١) لانكستر هاردنج: آثار الأردن، ص٢٠٦ فواز طوقان: الحائر، ص٧٢.

(٢) وجدان علي: سلسلة التعريف بالفن الإسلامي، ص١٩٤. =

نيفادا، المغطاة بالثلوج، وبالمناظر الطبيعية الأخّاذة التي تحيط بها، وقد استثمر المعماريون من مهندسين وفنانين ذلك كلّه في بناء وزخرفة قصور الحمراء حتى جاء بناؤها فريدة من فرائد هندسة البناء والفن مقرونة بجمال الطبيعة وسحرها الباهر.

واشتهرت الحمراء بساحاتها الخارجية الجميلة كساحة الآس (قمارش)، وهي ساحة فسيحة تمتدّ على جوانبها أشجار الريحان الشامي (الآس)، وأزهار النيلوفر والبرك وفوارات المياه وباحة الأسود (صحن السباع) التي تتوسّطها بركة من الماء يحيط بها اثني عشر أسداً من المرمر يخرج الماء من أفواهها إلى مجاري تحمله إلى فوارات أخرى للمياه داخل بعض قاعات القصر[١].

الفنون الإسلاميّة

لم يعرف المسلمون الأوائل الفنون لبساطتهم وانشغالهم بأمور الدين والجهاد، ولمّا اتّسعت الفتوحات الإسلاميّة واختلط العرب بغيرهم من الأمم والأجناس تعلّموا منهم الكثير من الفنون، إلاّ أنّ ذلك لا يخرج عمّا جاء به دينهم الإسلامي، وانصبّ اهتمامهم على فنّ العمارة والزخرفة دون الاهتمام بالتصوير والتجسيم لأنّهم اعتبروا ذلك تشبّهاً بعبدة الأوثان والأصنام[٢]، لذلك جاءت الفنون الإسلاميّة بحيث تتلاءم مع تعاليم الدين الإسلامي، إلاّ أنّ هذا لم يمنع الخروج أحياناً على تعاليم الإسلام، فكان فنّ المنمنمات الفارسية -وهو من أشهر الفنون الإسلامية- يمثّل خروجاً على التحريم الإسلامي للتصوير، وكانت المنمنمات تملأ بصور بشرية وأشجار وأزهار وحيوانات لغاية جمالية[٣]، فكان فنّاً إسلامياً متميّزاً عن غيره من الفنون العالمية، ومن عناصر الفن الإسلامي:

---

(١) ن.م: ص١٩٦.

(٢) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٦٤م، جـ١، ص٥١٤.

(٣) روم لاندو: الإسلام والعرب، ص٣٤٠-٣٤١ محمد محاسنة: أضواء، ص٢٨٠. =

١- فن الخط العربي:

اهتمّ المسلمون بالخط اهتماماً بالغاً، فجاء فنّاً عربياً خالصاً لم تدخل إليه التأثيرات الأجنبيّة، خاصة وأنّ اللغة العربية هي لغة القرآن الكريم، لذلك اهتمّ المسلمون بنشرها في البلاد المفتوحة مع نشر الإسلام، لأنّ طقوس العبادة وأداء الشعائر الإسلاميّة يحتاج إلى معرفة اللغة العربية، فتعلّمها أهل البلاد المفتوحة.

وكانت اللغة العربية تكتب بخطوط كثيرة، وأقدم أشكال الخط العربي هو الخط الكوفي نسبة إلى مدينة الكوفة في العراق، وكانوا يكتبون على ورق البردي وعلى الجلود إلى أن اكتشف الورق التي دخلت صناعته من الصين في القرن ٣هـ/٩م ممّا سهّل أعمال الكتابة، وتفنّن الكتّاب بزخرفة الخط العربي[١]، الذي جاء على عدّة أنواع منها[٢]:

١- الخط الكوفي: نسبة إلى مدينة الكوفة.
٢- الخط النسخي: وهو أكثر أنواع الخطوط استخداماً في الكتابة (خط الطومار).
٣- خط الثلث.
٤- الخط الفارسي.
٥- الخط الديواني
٦- خط الرقعة.
٧- خط الطغراء، وشاع استخدامه كثيراً عند السلاطين الأتراك (من زمن القانوني).

٢- الرقش العربي:

وهي مجموعة أشكال منتظمة ومتنوّعة استخدمها المسلمون لتزيين واجهات الأبنية من الداخل أو من الخارج، وقد تكون على غير الأبنية، فقد تكون تصويراً على السجاد أو على الأدوات والأواني المختلفة، وتتّصف بالتكرار والتناظر والحركية، وغالباً تصوّر أشكالاً مأخوذة من الطبيعة كالأزهار والأوراق والأغصان،

---

(١) وجدان علي: سلسلة التعريف بالفن الإسلامي (١)، ص١٣٦-١٣٧.
(٢) انظر عطية القوصي: الحضارة الإسلامية، ص٢٨٤.

أو أشكالاً هندسية كالدوائر والمربّعات والمثلثات وغيرها[١].

وكان الرقش أحياناً على شكل لوحات تتكوّن من حزام من الأشكال الهندسية يحيط بأشكال حيوانية ونباتية، وتكون هذه اللوحات مستقلة عن التصميم العمراني للبناء، ويتكوّن الرقش العربي من عنصرين هما:

أ- الرقش النباتي وأخذ شكله من كرمة العنب بأغصانها المتداخلة والملتوية بشكل متناسق وجميل، وتوجد نماذج فريدة منه في مسجد قبة الصخرة المشرفة وجامع بني أمية الكبير بدمشق[٢].

ب- الرقش بالأشكال الهندسية المتشابكة.

٣- فن صناعة الزجاج

فقد اشتهرت بلاد الشام ومصر بصناعة الزجاج منذ ما قبل الإسلام، فكان أهل الشام يصنعون الزجاج الشفّاف، وورث العرب والمسلمون هذه الصناعة وتفنّنوا في إتقانها حتى صارت صناعة الزجاج من أجود ما يصنع في العالم من الزجاج، وأصبح الزجاج الشامي مضرب المثل في صفائه ورقّته[٣].

وتقدّمت صناعة الزجاج في مصر تقدّماً كبيراً، فكان يصنع فيها زجاج شفّاف يشبه الزمرّد على درجة عالية من النّقاء، وطوّر الفاطميون صناعته فأدخلوا عليه فنّ الزخرفة بالكتابة والرسوم، وكان يموّه بالميناء، وهي مادة تشبه الزجاج، وصنع المسلمون الزجاج الملوّن الذي استخدم في نوافذ المساجد والبيوت في جامع بين أميّة ومسجد قبّة الصخرة والمسجد الجامع بقرطبة والجامع الأزهر بمدينة القاهرة.

واشتهرت بغداد بصناعة الزجاج على درجة عالية من الدقّة والجمال، فكانوا يرصّعون الزجاج بالجواهر ويكتبون عليها بالذهب المجسّم، ويصنعون للملوك أقداحاً تبهر الأنظار[٤].

---

(١) وجدان علي: سلسلة التعريف بالفن (١)، ص١٦.
(٢) ن.م: ص١٠٧.
(٣) الثعالبي: لطائف المعارف، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ص١٥٧.
(٤) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام، جـ٤، ص٣٩٧.

٤- فن صناعة الخزف:

عرف المسلمون صناعة الخزف وصنعت أدوات كثيرة من الفخار استخدمت في الحياة اليومية كالصحون والأباريق والجرار والمزهريات والقناني والقدور استخدم بعضها للطبخ وحفظ الطعام وبعضها للخزن[١].

وتطوّرت صناعة الخزف عند المسلمين عندما اكتشفوا تقنية جديدة لطلائه بطبقة تكسبه بريقاً معدنياً لامعاً أو بريقاً ذهبياً، وذلك عن طريق استخدام أكسيد المعادن على السطح الفخاري وحرقه في النار بدرجة حرارة معينة تؤدّي إلى إكساب القطعة الفخارية لمعاناً معدنياً برّاقاً، ثمّ تطوّرت الزخارف التي تحلى بها سطوح الأواني الزخرفية لتشمل الأشكال الحيوانية والآدمية[٢].

بدأت صناعة الخزف ذو البريف المعدني في بغداد، ثمّ في سامراء وقلّدهم الطولونيون في مصر، وراجت هذه الصناعة في مصر في العصر الفاطمي، ثمّ نقلت إلى بلاد الشام، فظهرت في دمشق أنواع من الخزف بأشكال متعدّدة ومزخرفة بأشرطة أفقية أو حلزونية من النباتات والكتابات الدعائية أو رسوم الطيور.

وكانت مدينة قاشان في إيران من أهمّ مراكز صناعة الخزف في العالم الإسلامي حتى أنّ اسمها صار يطلق على كلمة الخزف وبعض الأواني الخزفية، وصار الخزف القاشاني يصدّر إلى مناطق متعدّدة من العالم الإسلامي خاصة إلى بلاد العرب[٣]، التي قلّدت هذه الصناعة وبرعت فيها.

٥- فن التعدين:

أتقن العرب صناعة الأواني والأدوات المعدنية قبل الإسلام، ثمّ تعلّمها المسلمون ومارسوا صناعة التحف المعدنية، وعرف الإيرانيون صناعة المعادن مع

---

(١) محمد محاسنة: تاريخ دمشق، ص٢٠٤.

(٢) وجدان علي: سلسلة التعريف بالفن (١)، ص١١٠.

(٣) سعاد ماهر: الفنون الإسلامية، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، ١٩٨٦م، ص٣٢-٣٣.

تبنّي الأشكال والزخارف الإسلامية.

واشتهرت دمشق بالصناعات المعدنية لتوفير المواد الخام كالحديد والرصاص، واستوردوا الفولاذ من الهند وأرمينية لإقامة مصانع الفولاذ الدمشقي[١]، وصنعت في دمشق كافة أنواع الأسلحة من السيوف والسهام والرماح والخناجر والنصال الدمشقية، وكان يصدّر كثير منها إلى خارج بلاد الشام، كما كان الدماشقة يصنعون من الحديد والنحاس كل ما يلزم المجتمع من كؤوس وصحون وآنية وأدوات قاطعة والمصابيح والملاعق والمباخر والمزهريات[٢].

وكانت السيوف الدمشقية تصنع من الفولاذ وتطلى بالمينا حتى لا تصدأ، وكانت هذه الصناعة تتمّ وفق أسلوب خاص أطلق عليه الدمشقة، فكانت دمشق تفاخر بسيوفها المحلاة بماء الذهب، وكان الصياقلة يزيّنوها بما يكتبون عليها من الأشعار[٣].

واشتهرت العراق في العصور العباسية بسكب الأواني البرونزية والنحاسية المكفتة بقطع صغيرة من النحاس الأحمر، وكان التكفيت[٤] بقطع الفضة اللوزية الشكل من الفنون النادرة، وكان فنّ التكفيت للأواني المعدنية بالفضة والنحاس الأحمر آية في دقة الصنع والجمال، ثمّ أدخل فن التكفيت بالذهب ليزيد في جمال الصنع والزخرفة، فصنعت جرار وشمعدانات وأباريق ماء على شكل طيور، وزخرفوا هذه الأواني بالكتابات التي تمثّل آيات قرآنية أو مأثورات أو أدعية[٥].

---

(١) آدم متز: الحضارة العربية الإسلاميّة في القرن الرابع الهجري، جـ٢، ص٣٢٤.

(٢) كرد علي: خطط الشام، جـ٤، ص٢٣٦-٢٣٧ منير كيال: فنون وصناعات دمشقية، ص٣٦.

(٣) محمد محاسنة: تاريخ دمشق، ص٢٠٢-٢٠٣.

(٤) التكفيت: فن زخرفي يكون بزخرفة المعدن الأصلي الذي تصنع منه الأدوات المختلفة بمعدن أنفس وأثمن ومختلف في لونه عن المعدن الأصلي أي حفر رسوم وزخارف على سطوح المعادن المراد زخرفتها وتزيينها حفراً عميقاً، ثمّ تملأ الحفر بمعدن أغلى وذو لون مختلف (انظر سعاد ماهر: الفنون الإسلامية، ص١٤٢).

(٥) وجدان علي: سلسلة التعريف بالفن (١)، ص١١٨.

الفصل الثاني عشر

المظهر العمراني للحضارة العربية الإسلاميّة

- الحضارة اليونانيّة.
- الحضارة الهنديّة.
- الحضارة الفارسيّة.
- أثر الحضارة الإسلاميّة في الحضارات الأخرى.
- وسائل انتقال الحضارة العربية الإسلاميّة إلى أوروبا.

الحضارة اليونانيّة

تعتبر الحضارة اليونانيّة من أعرق الحضارات العالميّة القديمة، فقد نبغ اليونان في مجالات الفلسفة والعلوم والآداب والفنون، وبرز منهم علماء وأدباء كانوا من أساطين الفكر العالمي، أمثال سقراط وأفلاطون وأرسطو وغيرهم، وحمل اليونان حضارتهم إلى الشرق خلال فتوحات الإسكندر التي اجتاحت بلاد الشرق القديم[١]، فبعد توقف الحروب اليونانية في الشرق بدأ الاتصال والتبادل الثقافي بين الحضارة اليونانية والحضارات الشرقية، وقام علماء السريان بترجمة الكثير من علوم اليونان في الفلسفة والطب والرياضيات والفلك والجغرافيا إلى اللغة السريانية وعلّقوا وشرحوا بعضها، كما قاموا بإنشاء المدارس لتعليم هذه العلوم في المدن الكبرى مثل إنطاكية والرّها ونصيبين والإسكندرية وجند يسابور في إقليم خوزستان[٢].

فكانت جند يسابو، التي اتّخذت اسمها من اسم بانيها سابور الأول بن أردشير الساساني ملك فارس مركزاً من مراكز الثقافة اليونانيّة، حيث كان سابور يجمع فيها أسرى الروم، ثمّ أسّس فيها كسرى أنو شروان (٥٣١-٥٧٩م) مدرسة للطب، فاجتمع إليها الأطباء والأساتذة من الهنود واليونان والسريان الذين لجأوا إلى فارس، وتخرّج منها عدد كبير من العلماء والأطباء الذين أصبحوا من أشهر الأطباء في العصر الإسلامي مثل جرجيس بن يختيشوع الذي أصبح الطبيب الخاص للخليفة العباسي أبو جعفر المنصور[٣].

وكانت حرّان مركزاً علمياً هاماً، وكان أهلها من اليونان والسريان والأرمن والعرب، ورفض أكثرهم اعتناق النصرانية أو الدخول في الإسلام، وظلّوا على

---

(١) وليم الخازن: الحضارة العباسية، ص١٠٤.

(٢) أبو زيد الشلبي: تاريخ الحضارة الإسلامية، ص٦٩ ناجي معروف: أصالة الحضارة العربية، ص٤١١، ٤١٢.

(٣) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص١٨٣-١٨٤ عطية القوصي: الحضارة الإسلامية، ص٢٢٦-٢٢٧.

مذهب مزيج من الديانات القديمة وأصبحت حرّان مركزاً للعلوم الرياضية والطبية والهندسية والفلكية، ونبغ فيها عدد كبير من العلماء منهم ثابت بن قرّة الحرّانـي (ت٢٨٩هـ/ ٩٠١م) وابناه إبراهيم وهلال وأسرة هلال بن إبراهيم الصابي التي برز منها هلال بن المحسن بن إبراهيم (ت٤٤٨هـ/ ١٠٥٦م) المؤرّخ المشهور، وكان من علمائها أيضاً البتاني (ت٣١٨هـ/ ٩٢٩م) العالم المشهور برصد الكواكب والإنشاءات الهندسية[١]، وكان أهل حرّان وأكثرهم من السريان حلقة الوصل ما بين العرب واللغة اليونانية.

بدأ أوّل اتّصال للمسلمين بعلوم اليونان عندما أمر خالد بن يزيد بن معاوية بعض علماء اليونان في الإسكندرية بترجمة مجموعة أرسطو المنطقية إلى اللغة العربيّة، ثمّ أمر جماعة أخرى بنقل كتب الكيمياء من اليونانية أو القبطية إلى العربية[٢]، وترجمت أوّل موسوعة طبيّة عن اللغة اليونانية في خلافة عمر بن عبد العزيز على يد الطبيب المشهور ماسرجويه.

واتّسع اهتمام المسلمين بالترجمة في العصر العباسي، نتيجة ازدياد تشجيع الخلفاء لحركة النقل والترجمة إلى العربية، حيث أنشى بيت الحكمة ليكون مقرّاً لحركة الترجمة إلى اللغة العربية، وخصّصت الأموال للإنفاق على المترجمين، فكان المأمون يعطي كل مترجم وزن الكتاب الذي يترجمه ذهباً، بهدف إثارة قدرات المترجمين للإقبال على العمل بهمّة عالية.

وكانت أهم الكتب والمؤلّفات المترجمة عن اللغة اللاتينية والتي أفاد منها المسلمون، فقاموا بدراستها والاطّلاع عليها، فصحّحوا ما فيها من أخطاء أو أضافوا إليها، تشمل ما يلي:

١- في مجال الطب: نقلت كتب (الجراح)، و(السموم)، و(الكسر)، و(الأخلاط) وهي كتب أبقراط في الطب[٣]، وهو عميد الطب عند اليونان،

---

(١) وليم الخازن: الحضارة العباسية، ص١٠٥.

(٢) ابن النديم: الفهرست، ص٤٩٧.

(٣) ابن النديم: الفهرست، ص٤٠٠.

ويضرب به المثل في الطب ويقال بأنّه أبو الطب، وترجمت مجموعة من كتب جالينوس منها كتاب (التشريح)، وكتاب (الحميات)، وكتاب (تركيب الأدوية)، كما ترجم كتاب (الحشائش والأعشاب) لديسقوريدس[1].

٢- في الرياضيات: ترجم عن اليونانية كتب إقليدس (الأصول أو الأركان) في الهندسة، ورسائل فيثاغورس في الهندسة، وكتاب (المدخل إلى علم العدد) لنيقوماخوس الجرشي، وكتاب (المخروطيّات) لأبولونيوس.

٣- في الطبيعيّات: ترجم كتاب (المناظر) لبطليموس الذي يتحدّث فيه عن الضوء والرؤيا، وكتاب الحيل الروحانية لهيرون، وكتب الحيوان والنبات والمعادن لأرسطو.

٤- في الفلك ترجم كتاب (المجسطي) لبطليموس، وكتاب (المقالات الأربع) في صناعة النجوم.

٥- في الفلسفة: نقلت عن اليونانية كتب أفلاطون ومنها (الجمهورية)، وكتب أرسطو ومنها (البرهان)، و(السياسة)، و(المقولات).

الحضارة الهنديّة

كان للعرب علاقات تجارية مع الهند منذ العصر الجاهلي، فقد وصلت قوافلهم وسفنهم التجارية إلى الهند والصين شرقاً، ونقلوا بضائعهم إلى بلاد العرب أو حملوها إلى أوروبا.

وفي العصر الإسلامي بدأ الاتّصال بالحضارة الهندية مبكّراً، فقد بدأ في خلافة عثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب عندما بدأت جيوش المسلمين تفكّر بفتح مناطق في غرب الهند لنشر الإسلام، وتكلّلت محاولات المسلمين في خلافة الوليد

(١) ن.م: ص٤٠٨.

ابن عبد الملك وعلى يد قائده الكبير محمد بن القاسم الثقفي، ثمّ أتمّ هذا الدور السلطان محمود الغزنوي (٣٨٨-٤٢١هـ/٩٩٨-١٠٢٩م)، حيث تمكّن المسلمون خلال هاتين المرحلتين من نشر الإسلام في غرب الهند، ونشطت التجارة بين المسلمين والهند، وبدأ التفاعل والتمازج بين الحضارتين العربية الإسلاميّة والهندية، ومن مظاهر هذا التفاعل ما يلي:

١- ترجمة بعض الكتب الهندية إلى الفارسية، ثمّ إلى العربية، كما ترجمت بعض الكتب العربية إلى الهندية أيضاً.

٢- اقتباس اللغة الأوردية للأحرف العربية، فأصبحت تكتب بالأحرف العربية، واللغة الأوردية كانت مزيجاً من أفكار وألفاظ فارسية وتركية وسنسكريتية.

٣- تأثّر فنّ العمارة في كل من الحضارتين بما في الحضارة الأخرى، فتأثّر فنّ العمارة الإسلاميّة بطابع البيئة الهندي.

٤- نقل كثير من العلوم والمؤلّفات الهندية إلى اللغة العربية، فشمل ذلك الجوانب التالية:

أ- في الحساب: ترجم كتاب الفصول في الحساب الهندي إلى اللغة العربية في خلافة المنصور سنة ١٥٤هـ/ ٧٧٢م، فاطّلع العرب على حساب الهنود وأخذوا عنهم نظام الترقيم وهي الأرقام المعروفة اليوم إضافة إلى الصفر، فهذّب المسلمون هذه الأرقام، وكوّنوا منها مجموعتين رقميتين هما: الأرقام الغبارية، والأرقام الهندية[١] التي استخدمت في البلاد العربية.

ب- الفلك: نقل محمد بن إبراهيم الفزاري[٢]كتاب (السند هند) بطلب من الخليفة أبي جعفر المنصور فأفادوا منه معلومات كثيرة تتعلّق بالخسوف والكسوف والاعتدالين، واستخرج منه الفزاري زيجاً حول فيه جداول السنين الهندية الشمسية

(١) عطية القوصي: الحضارة الإسلامية، ص٢٥٠ محمد الحافظ: تاريخ العلوم، ص٩٨-٩٩ عبده الحلو: الوافي في تاريخ العلوم عند العرب، ص٢٨.

(٢) ابن النديم: الفهرست، ص١١٨.

إلى سنين قمرية[1]، كما أفادوا من المعارف الهندية في رصد مواقع بعض النجوم ودورانها.

ح- في الطب: كان للهنود معرفة ببعض الأمراض وعلاجها، وانتقالها بالعدوى، واستخدموا التنويم المغناطيسي في العلاج، فاطّلع العرب على هذه المعارف واستفادوا منها ونقلوا بعضها عنهم، وترجمت بعض الكتب الطبيّة منها كتاب (أسرار المواليد)، و(التوهّم في الأمراض والعلل)، و(علاجات النساء)، و(عقاقير الهند).

ذ- في الأدب: اهتمّ الهنود بالقصص الرمزي الذي يقدّم النصائح والحكم بطريقة جذّابة ومؤثّرة فنقل عنهم العرب كتاب (كليلة ودمنة) الذي نقل إلى الفارسيّة أولاً، ثمّ إلى العربيّة وقام بنقله عبد الله بن المقفّع[2].

الحضارة الفارسيّة

ارتبط العرب مع الفرس بعلاقات تجارية وسياسية إضافة إلى روابط الجوار التي كانت تربط بينهم، وكان بين العرب من يُعرف اللغة الفارسية، ومنهم من اطّلع على بعض معارفهم في الطبّ والآداب وغيرهما.

وبعد ظهور الإسلام وقيام حركات الفتح الإسلامي التي تحرّكت باتجاه الشرق أقبلت جماعات من الفرس على الدخول في الإسلام، وترتّب على ذلك حاجتهم إلى دراسة اللغة العربية، فأقبلوا عليها يدرسونها حتى برع في دراستها عدد كبير منهم، وظهر من بينهم أدباء وشعراء أسهموا في إثراء النشاط الفكري والأدبي[3]، وقلّدوا العرب في أشعارهم، فكانوا يمدحون ويتغزّلون ويهجون، وربّما لجأ بعضهم إلى التكسّب بالشعر أو استغلاله للحض على الثورة وتحريض النّاس ضد النظام

---

(١) عبده الحلو: الوافي في تاريخ العلوم عند العرب، ص٢٨.

(٢) ابن النديم: الفهرست، ص١٧٢، ٤٢٤.

(٣) أبو زيد شلبي: تاريخ الحضارة الإسلامية، ص٦٧-٦٨.

القائم.

ودخلت اللغة العربية بعض الألفاظ الفارسية حتى أنّ بعض الشعراء الكبار كجرير والفرزدق، وكان بعضهم يستبدلون أحرفاً بأحرف أخرى، فنجم عن ذلك ظهور اللكنة بين الموالي[١].

وقام عدد من العلماء والأدباء العرب بدراسة الآداب والعلوم الفارسية، وأفادوا منها إفادات كثيرة، فترجم كتاب الخداي نامة (سير ملوك العجم)، وكتاب الأدب الكبير والأدب الصغير إلى اللغة العربية، حيث قام بترجمتها عبد الله بن المقفع[٢]، كما ترجمت بعض كتب الحكم والنصائح والتاريخ إلى اللغة العربية أيضاً.

أما ديانة الفرس وهي الديانة الثانوية، فلم يأخذ العرب شيئاً من تعاليمها، لمخالفتها للإسلام الذي يقوم على أساس التوحيد الخالص لله عزّ وجل، إلاّ أن بعض الفرق الغالية استغلت التعاليم الثنوية لإفساد التعاليم الإسلامية وإضعاف العرب والسيطرة على الحكم، وبعضهم حاول إعادة المجوسية[٣].

والمجوس هم أتباع الديانة الثنوية من الفرس وهي الزرادشتية والمانوية والمزدكية، فالزرادشتية: نسبة إلى زرادشت (Zoroaster) الذي ظهر في شمال غرب إيران في القرن السادس قبل الميلاد، ويرى أن للعالم أصلين أو إلهين هما، إله الخير وهو اهورامزدا وإله الشر وهو اهرمن، وأصل الخير النور وأصل الشر الظلمة، والحرب قائمة بينهما سجالاً حيث تنتهي بانتصار إله الخير[٤].

والمانوية نسبة إلى ماني (القرن ٣م)، وتعاليمه مزيج من الزرداشتية والنصرانية، وشارك زرادشت بالقول بالثانوية، لكنه خالف بقوله أن الحياة شر يجب التخلص منه فدعا إلى الزهد وتحريم النكاح، لأن القضاء على الشر يكون بالفناء.

---

(١) انظر الأصفهاني: الأغني، جـ١، ص٣٨٠.

(٢) ابن النديم: الفهرست، ص١٧٢.

(٣) اليعقوبي: التاريخ، جـ١، ص٢٠١ ناجي معروف: أصالة الحضارة العربية، ص٤٠٩.

(٤) اليعقوبي: التاريخ، جـ١، ص٢٠١-٢٠٢، وانظر ص٢٢٠.

أما المزدكية فتنسب إلى مزدوك (مزدك) في القرن الخامس الميلادي، وكان يقول بالثانوية والنور والظلمة، وأنّ المال والنّساء سبب الحروب والشّر، فدعا إلى الإباحيّة وأن يكون المال والنّساء مشاعين للنّاس[1]، وحاول الفرس فرض هذه الديانة على عرب العراق، فلما رفض المنذر بن ماء السماء هذه الديانة كان جزاؤه الطرد من عرش العراق.

وفي العصر الأموي أحسّ الفرس أنّهم لم ينالوا حقوقهم في الدولة الإسلاميّة، فشاركوا في قيام الثورات ضد الأمويين، ووقفوا إلى جانب الثورة العباسية، فمنحهم خلفاء بني العباس الوظائف العالية في دولتهم كالوزارة والحجابة والإمارة على الأقاليم وقيادة الجيش، وكان الكثير من هذه التنظيمات مستمدّ من النظم الفارسيّة[2].

وأخذ العرب عن الفرس نظام البريد، وذلك بتقسيم المسافات على الطرق الواصلة بين المدن الإسلاميّة إلى مراكزها وجعلوا فيها أشخاصاً وخيولاً وكل مستلزمات السفر من الطعام والشراب والأعلاف وغيرها لتسهيل مهمّات المسافرين وحاملي الرسائل، وتأثّر العرب أيضاً بعادات الفرس كالاحتفال بعيدي النيروز والمهرجان في أول الربيع، وأول الخريف.

ونقل العرب عنهم وسائل الترف والنعيم فملأت قصور الأمراء والأغنياء، كما امتلأت القصور بالجواري، وتزوّج منهم أكثر خلفائهم، وأدّى هذا الوضع إلى فساد الحياة الاجتماعية، وانحطاط شأن المرأة العربية، فأدخل الفرس إلى الحضارة العربية مجالس الطرب والغناء والتأنّق في اللباس والزينة، وتعدّدت الأزياء واختلفت تبعاً للوظائف والطبقات الاجتماعية، فكان للفقهاء ملابسهم وللشرطة ملابسهم وللكتّاب ملابسهم وهكذا. . . .

---

(١) اليعقوبي: التاريخ، جـ١، ص٢٠٧ ناجي معروف: أصالة الحضارة العربية، ص٤١٠.
(٢) وليم الخازن: الحضارة العباسية، ص١٠٧.

أثر الحضارة الإسلاميّة في الحضارات الأُخرى

كما تأثّرت الحضارة العربية الإسلاميّة بمنجزات الحضارات العالمية كالهندية واليونانية والفارسية فقد أثّرت بالحضارات الأخرى، وأكثر ما ظهر أثرها على الحضارة الأوروبية التي كانت تعاني من الجمود والتخلّف في وقت سطع فيه نجم الحضارة العربية الإسلامية، وانتشرت المدارس في شرق البلاد وغربها، وامتلآت المكتبات بالمؤلّفات في مختلف العلوم والفنون، فاجتذبت هذه المدارس والمكتبات إليها الباحثين والعلماء من البلاد الأوروبية يدرسون وينهلون ممّا أبدعه العرب والمسلمون، فنقلوا ما أغنى أوروبا وجعلها قادرة على بناء حضارة متطوّرة تفوق ما كان منتظراً منها.

ففي مجال الطب نقل الأوروبيون المؤلّفات الطبية وأدوات الجراحة والأدوية التي حضرها المسلمون، ونقلوا كتاب الحاوي في الطب[١] الذي ألّفه الرازي ليكون المرجع الوحيد في جامعات أوروبا حتى القرن السابع عشر الميلادي.

واعترف علماء أوروبا أمثال كيبلر وبيكون بما قام به الحسن بن الهيثم في مجال العلوم حيث صحّح نظرية الأبصار، التي كانت سائدة منذ عهد اليونان، وقال بأنّ الرؤيا تكون بانطلاق الشعاع من الجسم المرئي إلى العين وليس العكس، ونقل العلماء أيضاً إلى أوروبا علم الجبر بقواعده وأصوله وتسميته.

وأصبحت أبحاث جابر بن الحيّان مؤسّس علم الكيمياء[٢] بما قدّم خلالها من معرفة متطوّرة وتحليل وتركيب لعدد من المواد الكيماوية من المراجع الرئيسية لعلماء أوروبا حتى القرن الثامن عشر الميلادي، وسيبقى علم الاجتماع مدين بظهوره وتقدّمه إلى المفكر الكبير والمؤرّخ الفذّ ابن خلدون، فهو أول من صاغ قوانين تقدّم الأمم وانهيارها، وأشار إلى أهميّة العوامل الطبيعية والجغرافيّة فسبق بذلك علماء

---

(١) ابن النديم: الفهرست، ص٤١٦-٤١٩ علي الشلق: العقل العلمي في الإسلام، ص٦٩-٧١.
(٢) ابن النديم: الفهرست، ص٤٩٨-٤٩٩.

أوروبا بزمن طويل[1].

والعرب هم الذين حفظوا تراث اليونان والرومان يوم فرّط به الأوروبيون، وهم أول من قال بكروية الأرض قبل أن يثبت الأوروبيون ذلك بزمن طويل، وبعثوا فلسفة اليونان من جديد[2]، وقد شهد علماء أوروبا بالدّور الكبير الذي لعبته الحضارة العربية الإسلاميّة في تقدّم الفكر العالمي، وتطبيق المنهج العلمي في البحث الأوروبي وهو المنهج الذي يقوم على البرهان والدليل.

وسائل انتقال الحضارة العربية الإسلاميّة إلى أوروبا

١- الأندلس:

هي الجزء الذي فتحه المسلمون وحكموه في شبه الجزيرة الإيبيرية، واستمرّ وجودهم فيها فيما بين ٩٢-٨٩٧هـ/ ٧١٧-١٤٩٢م، وامتلأت الأندلس خلال حكم المسلمين لها بمراكز التعليم والجامعات، وازدهرت فيها الحياة العلمية، وأنشئت المدن، وكثرت حواضر العلم والأدب كقرطبة وأشبيلة وطليطلة وغرناطة وبلنسية والمرية، وبرع في هذه المدن عدد من العلماء والأدباء، منهم الطبيب أبو القاسم الزهراوي، والفلاسفة أمثال ابن طفيل، وابن رشد، وابن باجة وغيرهم[3].

وأقبل علماء أوروبا وطلاب العلم على الاغتراف من التطوّر العلمي والأدبي الذي وصلت إليه الأندلس[4]، وظهرت حركة ثورية ضدّ تعاليم الكنيسة التي كانت تحدّ من القيام بالتجارب العلمية التي يمكن أن تغيّر كثيراً من النظريات والمفاهيم السائدة في أوروبا.

---

(١) ابو زيد شلبي: تاريخ الحضارة الإسلامية، ص٣٧٦.

(٢) ن.م: ص٣٧٧-٣٧٨.

(٣) ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ٢، ص٤٢٩-٤٣١ سعيد عاشور: تاريخ الحضارة الإسلامية، ص٧٩، ٩٩، ٧١٢-٧١٨.

(٤) روم لاندو: الإسلام والعرب، ص١٧٨-١٨٠.

ويعتبر الحكم الثاني (ت٣٥٠هـ/ ٩٦١م) رائد الحركة العلمية في الأندلس، إذ بلغ التطوّر العلمي في عهده ذروته، فعمل على نشر العلم من خلال افتتاح المدارس التي عيّن لها المدرّسين وأنفق الأموال الطائلة على طلابها، واشتهر بحبّه للعلم فاحتوت مكتبة قصره على مئات الألوف من الكتب والمخطوطات، كما انتشرت في عهده المكتبات العامة.

واهتمّ الإسبان بالعلوم العربية فعملوا على ترجمتها إلى اللاتينية حباً في العلم ورغبة منهم في معرفة آراء خصومهم المسلمين فيتمكّنوا من الدفاع عن ديانتهم المسيحية والوقوف في وجه المسلمين ودينهم.

وكان أشهر المترجمين جيرارد الكريموني الإيطالي (ت٥٨٣هـ/ ١١٨٧م) الذي حضر إلى إسبانيا لتعلّم العربية وترجمة بعض الكتب، فأقام عشرين سنة ترجم خلالها ما يزيد على سبعين مؤلّفاً من العربية إلى اللاتينية[١]، فترجم كتاب القانون في الطب لابن سينا، وكتاب المنصوري للرازي وكتاب المناظر للحسن بن الهيثم والجزء الجراحي من كتاب التصريف لمن عجز عن التأليف للزهراوي، وكتاب المجسطي لبطليموس ترجمه عن الترجمة العربية التي عملها الفرغاني.

واشتهر من المترجمين الأسبان يوحنا الأشبيلي الذي ترجم بعض أعمال العلماء المسلمين كابن سينا والغزالي والخوارزمي والفارابي، وأديلارد أوف باث الذي ترجم الجداول الفلكية للمجريطي سنة ١١٢٦م، وكانت هذه الجداول تعتمد على زيج الخوارزمي، ومنهم روبرت الشستري الذي ترجم كتاب الجبر والمقابلة للخوارزمي سنة ١١٤٥م وغيرهم.

ولمّا أصبحت قرطبة عاصمة الحضارة العربية في أسبانيا أنشأ حكّامها المدارس للطب والفلسفة والعلوم والفنون، وبذلوا عليها بسخاء كبير إذ كانت دولتهم قد بلغت درجة عظيمة من الثراء والتقدّم، وأرسل عبد الرحمن الثالث (الناصر) (٣٠٠-٣٥٠هـ/ ٩١٢-٩٦١م) لجمع الكتب واجتذاب العلماء للبحث والدرس

---

(١) Philip. Hitti: Histoy of the Arabs, New York, 1970, p.588.

والتأليف، فأصبحت حاضرته موطناً للعلوم ومركزاً طبيّاً اشتمل على عددٍ من المستشفيات والأطباء والصيادلة وعلماء الكيمياء والنبات والرياضيات والفلك والفلسفة، وكانت جامعة قرطبة ومكتبتها مركزاً فريداً للعلوم والترجمة من اللغات المختلفة إلى العربية.

وشابه عصر الحكم الثالث وهو ابن عمّ عبد الرحمن الثالث عصر أبيه في الاهتمام بالعلم والعلماء فقد كان شغوفاً بجمع العلوم ونشرها، فاهتمّ بمكتبة قرطبة حتى وصلت موجوداتها إلى نصف مليون كتاب، واحتوت على فهرسة مميّزة مكوّنة من أربعة وأربعين كتاباً في كل منها خمسين صفحة، كما أرسل أيضاً في طلب العلماء والكتب إلى مراكز الحضارات العالمية، وكان يدفع بسخاء على شراء الكتب، ثمّ قلّده بعض أمراء البلاد الأندلسية مثل أمير سرقوسة وأشبيلية وطليطلة وغرناطة، وقلّدوا قرطبة بجامعتها ومكتبتها، وكانت الجامعة تدرّس علوم الطب والصيدلة والكيمياء، واشتهرت مدريد بجامعتها ومدينتها الجامعية التي كانت تحتوي على أجنحة يعيش فيها الطلبة.

٢- صقلية:

خضعت جزيرة صقلية لحكم الدولة الرومانيّة الشرقية منذ القرن الخامس الميلادي وبقيت حتى القرن الثامن الميلادي عندما فتحها العرب المسلمون، وبدأت خطوات الفتح للجزيرة مع استغاثة (فيمي) الثائر ضد القسطنطينية والذي لجأ إلى بني الأغلب، فعهد الأمير إبراهيم بن الأغلب إلى القاضي أسد بن الفرات قيادة أسطول لفتح الجزيرة في ربيع الأول سنة ٢١٢هـ/ ٨٣٠م، ودخل العاصمة بلرمو وفتح الجزيرة فحكمها المسلمون زهاء قرنين من الزّمان أقاموا خلالها المساجد والمدارس والجامعات.

وحكم في الجزيرة بعد الأغالبة أبناء قبيلة كلب العربية، ثمّ تبعت السيادة الفاطمية بعد أن فرض الفاطميون سيادتهم على شمال أفريقيا ومصر، وعن طريق صقلية وصل المسلمون إلى جنوب إيطاليا فسقطت بأيديهم (سالرنو) و(نابولي) و(مونت

كاسينو)، حيث تأثّرت هذه المدن برياح الحضارة العربية الإسلاميّة الغنيّة القادمة من ديار المسلمين[١].

واهتمّ المسلمون خلال حكم صقلية وجنوب إيطاليا بالزراعة فقاموا بحفر الترع والقنوات، وأدخلوا زراعة القطن وقصب السكر والكتان والزيتون، واهتموا بالصناعة والتعدين فاستخرجوا النحاس والكبريت والذهب والفضة والحديد والرصاص، وعلموا أهالي الجزيرة صناعة الحرير وصناعة السفن[٢].

وظهر في جنوب صقلية جملة من العلماء والباحثين والمحدّثين والفقهاء والأدباء والفلاسفة منهم أسد بن الفرات وابن حمديس الصقلي الشاعر المبدع وابن الفحام والحسن بن يحي المعروف بابن الجزّار صاحب تاريخ صقلية، والشريف الإدريسي صاحب كتاب (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) الذي جمع معلومات المسعودي وبطليموس وصنع لروجر النورماندي خريطة كروية للأرض من الفضّة[٣].

وكان بعض ملوك صقلية النورمان على علاقة حسنة مع المسلمين ويثقون بهم ثقة كبيرة فتعلموا لغتهم ونقلوا بعض شعاراتهم الإسلامية[٤]، وأسّسوا في مدينة جنوة مدرسة لتعليم اللغة العربية سنة ١٢٠٧م فدخلت بعض الكلمات والألفاظ العربية إلى لغتهم بالإضافة إلى أسماء الموازين والمكاييل والألفاظ البحرية، وأنشأوا مدرسة للطب في بلرمو.

٣- الحروب الصليبيّة:

توقّع الصليبون أن يواجهوا في الشرق الإسلامي مجموعة من النّاس البربر المتوحّشين من العرب والمسلمين[٥]، إلاّ أنّ الحال لم يكن كذلك ففوجئوا

---

(١) أحمد الملا: أثر العلماء المسلمين، ص١٢٣.

(٢) ابن جبير: الرحلة، ص٣٠٠-٣٠١، أحمد الملا: أثر العلماء المسلمين، ص١٢٣.

(٣) الإدريسي: نزهة المشتاق، جـ١/ المقدمة أ-ج.

(٤) ابن جبير: الرحلة، ص٢٩٨.

(٥) كانت أوربا في العصور الوسطى تعيش حياة من التخلف والجهل وتسيطر فيها الأميّة وينتشر الفقر فتوهّموا أن يجدوا العرب والمسلمين في الشرق على حالة مشابهة لذلك، مع أنّ البلاد العربية كانت=

بالمستوى الحضاري الرفيع الذي كان عليه العرب ممّا دفعهم إلى الاقتباس من صناعات العرب وفنونهم وعاداتهم وتقاليدهم وأنظمتهم وعلومهم فنقلوا منها ومن لغات العرب المسلمين إلى أوروبا، حيث وجدوا أنفسهم وجهاً لوجه أمام الثقافة العربية، فتحوّلت بعض الإمارات الصليبية مثل إنطاكية وطرابلس إلى مراكز للترجمة والتعليم، كما ساهمت فترات الهدوء التي تخلّلت الحروب الصليبية على إعطاء فرصة لبعض العلماء والمترجمين الذين رافقوا الحملات الصليبية على ترجمة بعض الكتب ونقلها إلى أوروبا[١].

ورافق الحروب الصليبية بعض النشاط الفكري والحضاري، فبرز من بين اللاتين الذين استقرّوا في الأراضي المقدّسة من كتب التاريخ مثل (وليم الصوري)، ومنهم من كتب القانون مثل (حنّا الابليني)، و(فيليب نافاري)، وكذلك انسابت بعض المصطلحات العربية إلى أوروبا[٢].

وأثّرت الحروب الصليبية في تطوّر فنّ الحرب عند الأوروبيين لا سيما ما يتعلّق ببناء القلاع ذات الحائط المزدوج، وتقدّم في استعمال آلات الحصار واستعمال المجانيق واستخدم الدروع للفرسان واستخدام الحمام الزاجل في المراسلات الحربية.

٤- التجارة:

فقام العرب والمسلمون بدور الوسيط التجاري بين أوروبا والعالم الشرقي، وكانت أوروبا قد تعوّدت على السلع الشرقيّة، وكان من الصعب الاستغناء عنها من التوابل والبهارات، فنقلوا تجارة الشرق إلى الغرب وتجارة الغرب إلى الشرق، كما حملوا منتجات العالم الإسلامي إلى أوروبا، وكان بعضها مضرب المثل في الأسواق

= تشهد أرقى فترات الازدهار الحضاري في العصور الوسطى (انظر غوستاف لوبون: حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر، مطبعة عيسى الحلبي، القاهرة، ص٦٥٥ عبد الله العمري: تاريخ العلم عند العرب، ص٢٥٥).

(١) عبد الله العمري: تاريخ العلم عند العرب، ص٢٥٦.

(٢) أحمد الملا: أثر العلماء المسلمين، ص١١٩.

الأوروبيّة لإتقانها وجودة صناعتها، وكان لتنقّل التجّار أثر كبير في التبادل الثقافي وانتقال مظاهر الحضارة العربية الإسلاميّة إلى أوروبا.

وقلّد الأوروبيون العرب في إنتاج بلادهم ونقلوا معهم الثقافة والعلوم ووسائل المعاملات التجارية، ونشأت مراكز تجارية للمسلمين على سواحل البحر المتوسط كان يتردّد عليها تجّار أوروبا وعلماؤها، فتأثّروا واستفادوا ممّا وجدوه أو شاهدوه في هذه المراكز الإسلاميّة[1].

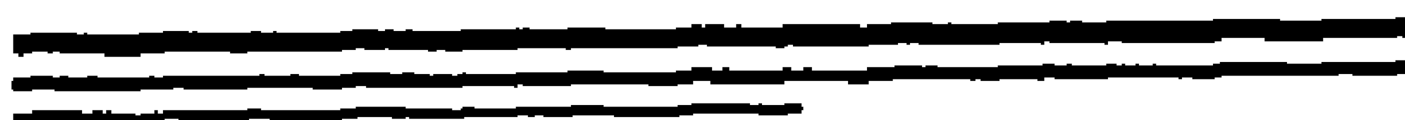
٥- البعثات العلميّة:

بدأت أوروبا بإرسال البعثات العلمية إلى العالم الإسلامي منذ القرن الحادي عشر الميلادي، واتّجهت الرحلات الأولى إلى مراكز الحضارة الإسلاميّة القريبة، فتوجّه قسم من هذه البعثات إلى المغرب، وقسم منها كانت وجهته الأندلس حيث كانت منطقة المغرب الإسلامي مركز إشعاع حضاري.

رحل كثير من علماء أوروبا وأقبلوا على الدراسة في الجامعات الإسلامية وترجمت الكتب العربية، ورحل بعض علماء أوروبا إلى المشرق الإسلامي للاطّلاع على تطوّرات البلاد الإسلاميّة في العلوم والآداب المختلفة، ودراسة المخطوطات النفيسة التي كانت تحتفظ بها مكتبات ومتاحف العالم الإسلامي.

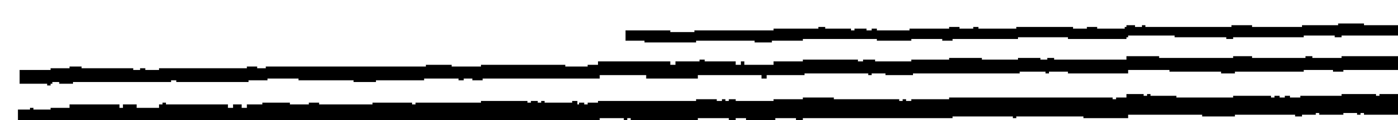
---

(١) عبد المنعم ماجد: تاريخ الحضارة الإسلاميّة، ص٢٨١.





قائمة
المصادر والمراجع



قائمة المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.

أ- المصادر:

الابشيهي، محمد أحمد أبو الفتح (ت٨٦٠هـ/ ١٤٥٥م):

المستطرف في كل فن مستظرف، دار التراث العربي، بيروت، ١٩٥٢م.

ابن الأثير، علي بن محمد (ت٦٣٠هـ/ ١٢٣٣م):

- أسد الغابة في تمييز الصحابة، القاهرة، ١٩٦٤م.

- الكامل في التاريخ، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٨م.

ابن الأخوة (ت٧٢٩هـ/ ١٣٢٨م):

معالم القربة في أحكام الحسبة، مكتبة المثّنى، بغداد.

ابن بطوطة، محمد بن عبد الله (ت٧٧٩هـ/ ١٣٧٧م):

تحفة النظّار في غرائب الأسفار وعجائب الأمصار المعروف بالرحلة، دار صادر، بيروت.

ابن تيمية، تقي الدين (ت٧٢٨هـ/ ١٣٣٠م):

- الإيمان، دار إحياء العلوم، بيروت، ١٩٨٤م.

- الحسبة في الإسلام، تحقيق عبد العزيز رباح، مكتبة دار البيان، دمشق، ١٩٦٧م.

ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي (ت٥٩٧هـ/ ١٢٠١م):

- تاريخ عمر بن الخطّاب، تحقيق أحمد شومان، مكتبة المؤيّد، الطائف.

- المصباح المضيء في خلافة المستضيء، تحقيق ناجية عبد الله إبراهيم، مطبعة الشعب، بغداد، ١٩٩٧م.

ابن حزم، علي بن سعيد (ت٤٥٦هـ/ ١٠٦٣م):
الفصل في الملل والأهواء والنحل، القاهرة، ١٣١٧هـ.
ابن حوقل، أبو القاسم النصيبي (ت٣٦٧هـ/ ٩٧٧م):
صورة الأرض، دار مكتبة الحياة، بيروت.
ابن خرداذبّة، عبيد الله بن عبد الله (ت٣٠٠هـ/ ٩١٢م):
المسالك والممالك، مطبعة بريل، ليدن، ١٩٦٧م.
ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (ت٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م):
العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيّام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت.
ابن خلّكان، أحمد بن محمد (ت٦٨١هـ/ ١٢٨٢م):
وفيات الأعيان، وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عبّاس، دار الثقافة، بيروت، لبنان.
ابن الرومي:
الديوان، تحقيق حسين نصّار، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٧٤م.
ابن سعد، محمد (٢٣٠هـ/ ٨٤٤م):
الطبقات الكبرى، دار الفكر، ١٩٧٠م.
ابن الشحنة، محبّ الدين:
روض المناظر في علم الأوائل والأواخر، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧م.
ابن الصيرفي، علي بن منجب (ت٥٥٠هـ/ ١١٥م):
- الإشارة إلى من نال الوزارة، تحقيق عبد الله مخلص، المعهد الفرنسي، القاهرة، ١٩٢٤م.
- القانون في ديوان الرسائل، نشر وتعليق بهجت علي، مطبعة الواعظ، القاهرة، ١٩٠٥م.

ابن الطقطقى، محمد بن علي (ت٧٠٩هـ/ ١٣١٩م):

الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلاميّة، تحقيق عبد القادر محمد مايو، دار القلم العربي، حلب، ١٩٩٧م.

ابن الطوير، محمد عبد السلام القيسراني (٦١٧هـ/ ١٢٢٠م):

نزهة المقلتين في أخبار الدولتين، تحقيق أيمن فؤاد سيّد، مطابع دار صادر، بيروت، ١٩٩٢م.

ابن عبد ربه، تقي أحمد بن محمد (٣٢٨هـ/ ٩٣٩م):

العقد الفريد، تحقيق مفيد محمد قميمة، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان.

ابن عساكر، علي بن الحسن (ت٥٧١هـ/ ١١٧٥م):

تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري، دمشق، ١٣٤٧هـ.

ابن العماد، عبد الحي بن أحمد (ت١٠٨٩هـ/ ١٦٧٨م):

شذرات الذهب في أخبار من ذهب، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

ابن الفقيه، أحمد بن محمد الهمذاني (ت٢٨٦هـ/ ٨٩٩م):

مختصر كتاب البلدان، مطبعة بريل، ليدن، ١٣٠٢هـ.

ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم (ت٢٧٦هـ/ ٨٨٩م):

- الإمامة والسياسة، مطبعة مصطفى بابي الحلبي، القاهرة، ١٩٦٩م.
- عيون الأخبار، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان.
- المعارف، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان.

ابن كثير، عماد الدين إسماعيل (ت٧٧٤هـ/ ١٣٧٢م):

البداية والنهاية، مكتبة المعارف، بيروت، ١٩٦٦م.

ابن المرتضى، أحمد بن يحيى (ت٨٤٠هـ/ ١٤٣٦م):

فرق وطبقات المعتزلة (كتاب المنية والأمل)، دار المطبوعات الجامعية، ١٩٧٢م.

ابن مماتي، الأسعد (ت٦٠٦هـ/ ١٢٠٩م):

مختصر كتاب قوانين الدواوين، رسالة ماجستير، تحقيق عدنان الصمادي، الأزهر، ١٩٨٢م.

ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم (ت٧١١هـ/ ١٣١١م):

لسان العرب، دار صادر، بيروت.

ابن ميسر، محمد بن علي (ت٦٧٧هـ/ ١٢٧٨م):

المنتقى من أخبار مصر، تحقيق أيمن فؤاد سيّد، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقيّة، القاهرة.

ابن نباتة المصري، محمد بن محمد (ت٧٦٨هـ/ ١٣٦٦م):

سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون، مطبعة المدني، القاهرة، ١٩٦٤م.

ابن النديم (ت٣٨٥هـ/ ٩٩٥م):

الفهرست، دار المعرفة، بيروت - لبنان.

ابن هشام، عبد الملك (ت١٤١هـ/ ٧٦٠م):

السيرة النبويّة، مطبعة مصطفى بابي الحلبي، القاهرة.

أبو تمّام (القرن ٣هـ/ ٩م):

الديوان، دار المعارف، القاهرة.

أبو عبيد، القاسم بن سلام (ت٢٢٤هـ/ ٨٣٩م):

الأموال، مؤسسة ناصر للثقافة، بيروت، ١٩٧٩م.

أبو المحاسن، ابن تغري بردي (ت٨٧٤هـ/ ١٤٧٩م):
النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، المؤسسة المصرية العامة، القاهرة.
أبو يعلى، محمد بن الحسين (ت٤٥٨هـ/ ١٠٦٥م):
الأحكام السلطانية، شركة مصطفى بابي الحلبي، القاهرة، ١٩٦١م.
أبو يوسف، يعقوب بن إبراهيم (ت١٨٢هـ/ ٧٩٨م):
الخراج، دار المعرفة، بيروت، ١٣٤٧هـ.
أخوان الصّفا (القرن ٥هـ/ ١١م):
الرسائل (رسائل إخوان الصّفا وخلاّت الوفا)، دار صادر، بيروت، ١٩٥٧م.
الإدريسي، أبو عبد الله محمد بن محمد الحمودي (ت٥٦٠هـ/ ١١٦٤م):
نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٩م.
الأزرقي، محمد بن عبد الله بن أحمد (ت٢٥٠هـ/ ٨٦٥م):
أخبار مكّة وما جاء فيها من الآثار، مكّة، ١٩٦٥م.
الاصطخري، إبراهيم بن محمد (ت٣٤٦هـ/ ٩٥٧م):
المسالك والممالك، تحقيق محمد جابر عبد العال الحسيني، دار القلم، القاهرة، ١٩٦١م.
الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين (ت٣٥٦هـ/ ٩٦٧م):
الأغاني، دار الكتب المصرية، القاهرة.
البخاري، محمد بن إسماعيل (ت٢٥٦هـ/ ٨٦٩م):
الصحيح، الرياض، ١٩٩٨م.
البلاذري، أحمد بن جابر (ت٢٧٩هـ/ ٩٨٢م):
فتوح البلدان، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ١٩٨٧م.

البيروني، أبو الريحان (ت٤٤٠هـ/١٠٤٨م):
الآثار الباقية عن القرون الخالية، طبعة ليبزغ، ١٩٢٣م.
التوراة، الأسفار (الملوك، آرميا، حزقيال، والأيام).
الثعالبي، عبد الملك بن محمد (ت٤٣٠هـ/١٠٣٨م):
- لطائف المعارف، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة.
- يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٩٥٦م.
الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر (ت٢٥٥هـ/٨٦٨م):
البيان والتبيّن، دار مكتبة الهلال، بيروت، ١٩٨٨م.
الجهشياري، محمد بن عبدوس (ت٣٣١هـ/ ٩٤٢م):
الوزراء والكتّاب، تحقيق مصطفى السقّا، مطبعة مصطفى بابي الحلبي، القاهرة، ١٩٣٨م.
الجوهري، إسماعيل بن حمّاد (ت٣٩٣هـ/ ١٠٠٢م):
الصحاح، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٧٩م.
حاجي خليفة (ت١٠٦٧هـ/ ١٦٥٧م):
كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، مكتبة المثنّى، بيروت.
حسّان بن ثابت الأنصاري (ت٥٠هـ/ ٦٧٠م):
الديوان، دار صادر، بيروت.
الحميري، محمد بن عبد المنعم (ت٦١٠/ ١٢١٣م):
الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عبّاس، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٧٥م.

الخطيب البغدادي، أحمد بن علي (ت٤٦٣هـ/ ١٠٧٠م):
تاريخ بغداد، دار الكتاب العربي، بيروت.
الخوارزمي:
مفاتيح العلوم، منشورات مكتبة الكليات الأزهرية، ١٩٨١م.
الدمشقي، جعفر بن علي (ت قرن ٦هـ/ ١٢م):
الإشارة إلى محاسن التجارة، مطبعة المؤيّد، دمشق، ١٣١٨هـ.
الذهبي، محمد بن أحمد (ت٧٤٨هـ/ ١٣٧٤م):
- دول الإسلام، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ١٩٨٥م.
- ميزان الاعتدال، تحقيق علي محمد البجاري، القاهرة، ١٩٦٢م.
الرازي، أحمد بن حمدان (ت قرن ٤هـ/ ١٠م):
كتاب الزينة في الكلمات الإسلامية، دار واسط للنشر، بغداد، ١٩٨٢م.
الزبيدي، محمد مرتضى (ت١٢٥٠هـ/ ١٧٩١م):
تاج العروس من جواهر القاموس، دار مكتبة الحياة، بيروت.
الزمخشري (ت٥٣٨هـ/ ١١٤١م):
الكشاف، المطبعة البهيّة، القاهرة، ١٣٤٣هـ.
السمهودي:
وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى، القاهرة.
السيوطي، جلال الدين (ت٩١١هـ/ ١٥٠٥م):
- الاتقان في علوم القرآن، مطبعة البابي الحلبي، القاهرة.
- تاريخ الخلفاء، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٩٥٢م.

الشيزري، عبد الرحمن بن نصر (ت٧٧٤هـ/ ١٣٧٢م):
نهاية الرتبة في طلب الحسبة، تحقيق السيّد الباز العريني، مطبعة لجنة التأليف والترجمة، القاهرة، ١٩٤٦م.
الطبري، محمد بن جرير (ت٣١٠هـ/ ٩٢٢م):
الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة.
العبّاسي، أحمد بن عبد الحميد:
عمدة الأخبار في مدينة المختار.
العسكري، أبو هلال (ت٣٩٥هـ/ ١٠٠٤م):
الأوائل، تحقيق محمد المصري، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، ١٩٧٥.
الفاسي، محمد بن أحمد (ت٨٣٢هـ/ ١٤٢٩م):
شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، تحقيق عمر بن عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٨٥م.
قدامة بن جعفر البغدادي (ت٣٢٨/ ٩٣٩م):
الخراج وصناعة الكتابة، تحقيق محمد حسين الزبيدي، دار الرشيد للنشر، بغداد، ١٩٨١م.
القلقشندي، أحمد بن علي (ت٨٢١هـ/ ١٤١٩م):
صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، دار الكتب العلميّة، بيروت، ١٩٨٧م.
الكندي، يعقوب بن إسحاق (ت٢٦٠ / ٨٧٣م):
رسالة في عمل السيوف، تحقيق فيصل دبدوب، مطبعة العاني، بغداد، ١٩٦٢م.

الماوردي، علي بن محمد (ت٤٥٠هـ/ ١٠٥٨م):

الأحكام السلطانية والولايات الدينية، مكتبة مصطفى بابي الحلبي، القاهرة، ١٩٦٠م.

المسعودي، علي بن الحسين (ت٣٤٦هـ/ ٩٥٧م):

- التنبيه والإشراف، بيروت، لبنان، ١٩٦٥م.
- مروج الذهب ومعادن الجوهر، دار الأندلس، بيروت، ١٩٦٥م.

مسكوية، أحمد بن محمد (ت٤٢١هـ/ ١٠٣٠م):

تجارب الأمم، شركة المدن الصناعيّة، القاهرة، ١٩١٥م.

مسلم بن حجّاج (ت٢٦١هـ/ ٨٧٤م):

الصحيح، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٥٥م.

المقدسي، محمد بن أحمد البشاري (ت٣٧٥هـ/ ٩٨٥م):

أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مطبعة بريل، ليدن، ١٩٦٧م.

المقريزي، أحمد بن علي (ت٨٤٥هـ/ ١٤٤١م):

- إتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، تحقيق جمال الدين الشيال، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، ١٩٦٧م.
- إغاثة الأمّة بكشف الغمّة، مؤسسة ناصر للثقافة.
- شذور العقود في ذكر النقود، المطبعة الحيدرية، النجف، ١٣٥٦هـ.
- المقفى الكبير، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩١م.
- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، مكتبة المثنى، بغداد.

المناوي، محمد عد الرؤوف بن علي (ت١٠٣١هـ/ ١٦٢١م):

النقود والمكاييل والموازين، تحقيق رجا محمود السامرائي، دار الرشيد، بغداد، ١٩٨١م.

النووي، يحي بن شرف (ت٦٧٦هـ/ ١٢٧٧م):

رياض الصالحين من كلام سيّد المرسلين، دار العلم، بيروت، ١٩٧٠م.

النويري، أحمد بن عبد الوهاب (ت٧٣٢هـ/ ١٣٣٢م):

نهاية الأرب في فنون الأدب، مطبعة فوزي العتيل، المطبعة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٥م.

الهمذاني، محمد بن عبد الملك (ت٥٢١هـ/ ١١٢٧م):

تكملة تاريخ الطبري، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٢م.

ياقوت الحموي (ت٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م):

- معجم الأدباء (إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب)، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- معجم البلدان، دار الكتاب العربي، بيروت.

يحي بن آدم القرشي (ت٢٠٣هـ/ ٧٩٩م):

الخراج، تحقيق أحمد محمد شاكر، دار المعرفة، بيروت، ١٩٦٩م.

اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب (ت٢٨٤هـ/ ٨٩٧م):

- البلدان، مطبعة بريل ليدن، ١٨٩١م.
- التاريخ، دار صادر، بيروت.

ب- المراجع:

أبو الأعلى المودودي: الحضارة الإسلاميّة، أُسسها ومبادؤها، مجلة الإسلام والحضارة، المجلّد الأول، الرياض، ١٩٧٩م.

أبو زيد شلبي: تاريخ الحضارة الإسلاميّة والفكر الإسلامي، مكتبة وهبة، ١٩٦٤م.

إحسان عبّاس: تاريخ دولة الأنباط، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمّـان، الأردن، ١٩٨٧م.

أحمد شلبي: موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٨١م.

أحمد شوقي الفنجري: العلوم الإسلاميّة، مؤسسة الكويت للتقدّم العلمي، الكويـت، ١٩٨٥م.

أحمد عبد الباقي: معالم الحضارة العربية في القرن الثالث الهجري، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٩١م.

أحمد عبد السلام ناصف: الشرطة في مصر الإسلاميّة، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، ١٩٨٧م.

أحمد علي الملاّ: أثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوروبية، دار الفكر.

آدم متز: الحضارة الإسلاميّة في القرن الرابع الهجري، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٦٧م.

آرنست كونل: الفن الإسلامي، ترجمة أحمد موسى، مطبعة أطلس، القاهرة، ١٩٦١م.

أسد الأشقر: الخطوط الكبرى في تاريخ سورية، ونشوء العالم العربي، مؤسسة فكر للأبحاث، بيروت، ١٩٨٢م.

أيمن فؤاد سيّد: الدولة الفاطمية في مصر، الدار المصرية اللبنانية، بيروت، ١٩٩٢م.

توفيق عبد الجواد: تاريخ العمارة والفنون الإسلاميّة، دار الكتب، ١٩٧٠م.

توفيق سلطان اليوزبكي: دراسات في النظم العربية الإسلاميّة، الموصل، ١٩٨٨م.

جهادية القرة غولي: العقلية العربية في التنظيمات الإدارية والعسكرية.

جواد علي: المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار العلم للملايين، بيـروت، ١٩٨٠م.

حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٦٤م.

حسن الفقي: الثقافة والتربية، الإسكندرية، ١٩٧٠م.

حسين الكساسبة: المؤسسات الإدارية في مركز الخلافة العباسية، عمّان، ١٩٩٤م.

حكمت فريحات: مدخل إلى تاريخ الحضارة العربية الإسلاميّة، دار الشروق، عمّان، ١٩٨٩م.

حنّا الفاخوري وخليل الجر: تاريخ الفلسفة العربية، دار الجيل، بيروت، ١٩٨٢م.

ديماند، م.س: الفنون الإسلاميّة، ترجمة محمد أحمد عيسى، دار المعارف، القاهرة، ١٩٥٨م.

روم لاندو: الإسلام والعرب، ترجمة منير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيـروت، ١٩٧٧م.

سعد زغلول عبد الحميد: العمارة والفنون في دولة الإسلام، منشأة المعارف، الإسكندرية، ١٩٦٨م.

سعيد الأفغاني: أسواق العرب في الجاهلية والإسلام.

سعيد عاشور: دراسات في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية في العصور الوسطى.

سمير الصايغ: الفن الإسلامي، دار المعارف، بيروت، ١٩٨٨م.

سيد أمير علي: مختصر تاريخ العرب، القاهرة، ١٩٣٨م.

السيد سابق: فقه السنّة، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٨٥م.

السيّد عبد العزيز سالم: تاريخ العرب في الجاهلية، دار النهضة العربية، بيروت - لبنان.

الشرباصي: المعجم الاقتصادي الإسلامي، دار الجيل، ١٩٨١م.

صالح أبو دياك: دراسات في التاريخ الإسلامي، دار الملاحي، إربد، ١٩٨٥م.

صالح ذياب: الثقافة الإسلاميّة، جمعية عمّال المطابع التعاونية، عمّان، ١٩٨٤م.

صبحي الصالح: النظم الإسلاميّة، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٠م.

صفاء حافظ عبد الفتاح: نظم الحكم في الدولة العباسية، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٨٥م.

صفوان التل: الآثار العربية الإسلاميّة في الأردن، عمّان، ١٩٨٨م.

عبد السلام هارون: تهذيب سيرة ابن هشام، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٢م.

عبد العزيز الدوري: تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري، دار المشرق، بيروت، ١٩٧٤م.

عبد الفتاح روّاس قلعة جي: مدخل إلى علم الجمال الإسلامي، دار قتيبة، دمشق، ١٩٩١م.

عبد الله العمري: تاريخ العلم عند العرب، دار مجدلاوي، عمّان، ١٩٩٠م.

عبد الله الأمين: دراسات في الفرق والمذاهب القديمة والمعاصرة، دار الحقيقة، بيروت، ١٩٩١م.

عبد المنعم ماجد: تاريخ الحضارة الإسلاميّة في العصور الوسطى، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٧٢م.

عبده الحلو وبهزاد جابر: الوافي في تاريخ العلوم عند العرب، دار الفكر اللبناني، بيروت، ١٩٩٦م.

عطية القوصي: الحضارة الإسلامية، دار الثقافة العربية - القاهرة، ١٩٨٥م.

عطية مصطفى مشرفة: نظم الحكم بمصر في عصر الفاطميين، دار الفكر العربي، القاهرة.

عفيف البهنسي:

- الشّام الحضارة، وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٨٦م.
- الشام، لمحات آثارية وفنيّة، دار الحرية، بغداد، ١٩٨٠م.

عفيف طبّارة: روح الدين الإسلامي، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨١م.

علي إبراهيم حسن: التاريخ الإسلامي العام، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة.

علي شلق: العقل العلمي في الإسلام، جروس برس، طرابلس - لبنان، ١٩٩٢م.

عمر أبو النصر: تاريخ الأمّة العربيّة، بيروت، ١٩٧٠م.

عمر فروخ:

- الأسرة في الشرع الإسلامي، بيروت، ١٩٥١م.
- تاريخ الجاهلية وعصر الرسول، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٤م.
- تاريخ الفكر العربي إلى أيام ابن خلدون، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٣م.

فاروق عمر فوزي: النظم الإسلاميّة، دار الخليج، العين، ١٩٨٣م.

فالترهنتش: المكاييل والأوزان الإسلاميّة، ترجمة كامل العسلي، عمّان، ١٩٧٠م.

فتحية النبراوي: تاريخ النظم والحضارة الإسلاميّة، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٩٩م.

فيصل بدير عون: علم الكلام ومدارسه، مكتبة الحرية الحديثة، القاهرة، ١٩٨٢م.

فيليب حتي:

- تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ترجمة كمال اليازجي، دار الثقافة، بيروت، ١٩٥٩م.
- تاريخ العرب، مطول، دار غندور، بيروت، ١٩٨٦م.

فواز طوقان: الحائر في العمارة الأموية، عمّان، ١٩٧٩م.

قدري طوقان: العلوم عند العرب، دار اقرأ، بيروت - لبنان، ١٩٨٣م.

قصي الحسين: من معالم الحضارة العربية، المؤسسة الجامعية، بيروت، ١٩٩٣م.

كارل بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلاميّة، ترجمة نبيه فارس ومنير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٦٥م.

كرد علي: خطط الشام، مكتبة النوري، دمشق، ١٩٨٣م.

لانكستر هاردنج: آثار الأردن، منشورات وزارة السياحة والآثار، عمّان، ١٩٧١م.

محمد أبو زهرة:

- تاريخ المذاهب الإسلامية، دار الفكر.
- تنظيم الإسلام للمجتمع، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٦٥م.

محمد أحمد الخطيب، ومحمد عوض الهزايمة: دراسات في العقيدة الإسلاميّة، دار عمّار، عمّان، ١٩٩٠م.

محمد بيومي بهران: تاريخ العرب القديم، المعرفة الجامعية، الإسكندرية.

محمد ضياء الدين الريّس: الخراج والنظم المالية في الإسلام، دار الأنصار، بيروت، ١٩٧٧م.

محمد فائز القصري: مظاهر الثقافة الإسلاميّة وأثرها في الحضارة، ط١، ١٩٧٩م.

محمد السعود الزعبي: القضاء والقضاة في الدولة العربيّة الإسلاميّة، رسالة دكتوراه، جامعة دمشق.

محمد محاسنة:

- الأحوال الاقتصاية في بلاد الشام خلال العصر الأموي، رسالة ماجستير، ١٩٨٦م.
- تاريخ مدينة دمشق خلال الحكم الفاطمي، دار الأوائل، دمشق، ٢٠٠١م.

- صفحات من تاريخ آل البيت، مطبعة البهجة، إربد، ١٩٩٨م.

محمد مصطفى شلبي: أحكام الأسرة في الإسلام، الدار الجامعيّة، بيروت، ١٩٨٣م.

محمد مطيع الحافظ: تاريخ العلوم عند العرب، مطبعة جامعة دمشق، دمشق، ١٩٨٩م.

محمود إسماعيل: تاريخ الحضارة العربية الإسلاميّة، مكتبة الفلاح، الكويت، ١٩٩٢م.

محي الدين طالو: فنون زخرفية معمارية، دار دمشق، دمشق، ١٩٩٩م.

مصطفى السباعي: المرأة بين الفقه والقانون، المكتب الإسلامي، دمشق، ١٩٨٤م.

مصطفى عبّاس الموسوي: العوامل التاريخية لنشأة وتطور المدن العربية الإسلاميّة، دار الرشيد للنشر، بغداد، ١٩٨٢م.

ناجي معروف: أصالة الحضارة العربية الإسلاميّة، مطبعة التضامن، بغداد، ١٩٦٩م.

ناجي معروف والدوري: موجز تاريخ الحضارة الإسلاميّة، مطبعة المعارف، بغداد، ١٩٤٨م.

نبيه عاقل:

- تاريخ خلافة بني أميّة، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٥م.
- تاريخ العرب القديم وعصر رسول الله، دار الفكر، دمشق، ١٩٧٥م.

هاملتون جب: المجتمع الإسلامي والغرب، ترجمة أحمد عبد الرحيم مصطفى، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧١م.

وحدة الفن الإسلامي، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلاميّة، الرياض، ١٤٠٥هـ.

ج- المراجع الأجنبية:

1- Bazmee Ansari: Hisba / Encyclapaedia of Islam London, 1949

2- Hartmann: Barid / Encyclopaedia of Islam, London, 1960.

3- Kremer: Orient Under the Calephs.

4- Krez Well: Early Moslim Architecture in the Holy Land, Oxford, Second edition, 1969.

5- Philip. Hitti: History of the Arabs, New York, 1970.

6- Tylor. E. B: Primitive Culture, New York, 1924.




al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين